دومينيك ليكور

أميركا ما بين التوراة وداروين

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

ترجمة
نبيل أبو صعب

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

أميركا
ما بين
التوراة وداروين

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1432 هـ ـ 2011 م

"ouvrage publié avec le concours du Ministère français chargé de la culture- Centre national du livre"

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ شارع لميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

http:// www.editionmajd.com

ISBN 978-9953-515-98-4

دومينيك ليكور

أميركا
ما بين
التوراة وداروين

ترجمة

نبيل أبو صعب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة:

L'Amérique entre la Bible et Darwin

Par

Dominique Lecourt

© Quadrige/PUF

ليس للطبيعة غاية محددة مسبقاً، وكل العلل الغائيـــة ليست إلا أوهاماً بشريـــــة

سبينوزا ــ علم الأخلاق

إن الذهـــن البشري، ما أن يعجـــب ببعض الأراء (لأنها أخذت واعتبرت صحيـــحة ولأنها ممتعة) حتى يجرّ البقية كلها لدعمها ولتأكيدها".

باكون - المنهج الجديد

مقدمـــــــــة

اعتاد مواطنو الولايات المتحدة أن يقولوا عن بلدهم: هذه هي أمريكا، وهم لا يترددون على هذا النحو في إلحاق قارة بأكملها بمجدهم أو بأعمالهم الدنيئة. إن الشعب الأمريكي المتلهف لبعض اليقينات، وبقصد اصطناع صورة لأمة، قد عهد إلى الجغرافية، بما كان يعود للتاريخ. فهل لأن الثاني كان يبدو قصيراً جداً بنظره فقام بتوسيع الأولى؟ يبقى أن "أمريكا" ليس لها أية حقيقة سوى حقيقة وجود تلفيقي اخترعه شعب يعيش حالة بحث دائم عن هويته، وفي الكلمة ذاتها التي أعلنت فيها عن نفسها تقرّ بأنها مضنية.

من يسعه التشكيك اليوم بالقوة التوسعية لهذا التلفيق؟ "فأمريكا" تسافر عبر الأقمار الصناعية وتغمر الأرض في عالم الأفكار التي هي رمزه. وسيكون نصف قرن كافياً مع ذلك لجعلنا نكتشف "أمريكا" بوصفها وجود موزع بعمق، وتلفيق ضعيف التماسك.

تجدد، شباب، حرية، حيوية، وقوة أيضاً وفاعلية: 1945. شكلانية، روتين حقد وجبن. سنوات الستينات جعلت أمريكا المتخمة تعيد اكتشاف وجه "أمريكا الأخرى" التي كانت تقيم داخلها، فترعبها: بؤس، جرائم منظمة، "غيتوهات" من كل الأنواع، ثورات... 1979: أغلبية أخلاقية، رونالد ريغان. كل شيء أعيد تحت السيطرة؟ "أمريكا" تتوقف عن تقديم عروض روحها الممزقة. لكن يجري اكتشاف جرح غريب في خاصرة القوة التكنولوجية العظمى حارسة "العالم الحر". فثمة حركة محمومة تسعى لأن تفرض على مدرسي الحلقة الثانية أن يدرّسوا قصة

الخلق بوصفها نظرية علمية منافسة لنظرية داروين! والمجتمع العلمي الأمريكي الفخور بحاملي جائزة نوبل العديدين بين صفوفه يجد نفسه في حالة من الارتباك، لاسيما ولأن الرئيس قد اعتنق هذه القضية، وأنها تتضاعف وفي ولاية إثر ولاية، القوانين التي تُشرعن هذا الهذيان.

لقد أبعُد الخطر ـ ولو مؤقتاً على الأقل؟ ـ بعد خوض معارك قاسية. لكن القانون "الخلقي" الأخير لم يلغ تماماً إلا عام 1987! وبالتالي فإن الجرح يظل مفتوحاً.

ولا ينفك العلماء والمؤرخون والفلاسفة الذين انضم إليهم بعض علماء اللاهوت، عن التساؤل حول هذا اللغز. فهل سيغفرون لفيلسوف فرنسي لدسّه قدمه بين أقدامهم وبذلك تدخلَ في ما يبدو وكأنه مسألة عائلية، يُنظر إليها على أنها من الغسيل الوسخ؟

إنني أغامر واضعاً تحت حكم الجميع محاولة تفسير شاملة لهذه "القضية" المدوخة حيث نرى العلم والدين وعلم الأخلاق والسياسة تعزف معاً.. وليُسمح لي القول إني ما كنت لأستطيع التوصل إلى هذه النتيجة دون الجهد الكبير المنجز "في عجز الأزمة" في الولايات المتحدة من علماء ومثقفين شجعان وثاقبي الفكر من أجل إعادة تفحص، تاريخ الداروينية، على ضوء هذا اللغز، انطلاقاً من نتاج داروين نفسه.

- I -

الحملات الصليبية الخلقية

قضية أركنساس

5 كانون الثاني/ يناير 1982

أعلن قاضي المنطقة الفيدرالية وليام ر. أوفرتون (William R. Overton) لادستورية القانون المصدق من قبل الهيئات التشريعية (مجلس الشيوخ ومجلس النواب) في ولاية أركنساس، الموقّع في 1 آذار/مارس 1981 من قبل حاكم الولاية فرانك وايت والمسجّل تحت اسم "قانون 590"[1].

---

[1] سيجد القارئ الوثيقة الهامة التي يشكلها قرار المحكمة بنصه الكامل من ترجمة أن درين. ومن أجل الإطلاع على سرد مفصل لظروف الإجراء الذي سمح بعرض القانون للتصويت، يمكن الرجوع بالطبع Roger Lewin في Ashley Montgu (منشورات) 1984. ويمكن أيضاً الإطلاع في العدد 292 من مجلة Nature 2 تموز 1981، على مقالة C. Dambrough بعنوان "Americain Creationism"، وكذلك على مقالات Pierre Thuillier التي نشرت في مجلة La recherche وأعيد نشرها في كتاب: Darwin@cie ص 145 - 166، باريس، منشورات Complexe، 1981. وكذلك يمكن الإطلاع على شهادة اللاهوتي "المناهض للخلقية" Langdon Gilkey :Creationism on trial, 1985.

ينص هذا القانون على أن طلاب المدارس العامة ينبغي منذ الآن فصاعداً تلقي تعليماً يضع على قدم المساواة "علم الخلق" و"علم النشوء" (مادة 1)؛ لكنه يضيف في الحال أن هذا التعليم ينبغي "أن يقتصر على البراهين العلمية المقدمة من قبل كلٍ من النموذجين وعلى النتائج التي يمكن استخراجها من هذه البراهين"، وهو يستبعد بذلك "إدخال أي تعليم ديني أو الرجوع إلى كتابات دينية" (مادة 2).

كان الهدف الواضح من هذا الإجراء الأخير هو الالتفاف على العقبة التي يشكلها التعديل الأول من دستور الولايات المتحدة، والذي يمنع تشريع أي قانون يهدف إلى "تمكين" دين ما. وكانت المحكمة العليا قد واتتها الفرصة عدة مرات للنطق حول "فقرة التمكين" هذه، ولأن تقدم لها تفسيراً محدداً وموسعاً: لا تستطيع أية ولاية ولا الحكومة الاتحادية تأسيس كنيسة "ولا يستطيعان كذلك تشريع أي قانون يمكن أن يقدم مساعدة لدين ما، أو لكل الأديان، أو أن يشجع ديناً ما على حساب أديان أخرى..."[2]. على أن الحكم استند تحديداً إلى هذا النص من إعلان الحقوق Bill of Rights (التعديلات العشرة الأولى) من أجل إبطال القانون. فقد رأى القاضي، في الواقع، أن الدعوى أظهرت بوضوح أن القانون 590 يشكل "بلا قيد ولا شرط محاولة لإدخال التفسير التوراتي لقصة الخلق في المناهج المدرسية والتعليم العام".

جرت القضية في ليتل روك، وجرى تغطيتها تغطية واسعة من قبل الصحافة المحلية، ما بين 7 و14 كانون الأول/ديسمبر 1981. وقام ستيفن جاي غولد، عالم المتحجرات الشهير في جامعة هارفارد، لاحقاً، بتقديم رواية لجلسة سماع شهادته، وكذلك فعل الفيلسوف الكندي مايكل روس (Michael Ruse) الذي استُدعي لتقديم وجهة نظر عالم ابستيمولوجي حول المسألة الحاسمة لمعرفة "إن

---

[2] قضية إيفرسون ضد هيئة التعليم 1947. يحيل النص إلى كلمات جيفرسون والذي يرى أن البند يهدف لبناء "جدار الفصل ما بين الكنيسة والدولة". ولا يجوز مع ذلك الاستنتاج بتسرع بأن دستور الولايات المتحدة سيتبنى "علمانية" الدولة، كما سنرى لاحقاً.

كان بوسع علم الخلق" المطالبة بشكل مشروع بحمل اسم "العلم"[1]. هذه الشهادات الهامة وعلى الرغم من أن مجموعة الأدلة التي قدمها الثاني كانت موضوعاً لمجادلات حامية، لم تفلح مع ذلك في تحريك "تتاذر جاليلي" (Galilée). ولم يتم الطعن كما سمح بفهم ذلك أحياناً، من قبل "المجتمع العلمي" المنفرد والساخط، الذي كان يعمل على إبراز حقوق العقل في مواجهة قوى الظلام، الممثلة "بالخلقيين" المذكورين.

سنجد بالتأكيد من بين المدعين، بصفة شخصية، مدرس علوم طبيعية في ثانوية حكومية، أهالي الطلاب وأصدقائهم الذين انضمت إليهم "الجمعية الوطنية لمدرسي العلوم الطبيعية" وكذلك "التحالف الوطني للتربية العامة والحرية الدينية". لكننا نجد أيضاً، وبصفة شخصية، أساقفة عدة كنائس (ميتودية، كاثوليكية، انكليكانية...) وكذلك "الكونغرس اليهودي الأمريكي".

إن القضية تعني في المحل الأول الباحثين ومدرسي العلوم الطبيعية الذين بات علمهم، المهان، مهدداً تهديداً خطيراً ومباشراً. لكن الأمر يتعلق، بشكل أوسع، وكما أشار بحق القاضي أوفرتون، بمسألة ذات طبيعة سياسية تمس الأسس ذاتها "للديموقراطية الأمريكية".

بيد أن الانفراج الذي تبع هذا القرار المنتظر لم يكن مع ذلك تاماً. فلم يكن بوسع المرء إلا أن يظل قلقاً حينما يستنكر تسلسل الأحداث. فقد سمحت سلسلة من المصادفات الظاهرية والمقلقة لقانون أركنساس بأن يُشرع بسرعة غير معهودة. إذ لم يكرس مجلس الولاية أكثر من ثلاثين دقيقة للمرافعات الضرورية في اللجنة، كما أن مجلس الشيوخ من جهته، لم يستمع لأي شخص، وقد اعترف الحاكم ذاته فيما بعد بأنه وقّع القانون قبل أن يقرؤه!

---

[1] Stephen Jay Gould، 1983. وقد أعيد نشر المقالات الهامة لغولد في كتاب Hen's Feeth and horse's Foes الصادر في نيويورك عام 1983، وقد نشر Michael Ruse روايته في مجلة New Scientist العدد 932 عام 1982.

يمكن للمرء بصعوبة أن يتذرع بالمصادفة عوضاً عن تقديم تفسير لما حدث، إذ لا أحد يجهل في الواقع أن مشاريع أخرى من النمط ذاته كانت قد قدمت أو قيد التقديم ونوقشت في عدة ولايات أخرى: فلوريدا، جورجيا، الينوا، آيوا، كنتاكي، لويزيانا، مينيسوتا، نيويورك، كارولينا الجنوبية، تينيسي وواشنطن. لقد شهدنا إذن أول نهاية قانونية "لحملة صليبية" حقيقية منظمة بدقة شديدة من أجل التأصيل رسمياً "لعلم الخلق" المزعوم في نظام التعليم المدرسي الأمريكي. إن انتصار ليتل روك لن يلغي بين عشية وضحاها التهديد. ويبدو أن وضوح الحكم، ودقة وسعة مجموع الأدلة التي استندت إليها هيئة القضاة، قد استثنت تقديم طلب الاستئناف. غير أن هذا القرار لا يعمل به إلا في ولاية أركنساس. ولذلك سوف يتوجب خوض الصراع في كل ولاية.

وحتى حينما يقوم القاضي الفيدرالي أدريان ديبلانتيه (Adrian Duplantier)، بعد سبعة أشهر مستنداً إلى دعوى مستعجلة، بإلغاء القانون الذي تبنّته في غضون ذلك ولاية لويزيانا، فإنه يصعب اعتبار القضية منتهية.

وقد اتضح أن المخاوف التي عبّر عنها روجر لوين في العدد الصادر بتاريخ 22 كانون الثاني من عام 1982 من مجلة "Science" كانت مبررة تماماً. ذلك أنه من استئناف إلى استئناف فإن لادستورية قانون لويزيانا لم تعلن فعلياً إلا في 19 حزيران 1987 ومن قبل المحكمة العليا في الولايات المتحدة! كما أنه ينبغي أن نضيف أنها وجدت في هذه الهيئة نصيرين اثنين متحمسين مقابل سبعة قضاة تبنوا ضدها مجموع أدلة قريب من ذلك الذي تبنّاه القاضي أوفرتون. وقد عبّر عن وجهة نظرهما أنتونين سكاليا. فقد أكدّ أن القانون حول "التعامل المتوازن" كان له هدف وحيد هو تشجيع الحرية الأكاديمية عند الطلاب، وأنه مقدم من قبل مشرعين مقتنعين بصدق بأن هؤلاء الطلاب قد جرت "مذهبتهم" حينما جعلوهم يعتقدون أن التطور كان "أمراً مثبتاً"، وحينما أُوحيَ إليهم بأن "العلم أثبت بطلان معتقداتهم الدينية". وأضاف القاضي: بأن "المدرسين كانوا ضحايا لعملية غسل دماغ من طرف مؤسسة علمية متحيز". وخلص إلى القول بأن "علم الخلق" ليس له قطعياً

كمضمون أية تعاليم دينية خفية وإنما "مضمونه معطيات علمية جاءت لتؤكد النظرية التي ترى أن الحياة ظهرت فجأة على الأرض"[4].

لم يكن في هذا الدعم دون تحفظ من قبل عضوين في المحكمة العليا، ما يفاجئ والحق يقال. ذلك أن الرئيس رونالد ريغان نفسه قد تبنى في مؤتمر صحفي عقد في دالاس عام 1980 مجموع أدلة متعهدي هذا القانون عندما قال: "إذا كان ينبغي تدريس النشوء والذي لا يعدو كونه نظرية، فإنه يجب أيضاً تدريس الرواية التوراتية للخلق".

إن القلق يظل شديداً وله ما يبرره سيما وأن شبكة قوية من الجمعيات المستفيدة من مصادر دعم مالية وسياسية هامة، ومتمتعة بحظوة شعبية لا يمكن نكرانها تقوم في قلب الجهاز "الخلقي". ويمكن للمرء التأكيد أن منظميها لن يتراجعوا بهذه السهولة وأنهم لن يوقفوا حملاتهم الدعائية، والمرء يعرف بالتجربة أن الإجراءات التي لم يحصلوا عليها بالطرق القانونية فإنهم يعرفون كيف يفرضونها على المستوى المحلي عبر الضغط والإكراه على المدرسين، و"الهيئات المدرسية" من خلال تجنيد وتحميس أهالي الطلاب.

من جهة أخرى سمح تحقيق سريع حول السياق الذي أدى في نهايته إلى وصول القانون حول "المعاملة المتوازنة لعلم الخلق وعلم النشوء" إلى مكتب الحاكم وايت White، بتوضيح آليات عمل وأساليب هذه الحركة، واتخاذ كامل إجراءات الحيطة والحذر. فقد قُدم النص رسمياً من قبل عضو مجلس شيوخ من ليتل روك الشمالية جيمس هولستيد (James Holsted)، بيد أن هذا السيناتور الرفيع لم يكتب فيه، في الواقع، الكلمة الأولى. وقد تعلق الأمر، والحق يقال، "بمشروع قانون أنموذج" وضعت صياغته الأولى عام 1979 من قبل بول ايلوانجر، مؤسس منظمة تعسكر في كارولينا الجنوبية وتحمل اسم "مواطنون من أجل الانصاف في التعليم". ويروي روجر لوين كيف أن هذا النص الذي يبدو وكأنه "حلّ بسيط موزع على

---

[4] ذكرها Arthur N. Strahler: 1987، Science and Earth History. The Evolution/ creation controversy.

المتعاطفين مع المجموعة وقع بين يدي لاري فيشر، وهو مدرس رياضيات مغمور في ليتل روك، كان ذا قناعات خلقية ولكنه لم ينخرط حتى من أجل هذا في أية حركة، وحينما جرت مناقشة تجديد الكتب المدرسية في قطاعه للفترة الواقعة بين 1980 - 1985 عرض "حل ايلوانجر" لموافقة الهيئة المدرسية والتي شكلت لجنة لدراسة ما الذي يمكن أن يكون عليه برنامج "لعلم الخلق".

وسرعان ما أخذت الصحافة المحلية تنشر رسائل قراء ضجوا فرحاً بالخبر: أخيراً سوف يتم طرد نظرية النشوء من التعليم العام! حين عادت اللجنة للاجتماع فإنها لم تجد مع ذلك "أي شيء من العلمية في ما قُدم إليها". وحده فيشر دافع بصلابة عن مشروع برنامجه. وقد أثمر عناده، إذ حصل على أن تتم متابعة دراسة المشروع. وعند الاجتماع التالي حضر حوالي 15 -20 شخصاً في القاعة لمساندته. وقد أصرت اللجنة على رأيها مبرزة تدني السمة العلمية للخطة المقدمة إليها. ويمكن للمرء أن يعتقد أن الأمر سيتوقف هنا. لكن مدير التعليم الثانوي قرر، وسط دهشة الجميع، وبدل أن يتبع استنتاجات اللجنة، أنه يجب إعداد "ماكيت" لبرنامج يقدم للطلاب "عدة نظريات للنشوء متضاربة فيما بينها". هذا النصر للاري فيشر، الذي ضجت الصالة بالهتاف له، جرى نقله والتعليق عليه من قبل الصحافة المحلية.

وبهذه الطريقة عرف به القس بلونت. والذي سارع إلى التحرك. فهذا الرجل يناضل منذ عشرين عاماً من أجل وضع حد لتعليم نظرية النشوء. وقد كتب ونشر عدة مؤلفات وزعت بسخاء في مكتبات مدارس القطاع، وهو يترأس مجموعة فكرية حول التفسير الحرفي للتوراة (The Greater Little Rock Evangelical Fellowship)، وكان يعرف أن دورة الهيئة التشريعية للولاية لن تتأخر عن الانعقاد (لا تُعقد في أركنساس إلا دورة واحدة كل عامين!). ولذا يجب انتهاز الفرصة. فاتصل إذن، بفضل رجل أعمال من أصدقائه، بالسيناتور هولستيد، والذي تأكد في الحال من باب الحذر أن الحاكم سوف يقبل توقيع المشروع، إذا ما قدم له عند نهاية الطور التشريعي. وهكذا نُظمت حملة الضغط: فما أن قدم النص حتى تلقى البرلمانيون هجوماً كاسحاً من الاتصالات الهاتفية المؤيدة له. وللفراغ منه، جرى التصويت عليه فنال 20 صوتاً ضد 2 في مجلس الشيوخ ونال 69 صوتاً مقابل 18

في مجلس العموم. ولم يقدم أي اعتراض من قبل المدرسين "النشوئيين" الذين أخذتهم المباغتة وأذهلتهم.

معهد البحث حول الخلق

إن كل مرحلة من المراحل الحاسمة لهذه القصة التي لا تكاد تصدق للوهلة الأولى، ستتحدد بتدخل المنظمة المعروفة جيداً آنذاك في الولايات المتحدة: "معهد البحث حول الخلق" (Institut pour la Recherche sur la Création) (ICR) التي تضم "مركز البحث في علم الخلق" والذي يقع مقره في سان دييغو في كاليفورنيا. هذا المعهد هو الخلف غير المباشر لـــ "جمعية البحث حول الخلق" التي أسسها عام 1963 في آن أربور (ميتشيغان) حوالى عشرة من الأعضاء المستقيلين، أو من الأعضاء السابقين في المنظمة العلمية الأمريكية (ASA) وهي حركة أخذت على عاتقها منذ عام 1941 مصالحة المسيحية الإنجيلية والعلم. لقد أرادت "مجموعة العشرة" هذه التي يقودها والتر إ. لاميرتس ووليام ج. تينكل (Walter E. Lammerts et William J. Tinkle)، الاحتجاج ضد ما كان قادة صفوفهم يعتبرونه إلحاقاً "للمنظمة" بالنظرية النشوئية، الأمر الذي يمثل، بنظرهم، خيانة عظمى. فأخذوا على عاتقهم إثارة صحوة الإيمان بقصة "خلق خاصة" للإنسان كما وردت في التوراة. وقد كانوا ينوون ألا يعتمدوا لهذه الغاية إلا البراهين العلمية[5]. وفوق ذلك كانوا ينكرون بأقصى طاقتهم رغبتهم بفرض تعليم ديني في المدارس[6].

عند بداية سنوات الثمانينات بدت مؤثرة قوة معهد ICR الذي كان في أوج ازدهاره، فرأيناه يعقد بانتظام ندوات هامة، ويضاعف في كل مكان النقاشات العامة المتعلقة بـــ "الخلق والنشوء"؛ وقد نجح في أن يجذب إليها علماء ذوي سمعة كبيرة

---

[5] مايكل روس في Ashley Montagu (منشورات) 1984. من أجل الإطلاع على تحليل أوسع للنقاش الإبيستمولوجي يمكـــن الرجوع إلى كتاب Abusing Science. The case againt creationism، 1982، Philip Kitcher، وكذلك على الكتاب الجماعي الذي يضم 28 مقال المنشور تحت إشراف مايكل روس عام 1988 بعنوان But is it science?، وكذلك على: Creationism, Science and the Law: The Arkansas Case Marcel C. La Follette، (منشورات) كامبريدج، Mit Press، 1983، والمسألة ستناقش بحد ذاتها في الفصل الرابع.

[6] قارن Laurie Godfrey، في Ashley Montagu ، منشورات 1984.

للمشاركة في حوار مسؤول مع دعاتها. وقد عض عالم الوراثة في جامعة كاليفورنيا ج. ليديارد ستيبنس (G. Ledyard Stebbins)، أصابعه ندماً بعد ذلك لوقوعه في مثل ذلك الفخ بعد أن توجب عليه مجابهة صالة تغص بالخلقيين الذين كانوا يؤكدون، حاملين التوراة بأيديهم، كل مداخلة لأحد المتنافسين، بجوقة من كلمات آمين الصاخبة! وكذلك الأمر فقد ارتكب العالم الانتروبولوجي الشهير آشلي مونتاغي خطأ مواجهة المدير المساعد لمعهد ICR دين ت. جيش، مؤلف العديد من الكتب الخلقية، أمام ألفي شخص في جمنازيوم برنستون. وقد أدرك بعد فوات الأوان أنه لم يقم في الواقع إلا بدور المقيّم، ورغماً عنه.

يحظى المعهد ببرنامج إذاعي أسبوعي (Science, Ecriture et Salut) تبثه 90 محطة في 35 ولاية، ويوزع 75,000 نسخة من نشرة إعلامية شهرية (Act and Facts). ويطبع كتباً مخصصة للجمهور العريض أكثرها شهرة الكتابان اللذان ألفهما مدير المعهد هـ. م. موريس وهما (The Troubled Waters of Evolution و Scientific creationism) وقد تمت ترجمتهما إلى اثنتي عشرة لغة. وثمة مقالات نقدية تحمل عنوان: Impact: Vital articles on evolution/ creation يصدرها بانتظام "باحثو المعهد" (بتاريخ 1 كانون الثاني 1987، كان قد صدر من هذه الكتيبات الشعبية 163 عدداً) كما أن هناك أشرطة تسجيل تضم الأفكار الأساسية لهذه العقيدة. وفوق ذلك: فإن المعهد باشر بتنفيذ برامج وكتب "خلقية" متناسبة مع كل مرحلة من المراحل التعليمية، من الابتدائي وحتى العالي. كما أن المنظمة ذاتها تموّل أبحاثاً "ميدانية" حول أفكاره الأثيرة المرتبطة بصميم عقيدته: إقامة البرهان المادي على وجود سفينة نوح عبر تنقيبات فوق سفوح جبل ارارات، مما يؤكد بالتالي واقعية الطوفان التاريخية"؛ وكذلك أيضاً إثبات أن خلق الأرض حديث جداً (لا يتجاوز عشرة آلاف عام). والبرنامج يهدف إذن إلى اكتشاف آثار بشرية - قد تكون معاصرة لآثار الديناصورات في مجرى نهر باليكسي في تكساس. المنظمة الأم ما زالت تعمل في آن آربور في ميتشغان. وكلا الاثنان، المعهد والجمعية، يستثمران مشاركة 700 باحث علمي مجاز ودعم 100,000 عضو نشيط يدفعون اشتراكاتهم بانتظام. ووصل نجاح المعهد أنه عام 1986 أقام إدارته في مبنى جديد

في سانتي بالقرب من سان دييغو. هذا المبنى يضم "متحف الخلق وتاريخ الأرض" و"مكتبة البحث" التابعة للمعهد، ومخابر ومركزاً تربوياً.

لقد قدمت الحركة، ببنيتها هذه، طوال سنوات السبعينات، الدليل على فاعليتها. وقد سبق لها أن تولت السلطة في "الهيئة المدرسية" في ولاية كاليفورنيا عام 1966[7]. وحينما تولت هذه الهيئة عام 1969 مراجعة برامج الولاية، فإن جون فورد، الخلقي، هو الذي كان على رأسها. وقد أوصى هذا الأخير بأن يقدم للطلاب، في المسائل المتعلقة بالنشوء، نظريتين متناقضتين فيما بينهما، على الأقل". وفي ربيع 1981 كانت المحكمة العليا في الولاية قد أقرت تصديق هذه التوصية إثر دعوى أثارت الكثير من اللغط. وفي غضون ذلك استسلمت هيئات محلية كثيرة وعقدت تسويات تنحو باتجاه "التعامل المتوازن" العتيد. وقد اعترف العديد من المدرسين بالإخفاق في مواجهة هذه الآلة الفائقة القوة، واعتادوا تجنب الحديث في موضوع النشوء خلال دروسهم لكي لا يتطرقوا لمسألة الخلق.

وتحت وقع قضية أركنساس، "اكتشف" علماء وباحثو المتحجرات والجيولوجيون، وعلماء البيولوجيا المرتعبون، مدى الكارثة. ولاحظوا فجأة أنهم لم يولوا اهتماماً كافياً لبعض الدراسات المحدودة التي كان ينبغي أن تثير حذرهم لأنها برهنت أن هذه الظاهرة كانت تعدّ منذ زمن طويل. لقد عرف "الخلقيون" ومنذ عشرات السنين، كيف يستفيدون من نقطة ضعف جهاز أساسي آخر في النظام التعليمي الأمريكي: المطبوعات المدرسية[8].

لقد أجبر الناشرون بعد تعرضهم لضغوط متواصلة، على تنقيح كتب العلوم الطبيعية المقرّة في المدارس الثانوية، ولدى مقارنة النسخ المتعاقبة من الكتب في طبعات متتالية، فإن المرء سيجد أنه جرى شيئاً فشيئاً حذف كل المراجع التي تشير

---

[7] سيجد القارئ القصة الكاملة لمعركة كاليفورنيا في نص Dorothy Nelkin: Creation versus evolution في منشورات مندلسون/ وينغارت/ وإيتلي، The Social Production of Scientific Knowledge Sociology of the Sciences، ج1، للدكتور د.ريتل، دوردريشت هولاندا، 1977، وكذلك يمكن الإطلاع على: The creation controversy, NY, 1982 للمؤلف ذاته.

[8] P.D. Miller و J. V. Garbiner، "Effect of the Scopes" مقالة. Was it a victory for Gould evolutionnism? in Science, n° 185, 1974, Stephen Jay, 1983.

إلى التطور وإلى داروين. وقد أشار ستيفن جاي غولد (Stephen Tay Gould)، إلى الحالة النموذجية في كتاب "البيولوجيا للمبتدئين" المشهور جداً لمؤلفه ترومان ج. مون (Truman J. Moon)، والذي طبع طبعات متتالية عديدة: فالرسم المواجه للعنوان في الطبعة الأولى منه (1921) يظهر الصورة العزيزة على الأطفال لقندس منهمك بعمله، جرى استبدالها فيما بعد بصورة صارمة لداروين. في عام 1926 أزيلت هذه الصورة ليحل محلها... رسم تخطيطي للجهاز الهضمي! أما بالنسبة للنص، فقد جرت مراقبته بحزم وتعديله عبر السنوات لإجراء اختصار متتابع لحصة نظرية النشوء، وحتى الكلمة ذاتها جرى في عدة مرات استبدالها من حيث المعنى بكلمة "النمو". وكان يتم عبر استخدام عبارات ملتبسة، دون خوف بالمناسبة من تزييف نصوص المراجع، فتح باب يتسع باستمرار أمام "فرضية" الخلق. وقد قدم روبير ماي أدلة مشابهة مستمدة من كتاب واسع الاستخدام في الولايات المتحدة هو Dynamic Biology لمؤلفيه بيكر وميلز (Baker et Mills)، فنقرأ في طبعة عام 1933 هذه العبارة الفظة على أقل تقدير: "اليوم نظرية داروين، كما نظرية لامارك، لم تعد مقبولة عموماً"[9].

وتتبدى المهارة السياسية للحركة الخلقية بوضوح حينما نكتشف أنها اختارت تركيز قواها في كاليفورنيا: فهذه الولاية تمثل وحدها في الواقع 10% من سوق الكتاب المدرسي الأمريكي. ولن يستطيع الناشرون بالطبع القفز فوق مصالحهم التجارية، ولهذا انخرطوا في التناقص على أفضل تكييف لكتبهم وفق أوامر الخلقيين؛ ولذلك فهم يعطون أهمية وطنية لأي انتصار محلي للحركة.

إننا نتفهم، على ضوء هذه الوقائع وحالات الإكراه العديدة التي مورست بحق بعض المدرسين المجردين من أي سلاح أمام السلطات المحلية، المعنى الملموس لصرخة الاستهجان التي تبدو مفاجئة لأول وهلة عام 1959 لعالم الوراثة وحامل جائزة نوبل هيرمان ج. مولر (Hermann J. Muller). ففي ذلك العام كان يتم الاحتفال بالذكرى المئوية لظهور كتاب "أصل الأنواع"، وقد اختار عنواناً

---

[9] Robert May في منشورات Ashley Montagu، 1984.

لإحدى مقالاته الجملة التالية "مئة عام دون داروين، هذا يكفي!"[10] ومع ذلك فقد شهدنا لحظة كانت "الثورة البيولوجية" في أشد نشاطها. فقد حظي واسطن وكريك بهالة واسعة من المجد جراء اكتشافهما عام 1953 البنية الرحوية المزدوجة لحمض DNA. وسوف ينالان جائزة نوبل عام 1962. واحتفت "النظرية التوليفية للنشوء" التي اعتبرت تتويجاً "للداروينية - الجديدة" بنصرها المؤزر. في عام 1942 نشر جوليان هيكسلي (Julian Huxley) كتاب (Evolution, the Modrern Synthesis) وذلك قبل أن يضيف خبير الأنظمة المركبة جورج غايلورد سيمبسون (Georges Gaylord Simpson)، مؤلف كتاب The Meaning of Evolution عام 1953، مدماكاً في البناء مع كتابه The Major features of Evolution عام 1959 ومع كتاب أرنست ماير (Ernest Mayr) ، Evolution as a Process عام 1954، وكذلك العديد من الإصدارات الأخرى، بدا وكأن علم المتحجرات، وعلم وراثة السكان والبيولوجيا الذرية باتت أخيراً متوازنة بقوة في نص نظرية منسجم. وبعد شكوك سنوات الثلاثينات بدت الرؤية الداروينية للعالم الحي وقد توطدت بقوة. ألم يسمح البيولوجيون لأنفسهم بأن شملتهم نشوة هذه النتائج وهذه الآفاق؟

يبقى أن هجوم "الخلقية العلمية" أعاد بعنف إلى ذاكرة المثقفين الأمريكيين - خارج الحلقات الأكاديمية بالطبع - الذكرى المشؤومة لحملة صليبية أولى، وتظهر هذه الأعمال كعقابيل لها. كان يلزمهم فجأة مراجعة التقييم التاريخي الذي اعتقدوا أنهم كانوا قد أجروه لها، ولدوافعها، وعلى وجه الخصوص، لاتجاه انحلالها.

قضية القرد، "مجدداً"

في 21 تموز من عام 1925 حكم القاضي راولستون على المعلم الشاب توماس سكوبس بغرامة قدرها 100 دولار لأنه درّس التطور لتلاميذ المدرسة العامة في دايتون، وهي مركز كونته في ولاية تينيسي. وهكذا انتهت واحدة من القضايا الأكثر أصداء عرفتها الولايات المتحدة التي لا تندر فيها مع ذلك هذه

---

(10) Hermann J. Muller: One Hundred Years Without Darwinism are enough في The Humanist، XIX، 1959.

القضايا. ويشار إليها في الموروث باسم "قضية القرد"[11] وقد استطاعت، بعد أن فسرت خطأ على أنها انتصار للعلم والتقدم على الظلامية الدينية لجنوب زراعي متعصب وعنصري، أن تلعب في الوجدان الأمريكي دور "ذكرى - ستارة" محاصرة لدى المثقفين والسياسيين طوال نصف قرن كل تحليل لتعقيد أسبابها الاجتماعية الحقيقية وجارفة أنظارهم عن سعة وخطورة نتائجها. وحين يعيد المرء دمجها في التاريخ الذي سبقها فإن هذه القضية تأخذ على ضوء نتائجها صفة مختلفة جداً.

لنتذكر أن الأمر يتعلق بتطبيق قانون تبنته عام 1924 الهيئة التشريعية ووقعه حاكم ولاية تينيسي. ويستعيد هذا القانون عبارات النص الذي كان قد قدم إلى مجلس نواب هذه الولاية يوم 21 كانون الثاني من تلك السنة من قبل جون واشنطن بيتلر، وهو معلم سابق تحول إلى العمل في الزراعة، وقد جرى انتخابه عام 1922 بناء على برنامج معاد للنشوئية في كونتية ماكون. ويقترح النص منع "كل مدرس من الجامعة ودار المعلمين أو كل مدرسة عامة أخرى تمول كلياً أو جزئياً من المال العام، أن يعلم نظرية تنكر قصة الخلق الإلهي للإنسان تماماً كما وردت في التوراة، وتدعي أن الإنسان ينحدر من مرتبة دنيا من الحيوان".

كان التصويت على هذا القانون جزءاً مكوناً من حملة تجنيد واسعة معادية للنشوئية بدأت قبل خمسة أعوام. وهكذا فقد رأينا عام 1921 القس ج. و. بورتر يشن حملة ضد تعليم نظرية النشوء في جامعة ولاية كنتاكي. وقد قدّم في السنة

---

[11] رويت هذه القصة وحللت وعلق عليها عدة مرات بلهجة ملحمية أو ساخرة. ويستطيع القارئ الفرنسي الإطلاع على الكتاب الصغير شديد الأهمية Gordon Golding بعنوان Le procès du singe بباريس منشورات كومبليكس 1982، وأفضل الدراسات التي لا تحصى في اللغة الإنكليزية تظل دراسة Ray Ginger، لندن 1969، Six Days or Forever? Tennessee versus John Thomas Scopes.
وقد ساهم في بناء أسطورة Procès Scopes (قراءة ملحمية) فيلم Inherit the wind من بطولة الممثل الذي لا ينسى سبنسر تريسي في دور كلارنس داروو، محامي الدفاع. وقد أبرز غوردن غولد محقاً عدم الاهتمام المثير من الصحافة والمثقفين الفرنسيين حيال هذا النزاع الذي ألهب أمريكا. إن ما أظهرته هذه القضية من الواقع الأمريكي كان دون شك بعيداً جداً عن الصورة التي نحتفظ بها عن الولايات المتحدة. وباستثناء المقالات الرائعة لبيير توبليه في مجلة La Recherche التي أعيد نشرها في كتاب: بيير توبليه الصادر عام 1981 فإنه يمكن القول إن التصرف الغريب ذاته الذي يمكن دون شك نسبه إلى الدوافع ذاتها، قد أحاط بالحملة الصليبية الخلقية في سنوات الثمانينات.

التالية إلى مجلس النواب والكونغرس اقتراحاً لقانون يهدف لمنعها، لكنه أُفض بفارق ضئيل جداً وذلك بأغلبية صوت واحد. وكذلك الأمر ففي عام 1923 قُدم اقتراح من ذات النمط في ألاباما ثم في تكساس. وفي ذلك الوقت تبنى مجلس النواب في ولاية فلوريدا قراراً يعتبر "من غير المناسب وعمل تدميري أن يجري تدريس الإلحادية واللاأدرية والداروينية وكل فرضية أخرى تفترض وجود قرابة دموية بين الإنسان ونوع آخر". في تموز 1924 عُرض على مجلس نواب جورجيا بدوره لكنه رفض مشروع القانون، في كانون الثاني عام 1925، كان الدور قد وصل إلى مجلس نواب كارولينا الشمالية...

يجب أن نضيف إلى هذا الضغط التشريعي المنظم سلسلة من القرارات تعطي فكرة عن شدة هذه الحملة. ففي نيسان 1923 طُرد من الخدمة خمسة من مدرسي ثانوية Kentucky Wesleyan College (الميتودية) لأنهم دافعوا أمام طلابهم عن صيغة حل وسط تعتبر أن التطور لم يخالف ما ورد في التوراة. في حزيران/يونيو، تكفل حاكم أوكلاهوما بتنفيذ قرار منع الولاية من شراء كتب مدرسية متهمة بجريمة النشوئية. وكذا في كانون الثاني/يناير من عام 1924، فقد منع حاكم كالورينا الجنوبية استخدام كتابي علوم طبيعة (بيولوجيا) يعلمان أولهما أن الإنسان انحدر من "قرد"، والثاني أن الإنسان والقرد "أبناء عم"[12].

أمام صعود هذا التهديد قرر الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية (ACLU)، وهو حينها أقوى منظمة أمريكية للدفاع عن الحقوق المدنية، القيام بضربة خاطفة باختبار دستورية قانون بتلر. فوجه الاتحاد نداء إلى المدرسين عبر إعلانات نشرت في الصحف المحلية، بقصد حث أحدهم للتقدم متطوعاً ليتم تجريمه. وقد وعد نص الإعلان المتهم المُقبل بتقديم محامين قديرين وبالدعم المالي اللازم لتغطية المصاريف القضائية.

وهكذا فإن الشاب توماس سكوبس الذي كان، وفق تقليد متكرر آنذاك، قد كُلف بتعليم التاريخ الطبيعي على الرغم من أنه كان قد قبل بوصفه مدرب كرة

---

[12] حول كل هذه المسائل أنظر السرد التاريخي الذي أعده غوردن غولدينغ عام 1982.

قدم، قد وجد نفسه في قلب قضية ألهبت البلد بأكمله. لكن الأحداث سرعان ما تجاوزته. وقد جرى التركيز كثيراً على النوايا الدعائية لرجال الأعمال من دايتون حيث يقوم بالتعليم، الذين دفعوا به إلى هذه القضية. ولم يفت البعض السخرية من التحزبات المحلية التي كادت أن تحرم حتى آخر لحظة القرية الصغيرة من ساعة مجدها لصالح خصمتها شاتونوغا. ويبقى أن الجلسة افتتحت يوم 10 تموز من عام 1925 في محكمة الكونتية تحت أنظار عدة مئات من الصحفيين الذين هرعوا من كل أنحاء البلاد وبحضور 3000 زائر قادمين من الجوار من أجل المناسبة. وكان كل شيء يتم في جو من الاحتفال والمزاج الطيب، لم يكف عن إدهاش مراسلي الشمال الذين كانوا يتوقعون ألا يجدوا في دايتون إلا جماهير فلاحية جاهلة ومتعصبة. وحتى الدعابة أخذت مكانها حيث عقدت صفقات لبيع - كما قيل - كميات كبيرة من القرود على شكل دمى مخملية!

وقد تحدث البعض عن استعراض مسرحي. ولا تدع الوثائق والشهادات التي بحوزتنا مجالاً للشك بصحة هذا القول: فقد تضافرت جهود "منظمي" هذه القضية من أجل إغداق هذه الصفة على تلك القضية. وهذا يلاحظ أصلاً بدءاً باختيار بطلي القصة الأساسيين: فقد انتدبت الولاية وليام جينينغز بريان (William Jennings Bryan)، مدعياً عاماً بينما ركن سكوبس (Scopes) إلى أن دفاعه سيكون مضموناً من قبل كلارنس دارو. وكانت هاتان الشخصيتان قد حظيتا بسمعة وطنية واسعة. فقد صاغ كل منهما منذ وقت طويل حكايته. وسوف نشهد في الحقيقة صداماً بين رمزين حيين يلخصان في شخصيهما كما يبدو تاريخ أمريكا منذ بداية القرن! لابد أن بريان قد شاخ كثيراً منذ الخطاب الذي حقق شهرته عام 1896، الخطاب الذي لا ينسى والمدعو "صليب من ذهب" ("لن ندعكم تصلبون الإنسانية على صليب من ذهب!") وأدان فيه بعبارات ملحمية نظام المعدن الواحد القائم على الذهب والذي سبب بؤس مزارعي الجنوب[13]. وقد ترشح ثلاث مرات عن الحزب الديموقراطي لرئاسة الولايات المتحدة، كما عمل وزير خارجية للرئيس الطهري

---

[13] أنظر الوصف اللاذع الذي وصفه به Bryan المؤرخ Richard Hofstadter الذي كرّس له فصلاً في كتابه الشهير The American Political Tradition and the Men Who made it، NY، 1948.

جداً ودرو ويلسون، ولأنه رجل مبادئ فقد استقال من هذا المنصب محدثاً ضجة مدوية عام 1917 احتجاجاً على دخول الولايات المتحدة الحرب. وبعد ثمانية أعوام ظل ضميراً حياً وصوتاً قوياً. وقد وضع منذ سنوات عديدة موهبته الخطابية المجربة القائمة على إيداع بدهي ونغمة شعبوية، في خدمة قضية "مقاومة النشوئية". ومن ميتشيغان إلى ويسكونسن ومن ويسكونسن إلى كنتاكي ثم إلى مينيسوتا كان يتنقل دون كلل بين الجامعات ليحمل كلمة طيبة، يقوم فيها بمباركة مواطنيه من أهل فلوريدا حيث انزوى.

أما فيما يتعلق بكلارنس دارو (Clarence Darrow)، الأصغر سناً، فإنه لم يكن يقل شهرة. فهو يعمل محام في شيكاغو حيث يعتبر رمزاً للتفكير الحر، فقد كان المفوض بالدفاع عن النقابيين. والحاصل مع ذلك أن وصل إلى التألق بإنقاذه من حكم الموت شابين مجرمين مثليي الجنس ينحدران من عائلتين يهوديتين من الشمال هما ريتشارد لوب وناتان ليوبولد (Richard Loeb et Nathan Leopold)اللذان أرعبا البلاد بقتل صبي صغير "من أجل التسلية" كما اعترفا. يضاف إلى ذلك فإن دارو قد هاجم بريان شخصياً. فقد سخر من "تزمته" عبر رسالة مفتوحة مدوية نشرتها في شهر تموز/يوليو عام 1923 صحيفة شيكاغو تربيون. وقد قرر أخيراً النزول إلى دايتون يرافقه لمساندته محام شاب من نيويورك ينحدر من عائلة ثرية، هو ديدلي فيلد مالون (Dudley Field Malone)، مساند معتمد في قضايا نسوية، مطلق وكاثوليكي متدين!

ولم يكن أحد ليحلم بطاقم أفضل من أجل إثارة وإغضاب الجنوب المتدين والمحافظ.

ويضاف إلى التهريجات المحلية "تبسيط" الحالة التي زادت من حدتها صحافة اعتبرت أنها وجدت فيها قضية العصر، فغرقت في انشاء ملحمي، وهذا التبسيط ساهم بالتأكيد في أن يغيّب عن الرؤية التعقيد المفرط للقضايا التي كانت ستثار في هذه القضية.

كما فاقمت مجريات الجلسات من الارتباك. فالقاضي رولستون تمسك، مظهراً عناداً سرعان ما أحبط الصحافيين وأربك الدفاع، بتفسير قانوني ضيق جداً

للقضية: إن سكوبس قد انتهك القانون: فهو مجرم. نقطة انتهى. ومن هنا بدأت نزاعات إجرائية لا تنتهي لرهقت الحضور بسرعة، ومن هنا أيضاً الرفض المضاد من قبل المحكمة لسماع شهادات الخبراء العلميين الذين استدعاهم ACLU: لقد قدم مالون مرافعة مدهشة فعلاً نجح في مرحلة منها في أن يبزّ كلاً من بريان ودارو. وعرف كيف يكسب الصالة إلى صفه عندما استند، ليس دون كلام مفخم، إلى روح التسامح والحرية الأساسية في أمريكا. ثم وقع حادث أثار صخباً حينما طالب دارو بأن يتم الكف عن التقليد المتبع المتمثل بقراءة آية من التوراة في بداية الجلسة لكي لا يؤثر ذلك سلباً على الدفاع.

بيد أن "اللحظة الهامة" الوحيدة التي تُذكر من هذه القضية كانت بالتأكيد لحظة أن حصل دارو ذاته وبخلاف كل التقاليد، من القاضي على إمكانية استدعاء بريان شخصياً - المدعي العام! - كشاهد بصفته "خبير بالتوراة". وعلى وقع أسئلة محكمة جداً بقدر ما هي فكهة حول "الأيام الستة" للخلق وحول الطوفان ("والأسماك؟ هل غرقت هي أيضاً؟)، توصل المحامي النشيط إلى جعل محاوره يقبل تفسيراً مجازياً للنص. وهكذا كذّب بريان تعاليم الإيمان الأصولية التي أشبع بها جمهوره منذ سنوات!

ومذ ذاك، فإن صدور الحكم بتغريم سكوبس بدفع 100 دولار قد مرّ دون أن يلحظه أحد تقريباً. وبدا أن النصر كان حليف دارو. واحتفظت أمريكا الحديثة والتقدمية باهتمام كبير بهذه الصورة التي بالكاد شوشها في نظرها موت العجوز بريان بعد عدة أيام. كذلك لم يلحظ أحد معنى إلغاء قرار المحكمة لعيب شكلي الذي جرى بعد ذلك. وقد حرم هذا الإلغاء ACLU من تقديم طلب الاستئناف الذي كان ينوي تقديمه من أجل نقل القضية إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة وتسوية المسألة نهائياً على مستوى الدولة الاتحادية. وقد ظل قانون بتلر ساري المفعول في تينسي حتى عام 1967.

لن يكون بريان قد فاز نهائياً هذا هو الأمر الذي لا يحتمل أي شك. فعلى أرضه - التوراة - جرت المناقشة، في حين لم يدر أي حديث نهائياً عن نظرية النشوء في دايتون إلا عبر بعض التلميحات الغامضة "للقرد" العتيد. وحتى موت

الخطيب الكبير فإنه سرعان ما فسِّر في أعماق الشعب على أنه فعل استشهادي. "موت وقع وسط امتحان للإيمان". وقد شحنت القضية حماسة حركة مناهضة - النشوئية الناشطة أصلاً في الجنوب. وانكب الخلقيون في الأثر، بعد أن أثارت قضيتهم دوياً وطنياً، على غزو منهجي عبر السنوات التالية، للهيئات المحلية صاحبة القرار في موضوع المناهج والكتب المدرسية.

ويبدو أنه لا يمكن إنكار أن هذا الأمر قد مثّل استمرارية ما من حملة صليبية إلى أخرى. وتظهر هذه الاستمرارية في بعض الأفكار الثابتة ثباتاً مطلقاً في مناهضة النشوئية. فالقرد كان ويظل في قلب هذا الجدال. أليس داروين هو، في النهاية، من تجرأ على الكتابة بأن الإنسان ينحدر من القرد؟ لكن إذ كان هذا هو الوضع فإن آدم لم يكن ثمرة فعل "خلق خاص". وينبغي إذن إنكار وجود روحه الخالدة. وهذا يعني أن نتصرف بها كيفما اتفق لأن يوم الحساب لن يطالنا مطلقاً. هذه المحاكمة البسيطة جداً توحد مناهضي - النشوئية في سنوات العشرينات مع "الخلقيين العلميين" في أيامنا هذه. ولم يتردد الأشد حمية من بين الأوائل في اعتبار حرب 1914 ثمرة للداروينية ودفاعها عن "الصراع من أجل البقاء"[14]؛ ولن نعدم اليوم بعض الخلقيين ممن يعزن إلى الداروينية "انحطاط" الأخلاق: تفكك العائلة، الطلاق، الإجهاض المثلية الجنسية، المخدرات.. وينبغي أن نضمّ إلى هذه الأفكار "الأخلاقية" الدائمة فكرة الحقيقة الحرفية والتامة للتوراة. وإذا كان مما لاشك فيه أن بريان قد زلت قدمه أمام دارو فإنه بوسع المرء ردّ ذلك إلى تعب عجوز على أعتاب الموت. وتأكيد هذه العصمة Inerancy كانت توجد وظلت في قلب الحملة الدعائية المناهضة - للنشوئية لسنوات العشرينات، وقد وحدّت هذه كل أولئك، المشيخيين، والمعمدانيين، وغيرهم، الذين أعلنوا أنفسهم "أصوليين" في السنوات الأولى من هذا القرن. لقد وجدت "الخلقية العلمية" في التجدد الحالي للأصولية دعماً حاسماً حتى لو لم يلتزم كل الأصوليين، مع ذلك، كلهم بالنظرية المنمقة، التي عملوا على إنجاحها.

---

(14) كانت هذه أساساً إحدى أفكار بريان والتي سيكون من المبالغة وصفها بـــ "المتقنة".

إن المرء، إذا ما أراد إبراز هذه الاستمرارية التي أهملها لفترة طويلة جداً المثقفون الأمريكيون المعادون للخلقية، ليجازف بألا يولي الانتباه المناسب للأفكار الجديدة والطرائق المستحدثة الخاصة بالحملة الثانية. لقد شهدنا الجهاز الضخم الذي نشره معهد سان دييغو: كل شيء فيه محسوب بقصد الاحترام الظاهري في أدق التفاصيل لأساليب عمل معهد علمي حديث. سواء تعلق الأمر بهيئاته حيث نجد اللجان العلمية المألوفة التي "تصادق" على الراجح، إلى منح الشهادات التي نُسخت إجراءاتها عن الأسلوب الجامعي الرسمي، وحتى إلى قائمة الكتب والوثائق الأخرى التربوية المنتجة، فشكل خطوطها الفني ومجموعة الأيقونات والصور فيها وتقديم التمارين في نهاية كل بحث، والخلاصات المؤطرة تستجيب تماماً لقوانين التربية الأكثر معاصرة إن لم نقل الأكثر حداثة، والتي تتصدر النظام المدرسي الأمريكي.

إن ما يميز بصورة ملحوظة أكثر الخلقية الحالية عن تلك التي حاولت أن تفرض نفسها عبر الطريق التشريعي في سنوات العشرينات هو بالتأكيد ادعاؤها المعلن بتفاخر بكونها "علمية". فهل هذا شيء جديد؟ دون أدنى ريب. ومرة أخرى لا يجب أن ننسى أنه منذ العام 1941، وقد رأينا ذلك، أظهر ASA الطموح ذاته دون أن يكون بعد على مستوى تنفيذه على أرض الواقع.

لنقرأ الوثيقة التي طُلب توقيعها من كل باحث يريد المشاركة في نشاطات جمعية Creation Research:

1 - التوراة هي كلمة الله المكتوبة، ولأننا نؤمن أنها كلها نص موحى فإنه لن يكون أي قول من أقوالها إلا صحيحاً تاريخياً وعلمياً في النص الأصلي. وبالنسبة لأولئك الذين يدرسون الطبيعة فإن ذلك يعني أن قصة الأنواع الواردة في سفر التكوين هي تقديم لحقائق تاريخية بسيطة.

2 - كل الأنماط الأساسية للكائنات الحية بمن فيها الإنسان خُلقت بأفعال الله خلال أسبوع الخلق كما وصف في سفر التكوين. وكل التغيرات البيولوجية التي أمكن أن تحدث منذ الخلق ما كان لها أن تحدث إلا داخل الحدود المحددة "للأنواع المخلوقة في الأصل".

3 - إن الفيضان الكبير الموصوف في سفر التكوين والذي يشار إليه عموماً بكلمة الطوفان كان حادثاً تاريخياً أصاب في نفس الوقت العالم كله.

4 - أخيراً، نحن منظمة من رجال العلم المسيحيين نؤمن بيسوع - المسيح ربنا ومخلصنا. وقصة الخلق الخاص لآدم وحواء أول رجل وأول امرأة وسقوطهما في الخطيئة، هي منطلق ايماننا بضرورة المخلص لكل الجنس البشري، والخلاص لن يحصل إلا بقبول يسوع المسيح مخلصاً[15].

يمكن القول إنه صك ديني لا علاقة له بالعلم! لكن هل يجوز الاكتفاء بهذا "الإقرار" واعتبار قضية "علم الخلق" منتهية؟

أهو مجرد إلباس علمي "للحقائق" الدينية، كما أكد القاص أفرتون، دون أدنى شك، أم تضليل يقصد به التغطية بغطاء السلطة العلمية لعقائدية متطرفة موجهة لجماهير جاهلة؟ ربما هو ذكاء حاد لمحاولة انتزاع دخول رسمي، مرة أخرى، إلى النظام المدرسي على حساب تيارات أخرى من التراث البروتستانتي وكنائس أخرى أو مذاهب؟

سنلاحظ في الواقع أنه باستثناء أبحاثهم الميدانية حول سفينة نوح ومستحاثات وادي باليكسي، فإن هؤلاء الباحثين الغربيين، وعلى الرغم من المظاهر المصطنعة التي يهتمون بإحاطة علمهم بها فإنهم لا يشاركون قط في النشاطات المعروفة عادة بأنها علمية في مجتمعاتنا. ويبدو "مخبرهم" في سان دييغو أشبه بمخبر ظاهري: "مخبر - بوتمكين" حقيقي إذا ما جرؤنا على قول ذلك. إنهم ينشرون كثيراً بالتأكيد وهو (كما نعرف)، أمر حيوي في الحياة المهنية الأمريكية. لكن أحداً لم يرهم مطلقاً يعرضون مقالاتهم في مجلات علمية خارج دائرتهم الخاصة[16].

وقد يستطيع المرء الإجابة دون شك بأن الكثير من: "مخابر" العلوم الإنسانية والاجتماعية يمكن أن تطالها بسهولة هذه الانتقادات ذاتها وتتعرض للسخريات ذاتها، مجبرة وهي الموجودة من خلال مؤسسة وحيدة - العُصبة، للاصطفاف،

---

[15] هذا النص أورده بحرفيته Roy A. Gallant في Ashley Montagu 1984، ص 292.

[16] ذكر روجر لوين أعمالاً تبين هذه الآلية الباطنية تماماً في مقالة في مجلة Science تاريخ 17 أيار 1985.

حتى لو كان ذلك من أجل علم النقوش اللاتينية، وفق "نموذج - مخبر" الدارج في العلوم المدعوة "بالجافة". وربما قد نكتشف هذا القطاع أو ذاك من البحث في هذا العلم أو ذلك تظل آلية عمله على الدرجة ذاتها من الانغلاق. ومهما يكن من أمر فحينما يصرُّ هـ . م. موريس في مجلة Acts and Facts[17] على واقع أن الخلقيين الحاليين، "لا يعتمدون مطلقاً، في أعمالهم، على الوحي، ولا يستخدمون إلا المعطيات العلمية من أجل دعم ونشر "نموذج الخلق"، فإنه لا يكفي أن نضحك من هذا الكلام وأن نندد بالدجل المعرفي، بل يترتب أن نشرح كيف أن تلك المسيرة الفكرية استطاعت ليس فقط كسب تأييد بريان ومزارعي وسط الغرب، وإنما إقناع آلاف الأشخاص المثقفين الذين يقدم تأهيلهم العلمي كل الضمانات الأكاديمية.

لغــــز

وهاكم ما يصدم دون أدنى شك "حسِّنا العقلاني السليم". ولا يخفي العلماء الأمريكيون شعورهم بالانزعاج. وقد عرفوا كيف ينظمون أنفسهم، وكيفما اتفق، يتصدون بفعالية خلال عشرات السنين الماضية. لكن كيف لا يقف المرء حائراً أمام هشاشة محاججتهم؟ فالبعض يكتفون، على سبيل الرد، بنشر دروسهم ليعرضوا مضمون معرفتهم حول عمر الأرض، وتطور الكائنات الحية، وأصل الإنسان العاقل (homo sapiens...) وهم يأملون كما يبدو أن تفرض الحقيقة نفسها تلقائياً في مواجهة ما يعتبرونه "اغتصاب" للقب العلم. ولابد أن فعالية هذا الإجراء لا تبدو مع ذلك وحتى في نظرهم هم، شديدة الفعالية، لأننا نرى أكثر من واحد من بينهم يأسف، مثلاً عبر مقدمة كُتبت بلهجة نصف - قتالية ونصف - متقززة أن تلك الحقيقة تفترض مسارات ذهنية غالباً ما تكون عالية التعقيد والتي تصدم أكثر فأكثر "الحس السليم"، ويعترفون بخوفهم وليس دون وجه حق أن تظل براهينهم عاجزة أمام الرسالة البسيطة للخصوم الذين يراهنون من جهتهم على القناعات المكتسبة منذ الطفولة من قبل كل مواطن أمريكي[18].

---

(17) H. M. Morris، Acts and facts، رقم 85، تموز 1980.

(18) انظر على سبيل المثال "الكتاب المدرسي" الذي وضعه Tim. M. Berra، Evolution and the myth of creationism ويحمل عنواناً آخر: "A basic guide to the facts in the evolution debate"، منشورات جامعة ستانفورد 1990.

وهناك آخرون لم يخشوا الانخراط فوق أرض زلقة جداً لخصام ابيستمولوجي، معرضين لخطر قيامهم، نتيجة لهذا الواقع، بتقديم مصداقية علمية "لتركيبات" عقائدية، معارضة لهم. والنتيجة المباشرة الأكثر وضوحاً لهذا التكتيك الأخير ستكون تبيان الارتباك الشديد الذي يقع فيه الابيستمولوجيون المتنافسون كلهم والذين يقترحون بكثرة منذ ثلاثينات هذا القرن "معايير" علمانية مفترضة قابلة للتطبيق على كل الأصعدة الفكرية.

ألا ينبغي أن نرى في هذا الارتباك، المؤشر على أنه في أصل المآسي المتكررة التي توقّع، على إيقاع حاد، تاريخ نظرية النشوء ومصيرها الفكري والاجتماعي، يكمن سؤال فلسفي أساسي. سؤال يضع موضع التساؤل نهائياً، طريقة التفكير التي يشار إليها في الغرب تحت اسم "الفلسفة"؟ إن الحالة "الأمريكية" لـ "الخلقية العلمية" قد تكتسب عندئذٍ، على صعيد جديد، أهمية قد تتجاوزها بكثير. وقد تسمح في جو ملائم بتوضيح سلسلة عجيبة من المصائب والمآسي: علم "تحسين النسل" الذي ولد في محيط داروين المباشر، والذي نراه يطل برأسه بصورة خطيرة اليوم بفضل إنجازات الهندسة الوراثية، بعد أن حطم حياة الملايين من البشر منذ نهاية القرن الماضي؛ وكذلك "الداروينية الاجتماعية" التي انبثقت منها لدرجة ما، وتغذت بها الدعاية النازية، و"الليسينكية" التي انتمت إلى داروينية منقحة وكاريكاتيرية للتغطية على ممارسات سياسة الرعب الستالينية غداة الحرب العالمية الثانية[19]؛ "البيولوجيا الاجتماعية" التي استغلت مؤخراً من قبل المنظرين الأمريكيين للعنصرية الداخلية وللتوسعية الأمريكية في جنوب شرق آسيا[20]...

إن القضية تبدو مثيرة جداً سيما وأن ظواهر "عودة الديني" التي نشهدها والتي تتمثل أحياناً في الغرب تحت أشكال شعوذة مابعد -علمية، تجد أحد محركاتها الأساسية في تذكر - أو التهديد بعودة - مثل تلك الأهوال.

---

[19] حاولت توضيح دوافع هذا الاستغلال للنشوئية في الاتحاد السوفياتي في كتابي Histoire ،Lyssenko réelle d'une "sience prolétarienne"، ماسبيرو 1976.

[20] قارن Dominique Lecourt، New Left Review رقم 125 عام 1981: "Biology and the Crisis of the human Sciences".

بيد أن قضية القضايا لم تمتلك الفرصة المؤاتية لإطلاعنا على سرها - إلا عبر بحث صبور كان يخبئ لنا العديد من المفاجآت. فنحن نعتبر تحصيل حاصل مثلاً أن الداروينية دخلت كلية في صراع مع المسيحية وأن داروين نفسه كان في السر ملحداً. ولن يتم تسوية هذه القضية، كما سنرى، بسهولة؛ إن عمل داروين قد ظهر، منذ وقت مبكر، خاضعاً، من وجهة النظر هذه، لتوتر داخلي غير مألوف بدا متوقفاً على نمط اللاهوت الذي ظل في زمنه مهيمناً في إنجلترا. ففي اللاهوت كما في السياسة، ومهما أرادت أمريكا أن تعتقد فإنها تظل بالتأكيد ابنة انجلترا. لكنها غيّرت التراث الذي ورثته للاستجابة لحالة تاريخية مختلفة جداً، وهكذا فقد أسست في القرن الماضي نسخة جديدة لهذا الفكر الديني الذي أقام بين النص التوراتي وعلوم الطبيعة علاقة غير مسبوقة. وقد جاء كتاب "أصل الأنواع" عام 1859 عند نهاية القرن الماضي ليفاقم فيها أزمة مفتوحة بدرجة قليلة سابقة من خلال تقدم الجيولوجيا ومكتشفات، إذا جرؤنا على القول، النقد التوراتي. وقد لعب "الأصوليون" البروتستانت على معطيات ونتائج هذه الأزمة المتفاقمة، واتخذوا منها موقفاً. ولكن بما أن الفكر السياسي الأمريكي يقيم منذ البدايات وإلى ما بعد "الثورة" عام 1787 بين الدين والسياسة علاقة تعايش، فإن اتخاذ الموقف هذا وجد نفسه متورطاً في لعبة القوى السياسية...

بيد أنه لا ينبغي لنا التسرع. لنعيد اجتياز الأطلسي. وهاهو داروين أمام الله.

- II -

داروين أمام الله

أسطورة

تكررت رواية المشهد مئات المرات. ففي يوم السبت الواقع في 30 حزيران من عام 1860 اجتمعت في أكسفورد جمعية تطوير العلوم[1] Association for the "Advancement of Science". فالكتاب المنتظر لتشارلز داروين حول "أصل الأنواع" كان قد طبع في شهر تشرين الثاني من العام السابق. ومنذ ذلك الحين، وكما كان يخشى مؤلفه فقد انفجرت مناظرات حادة. وقد وعد الأسقف صامويل ويلبرفوريس (1805 - 1873) باستغلال المناسبة من أجل "تصفية حساباته مع داروين"، فوجد في مواجهته الصديق المخلص لعالم الطبيعة، المناضل منذ اليوم الأول والذي سيكرس حياته بعد الآن من أجل نشر نظرية النشوء، توماس هيكسلي (1825 - 1895) والذي سرعان ما سيلقب "بتلميذ داروين المطيع". وكان هناك حوالى الألف شخص حينما وجه رجل الدين، الذي اشتهر بانتقاداته اللاذعة، طعنته المفاجئة الأخيرة: "مستر هيكسلي، أود أن أعرف: هل عن طريق جدك أو عن طريق جدتك تدعي أنك انحدرت من قرد؟" حتى هذه اللحظة المحددة، لم يكن قد تقدم ضد الداروينية إلا بحجج علمية، طبقاً لقواعد الجمعية. فاغتنم هيكسلي هذا الانحراف الجانبي، ونهض مجيباً: "أدعي أنه ليس ثمة ما يخجل بالنسبة لرجل لأن يكون جده قرداً. وإذ ما توجب أن أشعر بالخجل بسبب أحد أسلافي فإني سأخجل أكثر من رجل ذي عقل سطحي ومتقلب الأهواء، والذي بدل أن يكتفي بنجاحاته في

---

[1] يمكن الرجوع طبعاً إلى: L. Huxley ، Life and letters of Thomas Huxley ، وكتاب Himmelfard.

ميدان نشاطه الخاص، جاء يحشر أنفه في مسائل علمية غريبة عنه تماماً، ولم يقم إلا بزيادتها غموضاً عبر بلاغة فارغة، وصرف انتباه الحضور عن نقطة الحوار الحقيقية عبر استطرادات خطابية واسترجاعات منمقة للأفكار الدينية المسبقة".

وصفق الطلاب تصفيقاً شديداً وغمروا ويلبيرفورس بصيحات السخرية. وقد أخذ هذا المشهد قيمة وقوة الأسطورة، لدرجة أنه غطى على مشهد آخر، أكثر جلالاً مع ذلك ولا يقل عنه إثارة جرى بعد اثنين وعشرين عاماً.

فقد مات تشارلز داروين في 19 نيسان عام 1882، وجرت مراسم التشييع في 26 منه، وقد حمل النعش بالطبع كل من جوزيف هوكر (1817 - 1911) والصديق الدائم توماس هيكسلي وألفرد رسل والاش (1823 - 1913) وهو الإنسان الذي اكتشف بمعزل عنه جوهر نظرية الاصطفاء الطبيعي. وجرت مراسم الجنازة في كنيسة وستمنستر. وقد جاءت المبادرة من عالم الطبيعيات والانتربولوجي جون ليبوك (1834 - 1913) الذي حصل على تواقيع عشرين عضواً من أعضاء مجلس العموم على طلب موجه إلى رئيسها: "صاحب النيافة؛ يرى عدد كبير جداً من مواطنينا من كل الطبقات والآراء أنه من المناسب دون شك أن يدفن مواطننا الكبير الدكتور داروين في كنيسة ويسمينستر".

واحتل حشد كثيف أماكنه: ممثلون قادمون من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وكذلك حشد من الأصدقاء والمعجبين. وحيّت كنيسة إنجلترا بطلاً قومياً واختارت أن تدفنه إلى الشمال من صحن الكنيسة على بعد خطوات من قبر إسحاق نيوتن (1643 - 1727)[2]، وقد حيّته صحيفة التايمز بلقب تمناه طويلاً هو "نيوتن البيولوجيا".

لن تكون المواجهة قد وقعت بين ويلبيرفورس وهيكسلي فلا أحد يستطيع نفيها. ولن ت. هـ. هيكسلي قد ألقى فيها بجوابه القاتل، لدينا شهادات عديدة متطابقة حولها. ومع ذلك فإن هذا المشهد ربما أمكن وصفه بالأسطوري بحصر

---

[2] قدم Irving Stone قصة روائية لكنها ناجحة جداً لمراسم الدفن هذا في كتابه:

The Origin. A biographical novel of Charles Darwin. Ny. 1980.

المعنى. فقد نسب إليه المؤرخون بعد فوات الأوان، بعد عدة عشرات من السنين، أهمية فريدة لم يكن يكتسبها في نظر معاصريه، وفرضوا عليه اتجاهاً أثار سلسلة من المغالطات حول السياق التاريخي الذي أخرجوه منه من أجل زيادة توضيحه[3].

فقد شهدنا، إجمالاً، كما يقترحون، تكراراً، بعد مرور قرنين عليها، وفي أرض بروتستانتية لجلسة إدانة غاليلي (1564- 1642) من قبل الكنيسة الكاثوليكية، وذلك في مرحلة جديدة من الحرب المتواصلة التي يتواجه فيها في العالم الحديث العلم والدين. ألم تتجز لتوها نظرية التطور اندحار المسيحية؟ وبمخالفتها الرواية التوراتية لكيفية خلق الكائنات الحية وعلى الأخص خلق الإنسان، ألم تتضمن وبكل وضوح، تحيزاً للإلحاد[4]؟ وقد وجد المؤرخون الذين كانوا يدافعون عن الإيمان

---

(3) انظر التحليل الذي صار الآن تقليد James R.Moore في كتابه الضخم:
The post – darwinian controversies, 1979.

(4) هذا ما اعتقد مفكرون مناضلون أنهم فهموه، على الأخص Edward Aveling، صهر ماركس، والمفكر الحر المشهور، الذي نشر عام 1881 في "International library of science and free throught" مجلداً بعنوان The student's Darwin. وهو من أنكر عليه داروين، وليس كارل ماركس كما كان يعتقد لفترة طويلة، قيامه بتكريس كتاب له وذلك عبر رسالة مشهورة مؤرخة في "13 تشرين الأول 1880. وقد كتب داروين فيها: "كنت سأفضل ألا أكون موضوع الإهداء لا لجزء ولا لمجلد... [...] وعلى الرغم من أنني نصير متحمس للفكر الحر، في كل المواضيع، فإنه يبدو لي (سواء كنت محقاً أو مخطئاً) بأن حججاً مباشرة ضد المسيحية والديانة التوحيدية لن يكون لها أية نتائج على الجمهور، وأن حرية التفكير تُشجع تشجيعاً أفضل عبر النشر التدريجي لفلسفة التنوير في أذهان الناس مما ينتج عنه تقديم العلوم. لهذا حرصت دائماً على تجنب الكتابة حول الدين، واقتصرتُ على العلم". ويمكن الرجوع بشأن الكتابات الأمريكية التي سمحت بتصويب الأحدوثة التي كانت تقول أن هذه الرسالة كانت قد أرسلت إلى ماركس لكي يرفض أن يهدى إليه الكتاب الثاني من "رأس المال"، يمكن الرجوع إلى بيير توليه: *داروين وشركته* ص 73 - 105. أما عن الدوافع الفلسفية للإصرار على هذه الأحدوثة، فيمكن الرجوع إلى مقالتي "عن مراسلة مختلقة" في المجلة الفلسفية، يمكن الرجوع أيضاً إلى دراستي "ماركس في غربال داروين" التي نشرت في De Darwin au d'arwinisme منشورات Vrin. Y. Conry 1982. وقد أججَ عالم البيولوجيا الفرنسي الكبير - Pierre Paul Grassé عبر هذه الحجة عدامه الثابت للداروينية. انظر على سبيل المثال *L'évolution du vivant*، باريس، ألبين ميشيل، 1973، وكتاب L'homme en accusation، باريس، ألبين ميشيل 1980، والذي يزخر بالإضافة إلى التحيز الواضح، بحجج مفحمة ومحكمة تماماً ضد دوغمائية الداروينية - الحديثة.

المسيحي ضالتهم في هذا التفسير: ألم يكرروا من جهتهم أن الداروينية تقود إلى الكفر والدعارة؟ لقد قاموا بدورهم في بناء هذه الأسطورة.

ولكي يفرض هذا التفسير للتاريخ نفسه توجب أن تكون الكنائس دفعة واحدة معادية بالإجماع للداروينية، ولأن يكون داروين نفسه قد جاهر بآراء معادية للدين. من الواضح أن المشهد الثاني لا يدخل في هذا المخطط فجرى العمل إذن على نسيانه، وحاولوا تحويله إلى مجرد أمر تافه[5]. وقد ساهمت المواجهات التي تضاعفت منذ نهاية القرن التاسع عشر الماضي بين المنافحين عن الإلحاد الذين يستندون إلى النشوئية وبين مختلف السلطات الدينية التي هاجمتها، في إعطاء مصداقية لعملية إعادة بناء التاريخ هذه. كما أن موقف الرفض الفوري الذي تبنته المراتب الكاثوليكية العليا قد لعب دوره هو أيضاً.

وقد أعلنت الكنيسة فوراً معارضتها الحازمة للنظرية الداروينية. فمنذ عام 1860 تعرض كتاب داروين الذي ترجم إلى الألمانية، إلى الإدانة: فقد ذكّر الأساقفة المجتمعون في كولونيا، أن هذه النظرية تتناقض مع الكتاب المقدس، لأنها أخرجت الجسد الإنساني من أنواع حيوانية[6]. في إيطاليا، لا تحصى الكتب والمقالات التي نشرت بعد عام 1865 من أجل دحض الداروينية. في فرنسا، في اللحظة ذاتها، رأينا الجزويتي ج. دي بونيو يدين بعبارات إيحائية نظرية "تجعل من الكون مربط خيل فسيح" و"تدغدغ الميول الشريرة في القلب الإنساني"[7]؛ وتوالت المنشورات الداعية لرفض "نظرية أسطورية" عن أصول الإنسان، وقد دحض "التوماثيون"، كفلاسفة، فكرة أن الأكمل يمكن أن ينشأ عن الأقل كمالاً. وقد عبرت هذه المواقف

---

[5] جيمس ر. مور "Le Profil de la carrière de Darwin: son aspect ecclésiastique"، منشورات كونري، 1982.

[6] يمكن الرجوع خصوصاً حول هذه النقطة إلى Georges Minois، "الكنيسة والعلم" L'Eglise et la Science، المجلد الثاني، باريس فايارد /1991/ ص 226، وكذلك أطروحة Yvette Conry، مقدمة للداروينية في فرنسا *Introduction au darwinisme en France* في صفحات متفرقة. منشورات فران 1974.

[7] جورج مينوا، "الكنيسة والعلم" مجلد II، ص 234.

وفق نبرات مختلفة، عن وجهة نظر المراتب العليا. في عام 1877 ابتهج البابا بيوس التاسع (1792 - 1878) علناً لصدور كتاب يهاجم ما يدينه هو ذاته على أنه "ضلالات الداروينية". وحين حاول أحد الرهبان الدومينيكان، وهو الأب ليروا عام 1887، تقريب الكنيسة من فكرة تطور ما للأنواع فإنه سيستدعى إلى روما ويضطر إلى الرجوع التام عن كل كتاباته عام 1895. وسيظل الكاثوليك الذين يستندون إلى نظرية النشوء هامشيين ومحاطين بالشبهة.

تندرج هذه المواقف المتخذة في إطار حركة رد فعل الكنيسة ضد الحداثة. وقد بدئ بهذه الحركة منذ نهاية سنوات الخمسينات. ومثلت الرسالة البابوية التي تحمل عنوان Quanta cura المؤرخة في 8 كانون الأول/ديسمبر من عام 1864 التي جرى تدعيمها بـ "لائحة أضاليل" واضحة جداً فيما يخص "أخطاء" الفكر الحديث، المرحلة المزعجة منها. فقد وجد كل متخصص - وعلى وجه التحديد في علوم الفلك، والجيولوجيا والفيزياء - نفسه ملزماً من قبل البابا بتأكيد الرواية التوراتية. في عام 1863 حمل الأب فيلكس المكلف بإلقاء المحاضرات في كنيسة نوتردام، بعنف على "العلم الملحد" وهتف بتهور من فوق منبره، الذي "بفضل السماء (...) قد بات بالياً"!

ولن نستطيع مع ذلك الحكم على الموقف "المسيحي" من خلال الحرمانات الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية آنذاك. بينما كانت تلك الصادرة عن البروتستانت الإنكليز مختلفة جداً، لأن الكنيسة الانغليكانية هي الوريثة لتراث لاهوتي خاص، ولأنه كان لعلماء الطبيعيات فيه صلات فريدة مع الدين.

من الإصلاح إلى العلوم الحديثة

يظل السؤال العام عن العلاقات التي أمكن أن تربط البروتستانتية بظهور "العالم الحديث" وعلى الأخص بـ "الثورة العلمية" في القرن السابع عشر، موضع تنازع حاد. ففي النصوص التي تم جمعها مؤخراً باللغة الفرنسية تحت عنوان

"البروتستانتية والحداثة"[8] بيّن بوضوح اللاهوتي، والفيلسوف الألماني إرنست ترولينش (Ernst Troeltsch) (1865 - 1923)، كيف أن جزءاً أساسياً من هذه المساجلات تتصل بغموض مزدوج. فكلمة "البروتستانتية"[9] تشمل عدة وقائع. فالبروتستانتية القديمة والأصلية، بروتستانتية مارتن لوثر (1483 - 1546)، وولوليخ زفينغلي (Ulrich Zwingli) (1484 - 1531) وجان كالفـــن (Jean Calvin) (1509 - 1564) تتدرج تحت إطار المسيحية القروسطية وتهدف إلى تجديد الكنيسة العامة، في حين أن البروتستانتية الحديثة نشأت في نهاية القرن السابع عشر، عن عملية "إعادة تنقيح" عميقة، لا بل عن "قطيعة" حقيقية، عقائدية مع الأولى التي خضعت لاختبار.... العالم الحديث. لقد وجدت البروتستانتية الأنغلو - ساكسونية

---

[8] المقالات والمحاضرات التي تظهر في هذا المؤلف كتبت ما بين عامي 1905 - 1913 E.Troeltsch. ومن المعروف أن الأمر الجوهري في هذا الخلاف قد تمركز حول المقولات التي طرحها Max Weber في نصه المدوي المعنون: "علم الأخلاق البروتستانتي والروح الرأسمالية" المنشور بداية عام 1904 في: Archiv Für Sozialwissenschaft und Sozial Politik, 20، ص 1 - 54.

ثم أعيد نشره عام 1920 في Gessammelte Aufsätze zur Religionssoziologie (توبنجن). وسنجد عرضاً رائعاً للنقاشات في كتاب Philippe Besnard "*البروتستانتية والرأسمالية*" باريس، أرماند كولن 1970. إن السؤال المفتوح تلميحاً من قبل ويبر عن العلاقة ما بين البروتستانتية وولادة العلوم الحديثة قد أعيد طرحه ثانية عبر أعمال R.K.Merton، وعلى الأخص كتابه " Puritanism, Pietism and Science" في مجلة *علم الاجتماع، 28، 1936، ص 1 - 30*. وكذلك Science and the Economy of Seventeenth Century England" Science and Society، 3 (1)، 1939، ص 1-30.

[9] يذكر Jean Boussinesq في محاضرته الهامة التي نشرت تحت عنوان Aspects du protestantisme بأن كلمة "Protestant" تعود إلى إعلان عام 1529 الكبير أمام دييت Spire. فإذا كانت قد اتخذت فيما بعد معنى "احتج "contester" فإن فعل "Protestari" في الأصل يعني: شهد أمام الملأ، اعترف علناً. وذكر بوسينيسك أقوال عالم اللاهوت الفرنسي A. Dumas: "كانوا يعلنون أن نعمة الله الطيبة والقوية تنفذ وتحرر من الخطيئة، وأننا بالتالي لن نحقق خلاصنا عبر تراكم وتردد مزايانا، كما أنه لن يكون علينا تلطيف الخطيئة الحقيقية، وأن لا نحبط من اتباعها المستمر، بيد أن الندم والتوبة هما السبيل الأمثل للسلوى والفرح. وبخلاف دين يقوم على الفضيلة أو على العقل، فإن الإيمان بالنعمة يكافئ الإنسان عن سجن ماضيه وخصب مستقبله.." "وهم يعلنون أيضاً أن الكنيسة تقوم على شهادة الأنبياء والرسل وتقوم التوراة بتغذية كل جيل..." وهم يشهدون أخيراً أن الحياة المسيحية تهدف لإظهار وتكريم مجد الله عبر حب حر وخاضع في الأن ذاته، لكل البشر، أقرباءنا وإخوتنا" (مقتطفات من خطاب أمام أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية في 10 آذار 1980).

ذات الاسيتحاء الكالفاني، في إنكلترا من وجهة النظر النظرية تعبيرها "الحديث" في فلسفة جون لوك (John Locke) (1632 - 1704)، أما اللوثرية "القارية" فقد وجدت تعبيرها في المثالية الألمانية من غوتر فريد فيلهلم لبينز (W.Leibniz) (1464 - 1716) وايمانويل كانت (Emmanuel Kant) (1724 - 1804) حتى جورج فيلهالم فريدرتيش هيغل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (1770 - 1831).

لقد تجذر التقليد اللاهوتي الإنكليزي الصرف في عدد من حالات الرفض والمقولات التي تقاسمها مع البروتستانتية بمجملها. فهو قد رفض الإنشاء المهيب الذي سمح للقديس توما بتوضيب النصوص التوراتية في ترجمة منقحة لعلم أرسطو، وأن يصالح بذلك بين الدين والعقل داخل "القمة اللاهوتية". وحسبما رأى لوثر فإن الكنيسة الكاثوليكية لم تظهر فقط أنها مذنبة لفجور قادتها ولممارسات مخجلة مثل بيع المؤمنين "صكوك الغفران" من أجل تمويل بناء كنيسة سان بطرس في روما، بل أدانها أيضاً من أجل العقيدة التي تبرر أو تغطي، بنظره، هذه الممارسات. وسوف يشاطره كالفن وجهة نظره هذه.

إن العبارة التي يتعارف بها البروتستانت بصورة أكيدة تلفظ في اللغة اللاتينية كما يلي: Sloa gratia, sola Fide, sola scriptura والتي تعني الخلاص بالنعمة وحدها، بالإيمان وحده بالكتاب المقدس وحده.

لقد شاء البعض أن يرى في "خصخصة" الدين التي نتج عنها دافع التفحص الحر للكتاب المقدس والذي مهدّ التربة بمثل هذا التدريب للعقل، لقدوم العلم الحديث. لكن الأمر يتعلق هنا بمغالطة تاريخية، فعدا عن أن فكرة "التفحص الحر" قد تخمرت طويلاً بين الفقهاء منذ القرن الثاني عشر فإن التحليل التاريخي والنقدي للتوراة لم يظهر في العالم البروتستانتي إلا عند بدايات القرن الثامن عشر وتحت دافع نمو الروح العلمية تحديداً. لقد كان للاتصال المؤمن مباشرة بالنص المقدس أثراً معاكساً في البداية لتشجيع الإيمان بحقيقته اللفظية. أما بالنسبة للعقل البشري، فإننا نعرف ما هو رأي لوثر حياله وهو الذي لم يكن لين الجانب تجاه ديديه ايراسم

(1496 - 1536) و"الإنسانيين": "الشيطان الرجيم الذي لا يقوم إلا بالتدنيس والحط من قيمة كل كلام وكل أفعال الله!"[10] لن نقرأ بالتأكيد مثل هذه العبارات الحادة تخطّها ريشة كالفن، رجل القانون ذي الثقافة العالية والطبع الأكثر برودة. وهذا لا يمنع أن لا تبدو له سلطة وصحة التوراة أقل إطلاقية.

فالإيمان لا يتأسس مطلقاً على معرفة بشرية، فقط أعجوبة إلهية صرفة هي التي تحدثه، إنها أعجوبة النعمة. ونعرف أن نظرية "المصير المحدد مسبقاً! وهي محور أساسي في عقيدته، تفصل حتى هذه النعمة عن كل مزية: فالإرادة الإلهية هي المتحكمة، وهي "علة كل علة ومعيار كل معيار" (أي. بترولينتش). إن خلاص البعض ولعنة آخرين تتعلق باعتباطها البحت وليس للبشر لا أن يشتكوا من المصائب التي تحيق بهم ولا أن يزهوا "بأعمالهم". عليهم الخضوع لهذه الإرادة. وهذا الخضوع يقتضي أن يبحثوا في إتمام مهامهم الأرضية عن علامات اختيارهم غير المؤكد مساهمين عبر ذات الاختيار في مجد الخالق.

إن البروتستانتية، كثورة "أخلاقية" اشتملت في الحال على مشروع لاهوت جديد، لكنها لم تستطع تأكيد مبادئها إلا عبر تصديها للمدرسية، الأمر الذي ترتب عليه تهديم عميق للقواعد الأرسطوية للنظرية المسيحية القائمة أنذاك.

والحال أن "العلم الحديث" لم يستطع، من جهته، البدء، عند بداية القرن السابع عشر إلا عبر قيامه بتفكيك منهجي لنظام أرسطو، وعلى الأخص عبر تدمير القواعد الميتافيزيقية لفيزيائه التي كانت تشكل عقبة في وجه حساب الحركة[11].

---

(10) هذه العبارة "الشيطان الرجيم" تكررت أكثر من مرة بقلم لوثر. في عظة يوم 17 كانون الثاني 1546. كما كانت موضع تعليق توضيحي من قبل جان بوسينيسك 1982. وقد اصطدمت محاولات التقريب ما بين مواقف لوثر ومواقف إيراسم بهذا التعارض الأساسي وبوقائع الخلاف العام العلني الذي آل إلى خلاف شديد بين الرجلين. يمكن الرجوع للاطلاع على صورة تاريخية مؤثرة المؤثر، إلى الكتاب التقليدي Lucien Febvre: Martin Luther, un destin، 1928. أعادت Puf طباعته 1988.

(11) أحيل حول هذه النقطة إلى الأعمال المعروفة جداً لأليكساندر كويري في "Etudes galiléennes" باريس منشورات هارمان 1966.

لقد أمكن إذن "للتوافق" أن يظهر، لمصلحة هذه المعارضة المشتركة، بين اللاهوت المُصلح، وروح العلم الحديث... وقد لا يمكن مع ذلك تفسير هذا التوافق على أنه علاقة بنوة متنكرين سمات الصرامة، والغموض والطريقة التي كانت قد هيأت مسبقاً البروتستانتيين لممارسة العلوم التجريبية ألم يكن غاليلي في نهاية المطاف كاثوليكياً؟ والمغامرات الخائبة لرنيه ديكارت[12] (1596 - 1650) في أوترشت تكفي لإيقاظ الشك حول صحة مثل هذا النسب.

إن الأمر يتعلق أكثر بلقاء استطاع منظور اجتماعي وسياسي خاص إعطاءه له وحده مستقبلاً خصباً. والحال، فإن هذا المنظور قد تجلى تحت واقع ملائم بصورة خاصة في إنجلترا. وثمة كتاب يشهد على ذلك ولعب دوراً حاسماً من أجل تحقيق ما استطاع أحد المؤرخين تسميته "ظاهرة إنكليزية خاصة، أي التحالف المقدس بين العلم والدين": كتاب فرانسيس باكون (1561 - 1626). وينبغي من أجل فهمه أن ننعطف نحو التاريخ الشقاقي جداً الذي عرف المستشار كيف يستمد منه العبر لكي يتخذ حياله موقفه بقوة.

عالم"اللاهوت الطبيعي"

غالباً ما يستنتج من آثاره بأنه قد تكرس منذ عام 1605، عبر كتابيه حول "تقدم وترقية المعارف"[13]، بوصفه لسان - حال طبقة وسطى صاعدة أدركت المكسب الاقتصادي والاجتماعي الذي يمكنها أن تجنيه نتيجة لتطور تقنيات جديدة ونتيجة لتقسيم جديد للعلوم، بعد أن يجري تنظيمها بعقلانية لأجل هذه الغاية. وقد

---

(12) ندين لجان – لوك ماريون بالنشر المتبحر والمنير للوثائق المتعلقة بهذه المرحلة المجهولة تماماً تقريباً من حياة ديكارت في صراعه مع علماء اللاهوت البروتستانتيين في هولندا (راجع René Descartes et Martin Schook, la querelle d'Utrecht، باريس 1988).

(13) هاتان الكلمتان لترجمة اللفظة الإنكليزية الوحيدة advancement التي تعني في الوقت نفسه السير إلى الأمام، الإكتمال والفوز بالكرامة. ونحن نين لجاك مالبرب ولميشيل لودوف (وكذلك لمارغاريت لاسيرا) لإعدادهما حالياً باللغة الفرنسية طبعات علمية للنصوص الأساسية لباكون. وعند قراءة الأحكام الصارمة التي كان هذا العمل هدفاً لها في الوسط الفلسفي، وتأمل المكانة المحدودة جداً المخصصة لهذا العمل في التعليم، فإن المرء مضطر للتأكيد بأنه لم يحظ حتى الآن في ثقافتنا بالمكانة التي يستحقها، مع أن الأمر يتعلق مع ذلك، ومثلما هو ديكارت، بواحد من أركان الفكر الحديث.

لمتدح فكرة أن تقوم الدولة بالاضطلاع بهذه المسؤولية. وتوجه إلى الملك يحثه على اتخاذها. وقد دافع عما سيدعوه فيما بعد بيير بايل Pierre Bayle (1647 - 1706) بـــ "جمهورية العلماء". وقد رسم الخطوط الأولية لمشروع "تطبيق" العلوم، المرقاة على هذا النحو، على التنظيم الاجتماعي[14].

وفي الواقع، فإن إنجاز فرنسيس باكون كان له نبرات حديثة بدرجة فائقة لم تكف عن الدوي خلال القرون التالية. وقد أوشك البعض على نسيان أنه رفض بعناد الاقتران بنظرية مركزية الشمس لينكولا كوبرنيك (1473 - 1543) وأنه لم يفهم مغزى التحول المعاصر للرياضيات الذي مكّن من بناء الفيزياء الحديثة.

بيد أن آراءه لا تتعلق فقط بالتغيير الاقتصادي والاجتماعي العميق الذي وضع إنجلترا على رأس الأمم الأوروبية، وإنما تتدرج أيضاً في امتداد تاريخ البروتستانتية التي اتخذت خصوماتها في هذا البلد بصورة مباشرة وشبه حصرية منحى سياسياً. إن مؤلف المنهج الجديد Novum Organum وجد نفسه ابن نيكولاس الحكيم جداً وحامل أختام الملكة إليزابيت الأولى (1533 - 1603)، المُصلحة المعتدلة للكنيسة الأنغليكانية بعد الخروج من المرحلة الدامية لـــ "إعادة الكثلكة" القسرية التي قادتها ماري تيودور (الشهيرة بماري الدموية). وقد دافع عن روح البحث العلمي في الوقت ذاته ضد "أتباع البابا" وضد الطهرية التي تُرجم صعودها إلى العرش تحت حكم إدوارد السادس، على الأخص بتدمير مكتبة أوكسفورد عام 1550. وباختبار هذه الوقائع هذا الفكر فضح في الكتاب المقدس ما دعته ميشيل

---

[14] لقد استفاد باكون الذي كتب في وقت كانت فيه الفيزياء تعيش ثورتها الحاسمة، من جيشان العقول، لكن لينتقد فوضاها. "كل ما يتم حالياً حول العلوم إنما هو تحويم واضطراب دائم، دون حد أو نهاية "كتب في الصفحات الأولى من كتاب Novum Organum ترجمة مالهرب، إصدار PUF، 1986 ص 62. وقد اقترح "أداة جديدة" وشبهها "بالبوصلة" التي يحملها كبار المسافرين آنذاك. وهكذا فإن الرجال، المزودين بقاعدة معينة، يستطيعون "أن يضيفوا إلى العلوم وأن يوسعوا حدوده" ويقدم كتاب La Nouvelle Atlantide مطبوعات لو دوف ولاسيرا، باريس، بايو، 1983، لوحة "طوباوية" لمجتمع منظم من أجل البحث حول العلماء. وقد أشرت إلى ملابسات هذا النص في كتابي "Contre la peur"، دومينيك ليكور، هاشيت 1990.

لودوف (Michèle Le Dœuff) "افتراضية" إظلامية: ارتياب، أوصله إلى الذروة القديس بول ("العلم يتعجرف")، حيال المعرفة. عندئذٍ نراه ينتزع كل مقاطع العهدين القديم والجديد التي يمكن أن تُستثمر في هذا الميل، بقصد إعادة تفسيرها في معنى موائم لتطور العلوم[15].

في الوقت ذاته أدخل إلى اللاهوت البروتستانتي تحديداً يتعلق بالعلاقات بين العلم والإيمان: فقد أجرى فصلاً بأوضح ما يمكن بين Irhl البحث العلمي ومقام دراسة النصوص المقدسة. فلا ينبغي للخلافات الدينية أن تشتبك بالنقاشات العلمية. فقد كتب: "على الناس، في افتقادهم للحكمة، ألا يشبكوا وألا يخلطوا اللاهوت بالفلسفة[16]"، ويضيف: "ثمة معرفة يعلمنا إياها هدي الطبيعة، وثمة أخرى توحى بالوحي الإلهي". ومن هنا استخدامه لمجاز استدعي تحت رواية متجددة ليكون له صدى مستقبلي - عدا كونه مباشراً[17]: لقد أعطانا الله كتابين. الأول يتكون من الكتابات المقدسة التي توحي - أي تكشف - "إرادة الله" والآخر يعبر عن قوته: أي الخلـــق. لقد ظهر هنا إذن ورعاً جـــداً بحيث يدرس الطبيعة - التي يجب "تفسيرها"[18] - أكثر مما يقرأ النصوص المقدسة.

---

[15] في الأسطر الأخيرة من مقدمة Novum Organum يذكر باكون "الأمثال" الفصل 25 بيت 2: "لن تخفي مجد الله تجد مجد الملك". وقد حصل له أن أحال أيضاً إلى القديس متى في أعماله ص 1605.

[16] "ليباشر الناس التقدم أو الترقي بلا نهاية، في هذه أو تلك، وليحرصوا فقط على ممارسة هذه أو تلك بنية المحبة وليس الغرور، وبنية فائدتهم وليس التفاخر، وأخيراً أن لا يمزجوا بسبب فقدهم للحكمة، أو يخلطوا هاتين المعرفتين" (عن التقدم... ص 12).

[17] الكناية عن الكتابين موجودة، كما هو معروف، عند غاليلي. وقد أضاف غاليلي - وهذا ليس باكونياً - أن "كتاب الطبيعة الكبير" مكتوب "بلغة رياضية". وقد ذكرت ميشيل لو دوف النصوص والوثائق التي تتبح على أية حال الاعتقاد بأن الاقتباس أخذ مباشرة من باكون (مقدمة لكتاب Du progrès et de la promotion des savoirs ، ص I.II متفرقة).

[18] كلمة "تفسير" وضعت في البداية، من قبل باكون، وهي منسجمة تماماً مع الكناية عن "كتاب الطبيعة" التي يجب تفكيكها، وهي معروضة في أفق معاد - لأرسطو شديد الوضوح: ضد المنطق القياسي، "الخداع" الحقيقي الذي أدى إلى أن يهتم المرء في العلوم "بقهر وتقييد الخصم عبر الخصام"، بدل الانفتاح على "التجارب المضنية" التي تقدمها لنا الطبيعة، فيما لو "عملنا"، أي "عصبناها"، و"أوجعناها".

إن هذا الموقف قد تبلور نفسياً في أعمال المستشار من عام 1605 وحتى عام 1620 تاريخ نشر كتابه الأضخم - الذي لم ينهه عمداً - وهو المنهج الجديد Novum Organum. وقد صوّب المقولات السابقة، باستخدام منطق جديد - مضاد للأرسطورية - قُدم على أنه الطريقة المناسبة "لتفسير الطبيعة"[19] وثمة كلمة أساسية تلخصه لم تنجز أبداً تهجئتها: الاستقراء. ويبقى أن إنجلترا الكالفانية التحقت بسرعة كبيرة بفكر باكون وظلت باكونية لقرون عديدة. وقد نالت أمريكا، وعلى طريقتها، كما سنرى، حصتها من الميراث. لقد قادت هذه الباكونية البروتستانت الإنجليز لإعادة تقدير الدور الذي يلعبه في الفكر الديني "اللاهوت الطبيعي"، الذي رفضه لوثر وكالفن، وأن تهيئ له موقع بارز في النظام المعرفي. بعد إنجازها ذلك ضمنت له مساراً ميّزه بوضوح عن اللاهوت الطبيعي الكاثوليكي الموسوم بأصوله التوماثية.

وقد قدمه باكون نفسه كما يلي: "اللاهوت الطبيعي يُدعى أيضاً بحق "الفلسفة الإلهية، ويعرّف على أنه شعلة المعرفة تلك التي يمكن الحصول عليها على هدي الطبيعة وتفحص الأشياء المخلوقة، وهكذا يمكن بكل تأكيد اعتباره إلهياً بناء على موضوعه وطبيعياً بناء على مصدر معلومته". إن "الفلسفة الإلهية تكمل على هذا النحو الوحي الإلهي المثبت في الكتاب المقدس. بيد أن باكون أصرّ، كما رأينا على أن يظلاّ منفصلين انفصالاً مطلقاً[20].

وهكذا سنرى، طوال القرن السابع عشر، نضوج طريقة تفكير خاصة حيث، في قلب "الفلسفة" تقوم "الفلسفة الطبيعية" المخصصة لدراسة الطبيعة، التي تصادر

---

[19] المنطق الجديد سيكون "فناً" يضع لنفسه هدفاً، ليس اختراع البراهين، وإنما "الفنون" (قارن Novum Organum، توزيع العمل، منشورات مالهرب، ص 80 ومتفرقات). يعرضه باكون كـ "نوع من المنطق" لكن اختلافه مع المنطق المدرسي يبدو "لا نهاية له بشكل ما". من هذا المنطق "الاستقرائي" سيحول جون لوك فيما بعد الدرس في اتجاه تجريبي بارز.

[20] سوف نرى أن هذا الإلحاح لم يمنع الفلاسفة الإنكليز نسيانه وتسريب "الفلسفة الطبيعية" في "اللاهوت الطبيعي".

عليها عناية إلهية تبرهن "الفلسفة الطبيعية" بدورها على وجودها، وتصف نعمها. وقد شاء التاريخ أن يتم تبني هذا المبدأ دون تحفظ من قبل إسحاق نيوتن، الذي كان شخصية مثالية دون أدنى شك في نظر كل العلماء ورجال الثقافة خلال قرنين. فعبّر عنه بقوة لا تجارى سواء في الصفحات الأخيرة التي أضيفت عام 1713 إلى الطبعة الثانية من كتابه "مبادئ الفلسفة الطبيعية" (1687) حيث أعلن عن مبدأ الجاذبية العامة أو في "أسئلة" "بحثه في البصريات"[21] الذي أرخ لنظرية الضوء.

فقد أضاف نيوتن بعد أن وصف، في كتابه الأول، حركة الكواكب: "هذا الترتيب الفائق للشمس والكواكب والمذنبات لا يمكن أن يكون له مصدراً إلا قصد وتسيّد كائن ذكي وقادر. وإذا كان فوق ذلك أن النجوم "الثابتة" هي مراكز أنظمة مشابهة فإنها ستخضع جميعها لتسيد أوحد لأنها ستكون مبنية بحسب القصد ذاته..."

ويدقق: "هذا الخالق يدير كل شيء، ليس بوصفه روح العالم، وإنما بوصفه سيد كل شيء موجود. وبسبب سيادته هذه اعتاد الناس تسمية هذا السيد بالله "الخالق كل شيء" ووصف، كشاعر غنائي، فضائله وحكمته وترفقه. وفي كتابه "البصريات" يكتب: "إن المرء سيشعر أن الكثير من الأعاجيب لا يمكن أن تكون إلا من إبداع حكمة وبصيرة خالق كلي القدرة، حاضر في كل مكان وفي حالة إبداع، وتحريك وإدارة للعالم أكبر للغاية مما نحن عليه من قدرتنا على تحريك أي عضو من جسدنا الخاص. ولا ينبغي لنا أن ننظر للعالم مع ذلك على أنه يشكل جزءاً من الله، الذي هو وجود غير مادي. إن العالم بوصفه من خلقه يخضع لإرادته دون شك: لكنه ليس روحه..." وقد تجنب نيوتن مرتين الوضع الذي يتبناه التراث الهرمي شديد البأس في العالم الكاثوليكي في القرن السابع عشر والذي عظّم من شأنه جيوردانو برونو (Giordano Brono) (1548 - 1600) عندما جعل من نفسه

---

[21] تم طباعة بعض النصوص من "مبادئ الرياضيات" لأجل الجمهور العريض للغة الفرنسية من قبل ماري - فرانسواز بيارنيه (إ. نيوتن Principia Mathematica باريس ش. بورجوا 1985)، طبعة في ترجمة "البصريات Optique"، جان بول مارا سنة 1787، تحت عنوان (إ. نيوتن، البصريات، ش. بورجوا 1989).

غريماً له لسوء حظه[22]: إن الله ليس "روح العالم". غير أن "السيادة" تستدعي القدرة على سن القوانين دون إكراه ودون حد ودون نقصان[23]. ومن "قدرة" الله المشار إليها من قبل باكون في سياق آخر، تم العبور، الذي مُهد له سابقاً في أعمال اللاهوتي والكيميائي الشهير روبيرت بويل Robert Boyle (1627 - 1691) باتجاه "القانون"، وبالتالي نحو "بصيرة" و"قصد" الخالق الذي سيتجلى، في الخلق...

لم تنجب إنكلترا ما بين عامي 1720 و1760، علماء من المرتبة الأولى مطلقاً، وإنما أصحاب عقول حادة اكتفوا بالتعليق على مذهب نيوتن في الكون وتعميمه. ونظراً لعدم إنتاج معارف جديدة فقد عمقوا في الاتجاه نفسه أفكار المعلم الفلسفية. وهكذا ترتبت وفرضت ذاتها مفردات، استخدمت بطيبة خاطر لمعارضة الفكر "القاري" الذي يمثله تلاميذ ديكارت وتلاميذ لايبنتز. إننا لا نمتلك أية فكرة فطرية عن قوانين الطبيعة وإنما يتوجب علينا اكتشافها عبر دراسة الطبيعة ذاتها، ذلك أن الله لم يكتف بـــ "فعل" خلق أولي، بل "يدير" الكون تماماً كما كوّنه. وينتقل من السيد الذي كان ليصبح الحرفي والساعاتي الكبير.

---

[22] يمكن الرجوع إلى المؤلفات الهامة للمؤرخة الإنكليزية Frances Yates التي عملت على إعادة تقدير الأهمية التاريخية لهذا التراث، وعلى الأخص في كتابها عن "جيوردانو برونو والتراث الهرمسي" (ترجمه إلى الفرنسية ديرفي 1988). يبقى أن نتفكر على ضوء هذه الأبحاث في معنى "إفلاطونية" غاليلي، كما في معنى موقف نيوتن المذكور هنا.

[23] هذه النصوص ليست "زيادات" عالم عقلاني مأخوذ بالتنظير اللاهوتي. فالصورة التي قدمها فولتير عن نتاج نيوتن في كتابه الشهير "رسائل فلسفية" (الرسالتان 14 و15)، عام 1734، قد حرفت على الدوام الإحساس الذي كونه الفرنسيون عنه. لقد كان نيوتن طوال حياته، روحاً قلقة ظلت تتفحص بعصبية نص الكتاب المقدس، وتعمل على أن تنتزع من التوراة أخر أسرارها. ويسمح جرد مكتبته الخاصة بتكوين فكرة عن قراءاته: فأكثر من ربع الكتب التي كان يمتلكها كان يتعلق باللاهوت (477 عنوان) أما الرياضيات والفيزياء والفلك مجتمعة فلم تكن تمثل أكثر من 211 عنوان! كما نعلم أيضاً أنه كان يجمع نسخاً من التوراة والعهد الجديد: 34 نسخة بالإنجليزية والفرنسية واليونانية والعبرية أنظر حول هذا الموضوع ج. هاريسون "مكتبة إسحاق نيوتن: الصادر في كامبريدج عام 1978. ويجب أن نتذكر أن نيوتن وقد كتب الإضافة the libraty of Issac Newton إلى رسائل بنتلي Letters au Dr Bently 1756، ثلاثة كتب هامة في اللاهوت: "تاريخ الممالك القديمة" 1728، "ملاحظات حول سنوات دانيال وقيامة يوحنا" 1733، "قصة تاريخية عن تعديلين كبيرين" 1754. يمكن الرجوع إلى الإيضاح الرائع الذي قدمه برنار كوتريه في كتابه مسيح الأنوار Le Christ des Lumières باريس 1990 cerf.

وتتركز مهمة "الفلسفة الطبيعية" في اكتشاف "الانتظام" الذي يتجلى في سلوك الظواهر حينما يراقبها المرء بعناية. إنها تسمى "قوانين"، ويمكن وصفها على أنها "العلل" لكنها علل بالمعنى الثاني والذي بحسبه تفسر الظواهر وليس بالمعنى الأول الذي بحسبه تشتمل بذاتها على "الأسباب الأخيرة لوجودها". ويذكر حتى الشبع مثال "الجاذبية" والتي بحسب اعتراف نيوتن، كما يكررون قبل أن يسارعوا إلى نسيانه، لا نعرف عنها علتها "بالمعنى الأول" ويشار إلى أن هذا الجهل لا يمنعنا من وصف سلوكها. أما ما يتعلق بسبب وجودها فإنه ينبغي رده إلى الله.

هذه الرؤية للكون "المُدار" من قبل الله وفقاً "لقوانين" أو "قواعد" يمكننا اكتشافها عبر مراقبة السلوك المنتظم للظواهر والذي يظهر "قصد" الله في الكون أو عنايته الإلهية، لن توضع قيد التساؤل خلال أكثر من قرنين في إنجلترا. ومن غير المؤكد أن باكون كان سيقبل بهذه الفلسفة التي مورست باسمه. فالفصل الذي طالب بإقامته بين اللاهوت والعلم قد تلاشى فيها لدرجة الاختفاء.

وفي حين أنه رُفض، في فرنسا، ليس دون تهكمات من قبل فلاسفة القرن الثامن عشر وحتى حينما يكونون متحزبين لإنجلترا سياسياً، فإن العلماء الإنكليز عهدوا إليه، بالعكس، بامتداد جديد وصرنا نرى "اللاهوت الطبيعي" يسيطر دون منازع تقريباً على العقول. وعليه يجري تفسير الأمر بأنه منذ بداية القرن السابع عشر كان الكثير من العلماء، في إنجلترا، من رجال الدين. وهناك كتاب يفسر أفضل من غيره هذه الامتداد وهذه السيطرة هو الكتاب الذي نشره عام 1802 المفوض الكهني ويليام باليي (William Paley) ويحمل العنوان الكامل:

Natural Theology: or Evidences of the Existence and Attributes of the Deity Collected from the Appearances of Nature.

يؤسس باليي، في عمل سابق له Moral and Political philosophy (1785) بعد أن انضم إلى نفعية ج. بنتام (J. Bentham) (1748 - 1832) الذي نشر كتابه (Introduction to the Moral of Legislation) ما بين عامي 1780 و1789، الأخلاقية على الوعد بمكافآت سماوية مع أنها غير مؤكدة.

إن وجود المجتمع لا يُفسر في نظره أيما "عقد" يجري بين الأفراد كما تخيل الفرنسيون وإنما عبر رؤى للعناية الإلهية لأحد لحكمتها. ويبقى عليه إقامة الدليل على وجود هذا "القصد" الإلهي وإظهار أن العالم وجد مُحكماً لكي يكفل بأفضل ما يمكن، السعادة للمخلوقات، وعلى الأخص للجنس البشري. هذا هو هدف كتاب Natural Theology. "إذ لا يمكن وجود قصد دون من يقوم بتكوينه، واختراع دون مخترع، وتنظيم دون اختيار، وترتيب دون من يكون قادراً على الترتيب، ومنفعة وعلاقة ذات هدف دون من يكون قادراً على أن يحدد لذاته هدفاً، ووسائل مناسبة لغاية دون أن تُحدد هذه الغاية مطلقاً وأن لا تكون هذه الوسائل قد أُعِدَّ لها مسبقاً. مطابقة، استعداد الأطراف، نفعية الأدوات بقصد غاية معينة، علاقات الأدوات باستخدام معين تستدعي وجود بصيرة وعقلاً".

والحال أن باليي وجد، كما وجد سابقه جـــون راي (John Ray) (1627 - 1705)[24]، في التاريخ الطبيعي وعلى الأخص في التشريح، ميداناً ممتازاً ليثبت صحة براهينه. فمطابقة أطراف جهاز ما - موائمتها لبعضها البعض وكذلك للوسط - ألا ينبغي النظر إليها على أنها دلالة على قصد الطبيعة؟ وبنظرة أشمل فإن نظام هذه الطبيعة، بما فيه أثناء اضطراباته العابرة، يقدم للعقل البشري الدليل الذي لا يمكن دحضه على وجود خالق يمتلك تصوراً مسبقاً. ويندرج معظم الطبيعيين الإنكليز، بوصفهم كهنة ورعين، في هذه النظرات التي عملوا على نشرها من أجل تعزيز إيمانهم[25]. وقد دافعوا عن فكرة أن الخلق العضوي يترتب حسب "سلسلة كبيرة من الكائنات"[26] وحلقاتها تتشكل من كل الأشكال المخلوقة والتي تمتد من الأشكال الأشد بساطة والأشد جلافة وتصعد حتى الإنسان ومن خلاله ترتبط بالله ذاته. هذه "السلسلة" اعتبروها كاملة الاستمرار والانسجام ودون أي خلل، وتتابع

---

[24] راجع جون راي، لندن 1691/ The Wisdom of God manifested in the works of the Creation.

[25] لقد جرى إيضاح هذه المسألة تماماً منذ حوالى عشرين عاماً من قبل Camille Limoges في كتابه حول الاصطفاء الطبيعي (ك. ليموج، باريس، Puf 1970).

[26] للتعبير لـــ Lovejoy، The Great Chain of Beings، كامبريدج 1936.

الأشكال فيها الواحد تلو الآخر عبر تقدم غير محسوس. وقد تحدث المؤرخ الكبير لوفجوا Lovejoy في هذا الموضوع عن "مبدأ الجُملة".

وقد تابع باليي هذه الترسيمة عبر "تصليبها" وتوسيعها. وقد أدرج القصد الإلهي في كل زوايا الكون اللاعضوي ناقلاً إليها "تكيفات" العالم العضوي.

داروين: إصطفاء دون اختيار؟

ينتمي تشارلز داروين إلى هذا الوسط وقد قرأ منذ وقت مبكر كتاب باليي. وكان معداً لأن يصبح كاهناً عام 1828 كما كان اثنان من أعمامه، وكما معظم أصدقائه في كامبرديج وكما كان قدوتـــه جون ستيفن هينسلو (John Steven Hensl) (1796 - 1861) مدرس علم النبات الذي أصبح وكيله ولعب دوراً حاسماً في حياته[27]. وينسلو هو الذي أوصى به للقبطان الشاب والصلب المراس فيتز - روي (Fitzz - Roy) (1796 - 1861)، في العام 1831 لكي يبحر بدلاً عنه فوق ظهر البيغل Beagle وأن يشارك في البعثة التي ينبغي أن تستكشف وترسم خارطة شواطئ أمريكا الجنوبية. وحينما عاد إلى إنجلترا بعد خمسة أعوام وقد بلغ السابعة والعشرين من العمر، بعد أن أنهى بذلك رحلة حول العالم وراكم كماً هائلاً من الملاحظات غير المعهودة عن الجيولوجيا والحيوان والنبات في تلك البلدان البعيدة، تخلى داروين عن فكرة أن يصبح كاهناً، بل اختار الانخراط في هذا الوسط الاجتماعي بالذات في داون في قلب الريف غير بعيد عن لندن.

ونحن نعرف الآن بفضل دراستنا[28] ليومياته ما كانت عليه خلال الأعوام اللاحقة مسيرته الفكرية: فلابد أن عاين، كتلميذ متحمس لباليي، عندما رفعت البيغل مرساتها أن "التكيفات" العتيدة للأجهزة العضوية مع وسطها لم تكن تمثل الكمال المطلق الذي يسلم به اللاهوتي. ولكي يخصص معنى لهذه المعاينة. وجد داروين نفسه منقاداً بقراءة أخرى قام بها قبل سفره، هي قراءته للكتاب الكبير لتشارلز لييل

---

[27] Henslow هو من ترأس الجلسة الشهيرة التي تواجه فيها هيكسلي وويلبرفورس.

[28] أعدت هذه الدراسة من قبل Sir Gavin de Beer، انظر على الأخص: Charles Darwin. Evolution by natural selection، لندن 1963.

(Charles Lyell) (1797 - 1875) المعنون "Principles of geology" والذي صدرت طبعته الأولى عام 1830. ومن المعروف أنه حمل هذا الكتاب معه فوق ظهر السفينة. وهو يدين له بالأهمية الحاسمة، على أصعدة عديدة، التي أولاها للتوزع الجغرافي للأنواع ولعزلتها. فقد كان ليبل يعتقد بثبات الأنواع لكنه افترض أنها الواحدة كما الأخرى قد تطورت في أجواء خاصة، انطلاقاً من مواطنها الأصلية. وقد استعار ليبل نفسه هذه الفكرة من مؤسس "الجغرافية الحيوية التاريخية" العالم الطبيعي السويسري أوغستين بيرلم دي كاندول (A.P. de Candolle)، (1778 - 1841)[29]. وهكذا توصل عام 1838، بعد ثلاث سنوات من التفكير والمراقبات الإضافية، إلى فكرة أن الأنواع ليست ثابتة.

وهكذا ظهر في الواقع التجديد الأول للنظرية الداروينية: فقد قطعت مع الفكرة التي كانت لا تزال حينها مقبولة من الجميع والقائلة بعدم تحول الأنواع. وقد أوضح داروين رأيه حول هذه النقطة بكل الوضوح المطلوب. لقد رفض فكرة "عمليات الخلق المنفصلة" المفترضة نتيجة لهذه الثباتية، والتي لا تفهم في الواقع إلا إذا كان كل نوع حي مطابق لنموذج أصلي - "جوهر" ثابت ومحدد تماماً - مثبت منذ خلقه. وكان معظم علماء الطبيعة يقفون عند هذه الفكرة التي كانت تتضمن بذاتها سلطة أرسطو[30] وأكبر الأسماء في العصور السابقة. وكان هذا المفهوم يمثل

---

[29] مفهوم أن ملاحظات داروين لم تكن منقذة بقلق لاهوتي فقط، بل سنرى أنها كانت أيضاً موجهة بقراءة العالم الطبيعي الشاب قبل إبحاره للعمل الضخم Charles Lyell (1797 -1875) بعنوان "مبادئ الجيولوجيا" Principles of Geology، الذي نشرت الطبعة الأولى منه عام 1830. ونعرف أنه حمل معه هذا الكتاب على ظهر السفينة Le Beagle. وهكذا يتجه تاريخ الفكر عبر انتقال المسألة ومحاولات التوحيد.

[30] سلم أرسطو بوجود غير محدد لعدد من الأنواع التي تتكاثر وفقاً لنمطها: فكل نوع منها يجمع في لحظة معينة مجموع الأفراد المتزاوجة ويحتفظ عبر الزمن سمات متشابهة. فالنوع (eidos) لا يتشكل من خلال مجموعة من الأفراد وإنما يتحدد بسلسلة من المحددات (رباعية الأقدام، مفترسة، الخ.) الصالحة لكل الأفراد، ومنهم فقط يمكن للمرء جمعهم في فكرة واحدة (eidos). كل فرد يمكن أن يتحدد، ولا يمكن أن يتحدد إلا بنوعه (eidos). الأشكال قابلة للتحول وتتوزع وفق سلم تراتبي ووحيد للوجود وفرد معين من الأرض يبدو كأنه مركب من شكل - نوع (eidos) ومن مادة. وبوصفه هذا فإنه قابل للفناء، ولا يمكن إذا ما تحدثنا بدقة، التعرف إليه علمياً. (قارن أرسطو Des parties des animaux عن أجزاء الحيوان a640 مع Les débats de la science grecque من "تاليس إلى أرسطو"، ترجمة فرنسية، ملسبرو 1974.

في نظر الكنيسة الأهمية الحاسمة لسماحه بعزل الإنسان عن بقية المخلوقات الأخرى، وفقاً لما ورد في النص المقدس. حتى الجاهل بهذا العلم يستطيع فضلاً عن ذلك تأكيد الأمر يومياً عبر معطيات الملاحظة: فالقطة تظل بعد كل شيء قطة، سواء كانت طويلة الوبر أو سيامية أو قطة شاردة.

وعلى الرغم من بضع حالات نادرة من الأنواع "المثيرة للشك" فإن المرء يستطيع الوثوق بالتصنيف التقليدي الذي قدم له نسخة "عقلانية" وحديثة عالم النبات السويدي كارل فون لينيه (Carl von Linné) (1707 - 1778). من جهة أخرى هل رأينا أصلاً ظهور أنواع جديدة؟ أما فيما يتعلق "بالتشكيلات" التي ينتجها البستانيون والمربون، منذ أزمنة أزلية، فإن تنوعاتها تتدرج دائماً في حدود الطراز الابتدائي.

لقد كان داروين يدرك تماماً مع ذلك أنه لم يكن أول عالم طبيعي في عصره يقدم فكرة "تحول" الأنواع. إذ يتم الربط بينه وبين اسم العالم الطبيعي الفرنسي جان بابتيست لامارك Lamarck (1744 - 1829). فقد ترسخ كتابه "فلسفة علم الحيوان" في أذهان الجميع، حتى وإن بهت مجده أمام السطوع المناقض لمجد جورج كيفيه Cuvier (1769 - 1832)[11].

فقد أكد لامارك، فيما يتعلق بموضوع **الطبيعة** أن أبسط الأنواع من هذه المنتجات الحية قد أوجدت بالتتالي كل المنتجات الأخرى الحية". فقد كان يفترض

---

[11] النص الأكثر شهرة Georges Cuvier المعنون بـ "مقالة حول ثورات سطح الكوكب وحول التحولات التي انتجتها في المملكة الحيوانية": Discours sur les révolutions de la surface du globe et sur les changements qu'elles ont produits dans le règne animal يدين به كثيراً لمعلمه الألماني Friedrich Blumenbach (1752 - 1840)، المدرس في جامعة بينا. وقد تساءل فيه كيفيه بالعبارات التالية: "ولماذا لا يكون للتاريخ الطبيعي هو أيضاً نيوتنه الخاص به يوماً؟" ويمكن اعتباره المؤسس لعلم "التشريح المقارن". وقد اعتبر بوصفه تلميذاً نجيباً لنيوتن أن: "كل كائن منظم يشكل مجموعاً، نظاماً وحيداً ومقفلاً، حيث تتطابق أعضاؤه تبادلياً وتتعاضد (منشورات ش. بورجوا 1985). وقد رفض كيفيه الذي اشتهر بمقدرته على إعادة تركيب حيوان كامل انطلاقاً من عظمة واحدة منه، فكرة تحول الأنواع. وقد تفوق دوماً على لامارك. وسوف نرى فيما بعد كيف أن نظريته حول "الكوارث" أمكن استغلالها - ليس دون تحريضات ومخاتلات - من قبل اللاهوتيين البروتستانت ثم من قبل "الخلقيين العلميين".

أن سلم الكائنات الحية يتطابق مع "الصعود" المتدرج للأجهزة العضوية نحو اكتمال أكثر اتساعاً باستمرار بفعل "حياة" مبدعة لكنها مكرهة على التكييف مع الوسط الخارجي. ونتيجة لهذا الإكراه تجرب الأجهزة العضوية "الاحتياجات" التي تغيرت مع "الظروف" الخارجية. ومن هذه الاحتياجات نشأت "عادات" جديدة، تقوم السوائل التي تنحت العضوية بتعديلها. ومن هنا ظهور صفات جديدة ونقلها الوراثي، وعلى الأرجح تراكمي، من جيل إلى جيل. وهكذا تزودت الزرافة، وهي حيوان بارز في الميثيولوجيا اللاماركية، برقبة طويلة: وقد كانت استطالتها تدريجية وكانت ضرورية لبلوغ الأوراق العالية للأشجار في المناطق التي تحول مناخها تدريجياً إلى الجفاف[32]. إن رقبة الزرافة الحالية تعادل مدى الشهية والجهد والعناد الذي بذلته أجيال الزرافات!

وقد كتب لامارك عام 1802: "من غير المستبعد أن تتشكل، بعد سلسلة طويلة من القرون، أنواع جديدة، وأجناس جديدة وحتى رتب جديدة..." بيد أن فكر عالم الطبيعة الفرنسي ظل خاضعاً للفكرة التقليدية عن "سلّم الكائنات"، أي عن ترتيب للطبيعة جرى تصور اتجاهه مسبقاً. هذا "الترتيب" الذي يراه "ينمو" مع مرور وقت مبدع يظل القاعدة غير الملموسة لتطورات الأشكال الحية[33]. لقد نقل لامارك إلى الطبيعة الغائية المنسوبة قبله إلى فعل الخلق الإلهي واكتفى بأن آخّرَ تحققه؛ ولكن فكره يظل في نهاية الأمر فكر غائي، جامد، إن صح القول، عند فكرة "الكمال" التي أعاد ادماجها في فكرة سيرورة الاكتمال.

لقد جدد داروين جذرياً في هذه النقطة. فقد قلب علاقة النوع بالفرد التقليدية. فلم يبدُ له أن النوع هو طراز معطى وقياساً عليه سيظهر الأفراد مطابقة إلى هذه الدرجة أو تلك. على العكس من ذلك فإن الأفراد هم الذين يتحولون، والأنواع تتشكل وتغير شكلها انطلاقاً من هذه التحولات.

---

[32] انظر Madeleine Barthélémy – Madule، Lamarck ou le mythe du précuseur، باريس، سوي، 1979.

[33] انظر "لامارك وعصره، لامارك وعصرنا"، باريس، مجموعة Vrin، 1981.

ولهذا لم يستعمل داروين، حينما أشار إلى تصوراته، كلمة التطور، التي تشير عبر استخدامها المعاصر في علم الأجنة إلى نمو الجنين[34]، بل استعمل تعبير "النشوء مع الارتقاء" بصفة متكررة لكي يتم اعتباره ذي دلالة. إن نشوء وارتقاء الأنواع لا يمكن فهمه إلا على ضوء "نشوء" الأفراد و"التحولات" التي تطرأ عليهم[35]. وقد سجل داروين، الواعي جداً لتأسيسه في هذا العلم طريقة تفكير جديدة، في إحدى يومياته من العام 1838 أنه تخلى عن كل لجوء إلى "العلل النهائية" لتفسير الظواهر.

وإذا ما أردنا قياس الهوة التي باتت تفصل فكره الخاص عن لاهوت باليي الطبيعي فإننا سنقرأ هذا النص الذي يفكك فيه برهانه نقطة نقطة ويستبدل بوضوح فكرة الساعاتي أو الحرفي الإلهي بالكناية عن طبيعة عديمة التبصر ومع ذلك تظهر كمرمق حرفي ممتاز. فقد كتب داروين بخصوص التاريخ الشواشي لكن الناجح لأجهزة إلقاح الأوركيدات، باسطاً فكرته: "على الرغم من أن جهازاً ما ربما أمكن في الأصل ألا يكون قد تشكل لغاية محددة جداً، فإذا قام الآن بهذا العمل فيمكننا القول بحق، إنه معّد خصيصاً من أجل هذا. وبحسب المبدأ نفسه إذا اخترع إنسان آلة لغاية محددة لكنه استخدم لبنائها عجلات وبكرات قديمة ونوابض مستعملة، دون أن يعرّضها إلا لتعديلات طفيفة، فإنه ينبغي القول عن هذه الآلة بمجموعها، وبكل قطعها المكونة إنها أُعدت خصيصاً من أجل الغاية المقصودة. وكذلك في الطبيعة كلها، فإن كل الأجهزة تقريباً لدى كل كائن حي قد خدمت على الأرجح في شروط معدلة قليلاً، من أجل غايات مختلفة، ولعبت دوراً في الآليات الحية لعدة أشكال نوعية قديمة، متميزة عن الأشكال الحالية". وقد أغنى ستيفن جاي غولد هذا النص بقوة مؤخراً بمثال مدهش، هو مثال إبهام دب الباندا[36] الذي لا يعتبر إذا ما تحدثنا

---

[34] راجع Georges Canguilhem وآخرون "من النمو إلى النشوء" Du développement à l'évolution، طبعة جديدة، باريس، PUF، 1981. حول مسألة تحديد النوع عند داروين يمكن قراءة الإيضاح المفحم لباسكال تاسي في كتابه Arbre a remonter le temps، باريس، ش. بورجوا 1991.

[35] سنعود لاحقاً إلى غموض موقف داروين، والذي سيكون، في قلب السجال الأمريكي حول الخلقية.

[36] ستيفن جاي غولد، 1980، ترجمة فرنسية، إبهام الباندا، الألغاز الكبرى للنشوء: Le pouce du panda. Les grandes énigmes de l'évolution، باريس، كتاب الجيب، 1982.

من وجهة نظر تشريحية، "إبهاماً" مطلقاً لأنه ليس إصبعاً، لكنه "بُني"، تشكل مع استخدامه كإبهام انطلاقاً من عظمة الرسغ تحت تأثير "الاصطفاء الطبيعي".

إننا نجد هنا التجديد الأكثر تدميرية في الفكر الداروينى: فهذا المفهوم "الاصطفاء الطبيعي" الذي يفرض أمام عيني داروين أساساً، آليات النشوء. ولم يمل داروين من الإلحاح على ذلك: إن كلمة "الاصطفاء" التي استعارها من المربين، لا تتضمن أية فكرة "اختيار" ولا أية "بصيرة" لدى الطبيعة. وقد كتب داروين بخصوص أصل الأنواع: "لقد قيل إني أتحدث عن الاصطفاء الطبيعي كما لو أتحدث عن قوة فاعلة أو قدرة إلهية، لكن هل يعترضون على كاتب حينما يتحدث عن قوة شد الجاذبية بوصفها حاكمة لحركة الكواكب؟ إن كل واحد يعلم ما الذي يعنيه ويستدعيه استعمال مثل تلك التعابير الميتافيزيقية، وهي تعابير يستحيل تجنبها تقريباً إذا أراد المرء أن يكون موجزاً. وهكذا ومرة أخرى، يصعب تجنب شخصنة كلمة طبيعية. لكني أقصد بكلمة طبيعة، الفعل المجموع ونتيجة عدة قوانين طبيعية وأقصد بكلمة "قوانين" سلسلة الأحداث كما نعاينها نحن"[37]! إن "الاصطفاء" يجري على التحولات الصغيرة التي تؤثر على الأجهزة الفردية، في لحظة محددة، إن مثل هذا التحول سوف يحمل لجهاز ما معطى ميزة ستسمح له بالتغلب على الأخرين في الصراع الذي تخوضه بالضرورة الكائنات الحية من أجل تملك وسائل بقائها، وهذا التحول سينتقل لخلفها الذي سينتشر على حساب الشكل السابق. إن تحول الأشكال الحية يبدو على هذا النحو كما لو أنه نتيجة للتراكم المستمر والمتدرج لهذه التحولات غير المحسوسة[38]. إن داروين لا يؤكد فقط أن الطبيعة لا تقدم الدليل

---

[37] سنلاحظ الإلحاح الذي أظهره داروين، على استخدام كلمة "قانون" في نهاية (أصل الأنواع)، في حين أنه لم يعلن أي قانون بالمعنى الذي حدده نيوتن.

[38] سوف نرى كيف أن هذه "التدرجية" تقوم اليوم في قلب النقاشات فيما بين البيولوجيين الداروينيين. وفي كتابه المعنون في جذور الزمن Aux racines du temps (ترجمة فرنسية، غراسيه، 1990) يبين ستيفن جاي غولد بطريقة مثيرة للإعجاب أصل الخلافات التي كانت "التدريجية" هدفها: فقد أخذ داروين عن تشارلز ليبل المبدأ الذي بحسبه "إن القوانين التي قادت تشكيل الطبيعة في الماضي لا تختلف عن القوانين التي تنظم الظواهر اليوم" واستخلص منه فكرة تحول الأنواع بخلاف ليبل المبدأ الذي رفض

على أي قصد إلهي بل إنه يرى أن "التبدلات الطفيفة" التي تجري القرعة عليها والتي ينتج عنها "التحول" تظهر "بالمصادفة" وفي المنحى الذي لم توجه إليه لا عبر مخطط مسبق التصور ولا عبر تبدلات الوسط فقط.

إن التعبير التقليدي "للكمال"، وللمسيرة والنمو لم تعد تجد لها مكاناً في فكره. وحتى لو حصل في بعض الحالات النادرة التي لا يجب إهمالها، كما سنرى، أن لغته قد زلقت.

الوهية/ داروين

من المعروف أن داروين أعلن أنه ظل "مؤمناً للألوهية" (Théisme)، حتى عام 1859، تاريخ نشر كتابه الأساسي، وحتى لو أن دفاتره تستحضر منذ عام 1838 ليس دون وجل، إمكانية الإلحاد بوصفها نهاية لأفكاره. ويريد البعض ألا يرى في هذا الاعتراف بالإيمان إلا خديعة ما أو تخفياً أو كذباً، والبعض من الملحدين، يوافقون على استفادته من الخديعة، وآخرون، متدينون، يشمئزون من الطريقة. ومن الأجدر أن نتساءل عن معنى كلمة "ألوهي"، دون تعجل سبر سيكولوجيا داروين وانعطافاته. يعيد استخدام المصطلح، في إنجلترا ذلك العصر، إلى موقف محدد. في الواقع: إنه يتضمن التخلي عن الإيمان بالدين، لكنه في المقابل لإبقاء على الاقتناع بأن هذا الكون يفترض خالقاً، والذي يحضر ليس كنتيجة بسيطة وجافة لمحاكمة عقلية وإنما كإله شخصي. وهذا ما ظل عليه، على

ذلك حتى 1866، تاريخ العلم الذي عاد وأيدها. وعادة مايكال المديح لقدرة داروين على الإقناع وكذلك الاستقامة الفكرية لهذا الذي بات صديقه.

وفي الحقيقة فقد أجبر لييل على الرضوخ أمام معطيات المستحاثات التي راكمها الجيولوجية منذ خمسة وثلاثين عاماً. لكن ينفي ملاحظة المسألة التي جرى التوافق حولها ما بينه وبين داروين: فقد فهم لييل أيضاً "التماثلية" على أنها مبدأ فعل ثابت للقوى في فعلها في الطبيعة منذ أقدم الأزمنة والحال أن داروين قد أخذ أيضاً هذه المقولة الثانية عن معلمه - التي لا تقيم علاقات ضرورية مع الأولى، وقد ترجمها بفكرة أن "النشوء والارتقاء"يحدث بطريقة "تدريجية ومستمرة". وسوف نرى فيما بعد كيف أن"نيوتونية" ما قد دفعته إلى ذلك، لكن على الأخص كيف أن هذه المقولة التتابعية تقوم في أصل المأزق الأشد خطورة التي واجهتها النشوئية يبقى أنه إلى هذه "التدرجية" وإلى هذه "التقدمية" انضم لييل حينما تخلى عن معارضة فكرة نشوء الأنواع...

الرغم مما قاله ناقدوه المتدينون، موقف جد داروين، عالم الطبيعيات ايراسم دراوين.

هذه "الألوهية" المؤكدة تعني قطيعة مع الأرثوذكسية المسيحية، بما فيها التفسير الذي اتخذته في "اللاهوت الطبيعي" بفهمه بالمعنى الأوسع، لأنه لا يمتزج قطعاً مع "تأليهية Le Déisme" فلاسفة عصر الأنوار الفرنسيين التي لا ترى في الله إلا تجريداً صافياً، مكرّساً لممارسة "دين طبيعي" هو نواة "عقلانية" لدين شمولي، منظوراً إليه على أنه مجرد أداة أخلاقية بسيطة مكرسة للحفاظ على نظام اجتماعي تهدده انفلاتات متعددة للمسيحية.

هذه الألوهية يُعبر عنها أحسن تعبير في الصفحة الفاخرة التي ينتهي بها كتاب أصل الأنواع. وهي تستحق في هذا المقام عناء قراءتها كاملة: "من الممتع تأمل شاطئ وافر الغنى، تغطيه نباتات مختلفة تنتمي لأنواع عديدة، تأوي طيوراً تصدح بين جنباتها. وحشرات متنوعة تهوم هنا وهناك، وديدان تزحف في الأرض الرطبة، وإذا ما فكر الإنسان بأن هذه الأشكال المبنية بروعة بالغة والمتلائمة باختلاف شديد وتخضع بعضها لبعضها الآخر بطريقة معقدة جداً قد أُنتجت من خلال قوانين تفعل فعلها حولنا. هذه القوانين، مأخوذة بمعناها الأوسع هي: قانون النمو والتكاثر، قانون الوراثة الذي يكاد يتضمن كل قانون التكاثر، قانون قابلية التحول، الناتج عن التأثر المباشر وغير المباشر لشروط الوجود وعن الاستخدام وعدم الاستخدام؛ قانون تزايد الأنواع بمعدل مرتفع ليقود إلى صراع البقاء والذي ينجم عنه الاصطفاء الطبيعي الذي يحدد تباين الصفات وانقراض الأشكال الأقل اكتمالاً. وستكون النتيجة المباشرة لهذه الحرب الطبيعية التي تترجم بالجوع والموت، هي العمل الأشد روعة الذي يمكننا أن نتصوره والمقصود: خلق الحيوانات الأرقى. ألا توجد عظمة حقيقية في هذه الطريقة لمواجهة الحياة، مع كل قواها المختلفة المحمولة بصورة بدائية من قبل الخالق على عدد صغير من الأشكال أو حتى على شكل واحد؟ والحال بينما يتابع كوكبنا، الخاضع لقانون

الجاذبية الثابت، الدوران في مداره فإن كمية لا نهائية من الأشكال الجميلة والرائعة الناتجة عن بداية بالغة البساطة، لا تكف عن التطور والتطور باستمرار!".

إن داروين، الألوهي، لا يجهل المغزى الفلسفي الثوري لمفهومه الأساسي وللتصور للطبيعة الذي يقوده. فهناك ما يدعوه حقاً للخشية من أن يجد نفسه متهماً بالإلحاد تحديداً.

لن لا تكون الأنواع "ثابتة" هو رأي عرف داروين بالتجربة عبء فضيحته على الأخص على مملكة اللاهوت الطبيعي. ففي عام 1844، العام نفسه الذي وزع فيه مذكرة ثانية تلخص لبعض الأصدقاء الموثوقين مواقفه (المذكرة الأولى تعود بتاريخها إلى عام 1842)، نُشر دون اسم المؤلف كتاب بعنوان (بقايا التاريخ الطبيعي للخلق) قدم له آدم سيدغويك Adam Sedgwick الأستاذ السابق لداروين في جامعة كامبريدج عرضاً لاذعاً، وقد درس على مدار أكثر من 80 صفحة الاعتراضات الأخلاقية والعلمية على فرضية "تطور الحياة العضوية" المعروضة فيه[39]. وكان المؤلف مداناً بنظره "لإلغاء كل تمييز بين الفيزيائي والأخلاقي" لصالح "مادية مُحطِّة".

---

[39] كان مؤلف الكتاب هو Robert Chambers. وقد أعلن Herbert Hovenkamp لن اهتمامه بتبدل الأنواع يأتي من أنه، كأخيه وليام، ولد مزوداً بستة أصابع في كل يد وكل قدم... ولد عام 1802، ابن صناعي نسيج كان عام 1844 ناشراً ومكتبياً مرموقاً. لم يمتلك تشامبرز أي مؤهل علمي، ويبدو كتابه أشبه بمجموعات منتخبات واسعة ذات طموح كوني. وقد استند إلى الفرضية السديمية لبيير - سيمون لابلاس حول أصل النظام الشمسي، ثم وصف ليس دون فنتازيات، شكل الأرض، بعد ذلك وصل إلى نشوء الكائنات الحية وبسبب المنهج ذاته، جمع كل المعطيات التي تسعى إلى البرهنة على أن التاريخ الفيزيائي للأرض يظهر كما لو أنه تاريخ نمو بيولوجي. وعدا عن العديد من هذه المعطيات ظهرت في الحال دون أي سند علمي حقيقي، فإن نقطة الضعف الكبير تتعلق في أنه لم يطرح أية آلية لتفسير هذا النمو. وقد أورد Charles C. Gillispie الذي كرس فصلاً من كتابه التقليدي Genesis and geology، نيويورك 1959، لعلم شامبرز هذا النص كحاشية (ص 149): "الفكرة التي كونتها عن تقديم الحياة العضوية على سطح الكوكب - والفرضية يمكن أن تنطبق على الأماكن الأخرى التي استطاع الكائن الحي أن يتكاثر فيها هي أن النمط الأكثر بساطة والأكثر بدائية، خاضع لقانون يدير هذه الطريقة في التكاثر قد أدت إلى ولادة النمط الذي يقع مباشرة فوقه، وأن هذا الأخير قد أنتج بدوره بخطوات صغيرة - من نوع فقط إلى

سيلزم انقضاء خمسة عشر عاماً بعد لكي يقرر تشارلز داروين نشر فكره علانية، إلى أبعد من حلقة مراسليه المألوفين. ولن ينتقل إلى التنفيذ ويخرج عن هذا الصمت المنزوي إلا عندما سيكتشف أن ألفرد رسل والاس Alfred Russell Wallace[40] قد توصل في الجوهر، وبمعزل عنه، إلى الاستنتاجات ذاتها.

لكن ينبغي قراءة الرسائل التي وجهها حينذاك إلى معلميه السابقين وإلى أصدقائه. فقد كتب إلى السير ريتشارد اوين (Richard Owen) (1804 - 1892): "أرجو ألا يبدو ها الكتاب كريهاً بنظرك" وإلى آسا غراي (Asa Gray) (1810 - 1888) أحد معجبيه الأمريكيين والبروتستانتي المتحمس "استنتاجي الهرطقي بأن

نوع آخر، لدرجة أن الظاهرة اكتست دائماً طابعاً بسيطاً ومتواضعاً. كان نجاح كتاب (Vertiges ضلالات) كبيراً، ففي عام 1860 سنرى صدور الطبعة الحادية عشرة منه. ونفهم، أمام مثل هذا النجاح، لماذا انقض اللاهوتيون بكل ذلك الحماس، في حين أن الضعف العلمي للكتاب لم يكن بحاجة لدليل. (أنظر هربرت هوفنكامب: "العلم والدين في أمريكا 1800 - 1860 بنسلفانيا 1978 ص 196 - 197). ممكن أيضاً العودة إلى المقالة الرائعة R. Hooykas (التوازي بين تاريخ الأرض وتاريخ عالم الحيوان في الأرشيف الدولي لتاريخ العلوم 1957 عدد 10 ص 1 - 18).

[40] كانت المرحلة موضوعاً لعدد من الكتابات. فقد أراد البعض أن يرى في السلوك اللبق والذكي لداروين مثالاً على "الاستقامة" البريطانية. وقد قدمت دراسات حديثة تحليلاً لمضمون نصوص والاس ذاتها. ومع الأخذ بعين الاعتبار للمواقف التي تبناها تالياً، فإنه يُشك، بحق، أن اكتشافهما المشترك لا يستند مثلما كان يعتقد داروين، إلى تطابق كامل في الرؤى. انظر على الأخص كامي ليموج "الاصطفاء الطبيعي"، مذكور سابقاً ص 88 - 101. ويبدو أنه ربما قراءة تشامبرز هي التي قد تكون أفتحت Alfred R. Wallace للتخلي عن الثباتية. وقد سافر والاش إلى الأمازون عام 1847. وقد قاده اهتمامه بالبيوجغرافية للتساؤل هو أيضاً عن التوزع الجغرافي للمعلومات خاصة الحيوانية. وقد بين ليموج أن دراساته حول منقار الطيور كانت حاسمة: فقد اكتشف حينئذ أن التنوعات التي تقدمها هذه البنية لا يمكن إسنادها إلى أي "تكييف" مع العادات الغذائية. وهكذا فقد طرح للنقاش التصور الساند لـ "الاقتصاد الطبيعي". وبالاستناد إلى هذا انضم بطرقه الخاصة، إلى الأفكار النقدية لداروين وتظل هناك الكثير من التساؤلات والمساجلات بين المؤرخين لمعرفة كيف استطاع والاش التوصل إلى نص عام 1858 الذي وجهه إلى داروين والذي تعرف فيه هذا الأخير إلى نظريته الخاصة قائلاً "الكلمات ذاتها تقريباً". ويجوز للمرء التساؤل عن إمكانية اعتبار ذلك طريقة "لاعتراف زائف". انظر حول هذا الموضوع إحدى أوائل النصوص التي طرحت مثل هذا الاحتمال: جورج كانغويم "مبادئ "الصراع من أجل البقاء" و"الاصطفاء الطبيعي" عام 1858: شارلز داروين وألفرد رسل والاش"، باريس 1959، أعيد نشره في "دراسات في تاريخ وفلسفة العلوم"، باريس، فران 1968.

الأنواع يمكن أن تتحول سيوحي لك بالاحتقار حيالي". وإلى هيغ فالكونر (Hugh Falconer) (1808 - 1865) هذه الكلمات المذهلة: "سيدي، كم ستغضب إذا ما قرأته وكم ستكون لديك الرغبة بصلبي حياً!"[41].

نحن بعيدون هنا عن معاداة رجال الدين النضالية للمقلدين!! بيد أن وساوس ومخاوف وتعقل داروين لا تؤدي إلا إلى جعل إدراكه لبعض المترتبات الفلسفية لنظريته أكثر وضوحاً، وقد عانى جراء ذلك لدرجة إصابته بالمرض غير أنه لم يتخل عن مبادئ فكره. ألا يجب أن نغزو إلى التعقل ذاته، وبخلاف ما يعتقد البعض غالباً، واقع أن كتاب "أصل الأنواع" لم يتطرق إلى مسألة أصل الإنسان إلا عبر إشارة عابرة؟ ولم ينجز داروين هذه الخطوة فعلاً إلا بعد اثني عشر عاماً وذلك عندما نشر كتاب "نشوء الإنسان" La descendance de l'homme, Ernst Haeckl (1834 - 1919)، عند هذا التاريخ كان تلاميذه مثل هيكسلي ذاته وعالم الطبيعة آرنست هايكل قد سبقوه منذ زمن طويل، ولم يفت خصومه هم أيضاً أن يستبقوا نتائجه: وانطلاقاً من لحظة أن الحياة لم تعرف إلا تاريخاً واحداً، وأن الأنواع تتشكل وتتحول عبر انتقال غير محسوس فإن الإنسان لم يعد بمقدوره أن يكون ثمرة "خلق خاص" بل ينبغي ربطه بالرئيسات غير البشرية. ويعترف داروين لنفسه في مفكرة تعود لعام 1838: "لن أقتنع مطلقاً بان الإنسان، وبحجة وجود هوة بينه وبين الحيوانات قد كان له أصل مختلف". لقد انتصر القرد بالتأكيد على آدم!

الدفاع عن النظرية التي كان قد أعدها لم يكن سهلاً قط عام 1859. ليس فقط من واقع العداوة المتوقعة من طرف بعض علماء الطبيعة المسيحيين مثل سيدغويك، أو من اللاهوت المحافظ مثل المشيخي تشارلز هودج Hodge في برنستون، وإنما لأن مكونات فكرته كانت تقوم على حالة من التوازن الداخلي غاية في الدقة. فإذا ما شدد الإنسان على المقولة التطورية - تحول الأنواع - على حساب مفهوم "الاصطفاء الطبيعي"، وإذا تجنب بذلك "المصادفة" في التحولات، فإن التوازن سينفرط لصالح تفسير جديد غائي. وهو ما جرى فعلياً. فقد رأينا بعض

---

[41] راجع ج. مور 1979.

علماء الطبيعة المؤهلين وفق منهج اللاهوت الطبيعي يكاملون فكرة التقدم، الناجم عن ترقٍ أو عن نمو، في تصور الطبيعة التي كان الله "يقود" مسيرتها. والأكثر رهافة منهم، مثل الأمريكي أسا غراي وطنوا هذا التدخل الإلهي في القلب الغامض لسيرورة ظهور "التغيرات" التي اعترف داروين ذاته أنه يجهل محركاتها. كان هناك إذن، منذ عام 1860، في العالم الإنجلو ساكسوني، "نشوئيون مسيحيون" منتسبون إلى داروين ولاهوتيون مسيحيون مؤيدون للنشوئية، في مواجهة كل أولئك الذين مثل تشارلز هودج عام 1847 سيجيبون على سؤال: "ماهي الداروينية؟" بالقول: "إنها الإلحاد".

لكن بوسع المرء أن يجد، وفق القواعد ذاتها، وباستحضار اللاتوازن ذاته، نسخة علمانية لهذا التفسير: لقد نابت الطبيعة عن الله في توجيه التطور المذكور. وهكذا نجد أنفسنا أقرب ما نكون من نظرية لامارك. وإليكم ما حصل أيضاً في الحال: إن الكثير من "النشوئيين" الملحدين كانوا يدافعون منذ العام 1860 عن نظرية لم تكن في الواقع إلا نسخة مزيفة عن اللاماركية وهذه هي على سبيل المثال حال عالم الطبيعيات الكبير الألماني أرنست هايكل (Ernst Haeckel)[42]. ويمكن للمرء

---

[42] مازلنا نفتقد لدراسة تتصف بالتوسع حول انتشار وتأثير نتاج Ernst Haeckel على الفكر الأوروبي قبل الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك فهذا النتاج يشغل موقعاً هاماً كما أكد ذلك جاك روجيه في كتابه حول "داروين. هايكل والفرنسيون" في من *داروين إلى الداروينية*، مرجع مذكور ص 148 - 165. لقد انصرف هايكل، تلميذ عالم الفيزياء Johannes Müller في برلين بين 1854 - 1855، بعد عام 1860 لتقديم تفسير ميكانيكي لنشأة الأنواع الحيوانية والنباتية. وقد دمج التطور، كما فعل سبنسر، بنظرية التقدم. وبدءاً من عام 1863 بشر هايكل بإكمال الداروينية بتطبيقها على نشأة الإنسان. وقد انخرط داروين نفسه في هذا المسار في كتابه *أصل الإنسان* عام 1872. ثم عمل عالم الطبيعيات الألماني على وضع تطور الإنسان في تطور عام للكون. هذا المصنف الواسع سيجعل من هايكل أحد الكتاب الرائجين في فرنسا بعد عام 1871، وذلك قبل أن يجري فيها معارضة "العلم الألماني" بـ "العلم الفرنسي": وسيصبح مزاحموه علماء بيولوجيا "ماديين مثل لودانتيك أو ديلاج، ونعرف أن لينين رأى في هايكل أنموذجاً للعالم المادي بالذات (انظر كتاب المادية ونقد الفكر التجريبي 1908). بيد أن هايكل كان أيضاً الملهم لنظرة - رومانتيكية - جديدة ألهمت النازية، هذه النظرة تطوعت لخدمة هذه "الفلسفة للحياة" التي خدمتها كغطاء نظري. وقد وصل الأمر بهايكل نفسه إلى إدانة الطب، الذي بدل أن يشفي، يطيل ويسمح على حد قوله بانتقالها وراثياً لأمراض السل الرئوي والسل الكبدي والسيفلس والكثير من الأمراض العقلية. وأدان إلغاء حكم الإعدام لأنه يجب فعلاً "قلع الأعشاب الضارة" وهكذا اتهم هايكل الحضارة بمنع

أخيراً وبالعكس من ذلك، أن يشدد على "الاصطفاء الطبيعي" واعتباره الآلية الوحيدة المنظمة "للأصل"، في حين أن داروين نفسه كان قد أصر، شاعراً بالخطر، على توضيح أن عوامل أخرى تتدخل فيه (مثل الاصطفاء الجنسي، استخدام وعدم استخدام الأعضاء، توارث المكتسبات...) وهكذا رأينا ظهور تطوريين "ما فوق - اصطفائيين"، والبعض منهم مثل الفرد رسل والش ذاته بعد أن أكد أن هذا المخطط لا ينطبق بكل صفائه على الجنس البشري، استخلص منه فلسفة روحانية ستقوم بتجديد الصفة الدينية "للفجوة" التي تفصل البشرية عن الحيوانية، أما الآخرون فقد اتخذوا منه بعد أن وسعوا هذه الاصطفائية لتشمل الإنسان، حجة من أجل "تطبيع" السلوكيات الإنسانية واعتبارها محددة حصراً عبر "الصراع من أجل الحياة" و"البقاء للأفضل"؛ وقد تقدم أولاً السير فرانسيس غالتون (Francis Galton) (1822 - 1911) ابن العم الشقيق لداروين، عبر كتاب ذي منطق غريب، سرعان ما اتجهت لهجته نحو العنصرية والجنسية الأشد فظاظة. وقد لاقت نزعة "تحسين النسل Eugenisme" التي ابتدع اسمها، المصير المشؤوم الذي يعرفه الجميع. فقد اتخذ "الاصطفاء" فيها شكل القدر[43].

اللعبة المألوفة للاصطفاء الطبيعي. ومع ذلك فإنه لا يفقد الأمل ويعتقد أن الاصطفاء المذكور سيؤول إلى التفوق في كل مكان.

[43] ابتكر كلمة eugenics (علم تحسين النسل) Francis Galton (1822 - 1911) ابن عم داروين الذي يصغره بثلاث عشرة سنة، وقد عرّف جالك روجيه (علم تحسين النسل) على أنه "حركة سياسية، اجتماعية وعلمية نمت في العالم الغربي عند نهاية القرن التاسع عشر كرد فعل على وضع هذا العالم كما كان يبدو في ذلك الوقت، لكنها تتوافق مع إرادة أساسية لتطبيق البيولوجيا على القضايا الإنسانية" (انظر علم تحسين النسل 1850 - 1950 في ترتيب السمات *L'ordre des caractères* نصوص جمعها وقدم لها كلود بينيشو، باريس، Vrin 1989).

هل يدين غالتون لواقع أنه لم ينجب أطفالاً بهواه لمسألة الوراثة؟ هذا ما يعتقده بعض من كتبوا سيرته الذاتية. يبقى أن نشر كتاب *Hereditary Genius* (1869) وبعد ذلك بعشرين عاماً كتاب *Natural inheritance* (1889). وقد توصل فيه بسرعة إلى رفض نظرية وراثة المكتسب التي قبل بها ابن عمه. تتركز أصالته في أنه، من أجل برهنة نظريته استخدم أساليب إحصائية سمحت له ببناء "قوانين إحصائية للوراثة" و"الارتباطات العائلية" وقانون "الانكفاء إلى المتوسط" والتي ستتيح له تثبيت حدسه الأول: "لو أننا خصصنا لإجراءات تتعلق بتحسين الجنس البشري واحداً من عشرين من الاهتمام والنقود اللذين نكرسهما من أجل تحسين الخيول والأبقار، فأية كوكبة من العبقريات ستخلق! وسنكون قادرين

وقد حاول داروين على كل الجبهات الحفاظ على ما يمكن فعلاً تسميته "خطه"، بيد أن المحاولة بدت أصعب لاسيما وأن الكثير من جوانب نظريته ظلت هشة إما لأنها غير مكتشفة أو خاطئة، ودون شك لأن القواعد الفلسفية لفكره ظلت عصية على السيطرة.

تشارلز داروين في مأزق فلسفي

منذ أن صاغ نظرية "النشوء والارتقاء" ظلت فرضية. "فكرة" واعدة بمعنى أنها "ربطت إلى وجهة نظر معقولة كماً من الوقائع" بحسب التعبير الذي خطر له في رسالة موجهة في 22 أيار 1863 إلى د. بنتام. ومن هنا نبعت استراتيجية محترسة: لا تغامر أبداً مع الدعاية المعادية للدين المنتشرة هنا وهناك باسمه[44]. دون التنكر مع ذلك حتماً للقناعات التي توصل إلى وصفها هو ذاته بأنها "مادية". كذلك عدم رفض التحالفات الفلسفية التي عرضت عليه حينما يكون بمقدورها ربط فكره ببناء العلوم الفيزيائية القائمة. وهكذا فقد رحب بالمقدمات الفكرية للفيلسوف هربرت سبنسر (Herbert Spencer) (1820 - 1903)، الذي رأى من المناسب أن يمتدحه لمرتين في أعماله، في حين أنه لم يخف في مجالسه الخاصة أنه لا يكنّ له إلا تقديراً متواضعاً. بأكبر قدر ممكن مع اللاهوتيين وعلماء الطبيعة المتدنيين،

على خلق أنبياء وشعراء كبار للحضارة". وكان غالتون مقتنعاً أن اليوجينية كانت مدعوة لأن تصبح "الدين الجديد" لكل الشعوب المتحضرة. وقد وجد في كارل بيرسون تلميذاً متحمساً، وكان عالم رياضيات، ومناضلاً اشتراكياً ونصيراً للحركة النسوية. وقد أسسا معاً مجلة بيومتريكا عام 1902. وقد شغف بيرسون بمسألة قياس ورقة الذكاء. في عام 1907 أنشأ جمعية التربية اليوجينية، التي حذرت من الخطر الذي سيشكله على "الأكثر جدارة" - أي الإنكليز - الكاثوليك الإيرلنديون، واليهود، والبولونيون، والألمان، ومدمنو الكحول والمعتوهون، الذين ينجبون أطفالاً دون قيد". في الولايات المتحدة كانت الحركة اليوجينية قوية جداً، كما سنرى. في ألمانيا - نمت الأنتروبولوجيا العنصرية - بسرعة في الجامعة بعد عام 1918. في عام 1935 طالت حملة تعقيم إجباري 350 ألف شخص وفي عام 1937: "توجب صياغة قانون لرفع الظلم عن الطبيعة. فالطبيعة كانت ستميت من الجوع هذا المخلوق العاجز عن العيش. وسنكون أكثر إنسانية ونسهل له سبل موت رحيم ودون ألم. هذه هي الإنسانية الوحيدة التي يمكن ممارستها مع أمثاله.."

[44] انظر مقالتي "عن مراسلة مختلفة"، مذكور سابقاً.

مثلما فعل مع الأمريكيين أساغراي، وحتى تشارلز هودج أو مع مستشاره وصديقه القديم جون س هينسلو (John S. Henslow).

هذه الاستراتيجية ستكون لها نتائج مختلفة بحيث أن بعضاً منها بدا في المحصلة مثيراً للأسى لأنه سمح بأن تقوم "تشوئية" ما بفرض نفسها على الوسط الفكري على قاعدة من التناقض، والذي تجدده خفية الغائية ذاتها التي أراد داروين محاربتها سابقاً. إن مفكراً ومهما علت مرتبته لن يكون بمقدوره مع ذلك السيطرة على مداخل ومخارج فكره الخاص. إن لفظة "الخط" أي "الاستراتيجية" لا تعبر إلا عن جزء من حقيقة هذه المأساة. إذ يبدو أن داروين تابع الاستناد إلى المسلمات الفلسفية التي فرضها عليه طموحه بأن يصبح "نيوتن البيولوجيا" الذي لم ينجح لابيفون ولا كيفييه في أن يكوناه: وبعد أن رفض ترسيمة باليي حول "اللاهوت الطبيعي" فإنه لم يجد في الفلسفة المعاصرة تصوراً "للعلم" يمكن أن يوفّق ما بين فكرته عن الطبيعة التي استمدها من أبحاثه وبين المثل الأعلى العلمي الذي كان قد تبناه.

وقد عبر داروين عن تقديره لعملين معاصرين كبيرين واللذين أعلن أنه يدين لهما "بفلسفته": كتاب جون هيرشل (John Herschel) (1792 -1871)، الابن الموسيقي، وعالم الرياضيات وعالم الفلك وليام هيرشل الشهير (1738 - 1822) المعنون بـــ:.Preliminary discourse on the Study of Natural Philosophy (1830) وكتاب لأحـــد معلمي ترينتي كوليـــج في كامبريدج هو وليام ويويل (William Whewell) (1794 -1866) الذي قام عام 1840 بعد أن نشر كتابه الهام " History of Inductive Sciences" بتقديم مغزى قصة هذا التاريخ تحت عنوان[45]: " The Philosophy of

---

[45] يشير العنوان Preliminary discourse إلى دالامبير. وكان يشكل المجلد الأول من المجموعة الشهيرة Cabinet Cyclopaedia للمحترم ديونيسيوس لاردنر حيث يُذكر فيها أنه "كان يساعده رجال أدب وعلم بارزون". على صفحة الوقاية تظهر لوحة نصفية لفرنسيس باكون. ويتكون نص بداية الكتاب من الحكمة الأولى الشهيرة من الجزء الثاني من *Novum Organum*: "إن الإنسان، خادم ومفسر الطبيعة، لا يوسع أعماله ومعارفه إلا بقدر ملاحظاته، عبر الأشياء أو عبر الذهن، حول نظام الطبيعة؛ وهو لا يعرف ولا يستطيع أي شيء أكثر من ذلك". (ترجمة ماليرب). كُتب مؤلف ويليام ويويل (1794 -

Inductive Sciences founded upon their history" وهذان الكتابان يعلنان تشفعهما بباكون، لكن من زاوية العودة إلى المنابع بالنسبة للأول والتجديد بالنسبة للثاني. ولا مجال للشك في أن داروين قد استمد من هيرشل على الأخص إعادة التأكيد الواضح جداً لاستقلال العلم حيال الدين[46] والذي يفتتح به كتاب Discourse. ونحن نعرف ما الذي قدره داروين عند ويويل، لأنه اختار مقطعاً من كتابه من أجل بناء أول نص في بداية كتابه أصل الأنواع: "نستطيع، فيما يخص العالم المادي، الذهاب على الأقل حتى الاستنتاج بأن الوقائع لا تحصل نتيجة لتدخل معزول للقدرة الإلهية، المتجلية في كل حالة خاصة، وإنما نتيجة لفعل قوانين عامة". إن هيرشل لم يقل شيئاً مغايراً في تحليله التاريخي واللغوي الرائع لتعبير "قانون الطبيعة" الذي يظهر في الفصل الثالث من كتابه[47].

1866) (مجلدان ضخمان) بناء على اقتراح من آدم سيدغويك، وقد شكل ويويل مع هذا الأخير واحدة من المظاهر المؤثرة في Trinity College في كامبريدج. وهو ابن نجار عمارات، انتسب إلى Trinity عام 1812، ليصبح أحد مؤسسي "جمعية كامبريدج الفلسفية". كان صديقاً لجون هيرشل وشارل بابباج، وقد نظم في الجمعية "وجبات إفطار فلسفية". وقد كرس نفسه في البداية للرياضيات، وكان شغوفاً في الوقت نفسه بالهندسة الدينية: شغل بعد ذلك عام 1828 كرسي علم المعادن الذي شغر بعد هينسلو. وقد أنجز أبحاثاً مدونة حول المد والجزر أكسبته وساماً ملكياً عام 1837. يستند كتابه الفلسفي إلى نتاج علمي ضخم. وقد قدمه صراحة على أنه *Novum Organum* جديد في قامة علوم عصره.

[46] الفصل الأول يشكل، وفق أسلوب غنائي، "دفاعاً وإبرازاً" للنشاط العلمي في مواجهة "العقول الضيقة" التي تقدح به بادعائها أنه "يبذر الشك حول خلود الروح ويجلبه الدين المنزل". ويأخذ بقوة على هؤلاء "المتحاذقين الذين يودون من الطبيعة أن تتحنى أمام تفسيراتهم الدنيئة لمقاطع غامضة وصعبة من النصوص المقدسة". إنهم متعصبون وليسوا أفضل من مضطهدي غاليلي! لكنه يتوجه على وجه الخصوص إلى العلماء الشرفاء الذين يساهمون في تقديم العلوم، لكنهم "يبتهجون ويصفقون حينما يبدو لهم أن اكتشافاً ما يؤكد تلميحاً ما في الكتاب المقدس. ويشعرون بالألم والإحباط حينما تبتعد السيرورة العلمة للاكتشاف في ميدان ما عن تلك المقاطع الخاصة من التوراة التي أثرت بهم" (الفصل الأول ص 1 - 18).

[47] اقترح هيرشل إعادة تعريف لـ "قوانين الطبيعة" إن فكرة القانون ذاتها مأخوذة بمعناها القانوني الأصلي "مشتملة على فكرة الاحتمال". إن كل قانون يمثل تنبؤاً بالحالات التي يمكن أن تحصل إلى جانب الحالات التي لم تحصل أبداً ولن تحصل أبداً. حينما يتحدث المرء إذن عن "قوانين" الطبيعة وعندما، قياساً على ذلك، يرى في الله خالقاً، لهذه القوانين (المشرع) ينبغي بداية الاعتراف بأننا لا نمتلك إمكانية الوصول إلى عملية التشريع بوصفها كذلك - الخلق. إن كل ما يستطيع المرء افتراضه، هو أن الخالق قام في الأصل بتزويد المادة بسمات أولية غير قابلة للتبدل وأنه طبع عليها روح قانونه وليس حروفه.

يمكننا الافتراض فضلاً عن ذلك أن حرب ويويل الكلامية دون كلل ضد "حسوية" تلاميذ جون لوك[48] قد وافقت تماماً واردين. ألم يكتب هو ذاته أنه "من أجل أن تكون مراقباً جيداً ينبغي أن تكون منظراً جيداً"[49].

ويمكن للمرء مع ذلك أن يدهش لأن داروين يمنح بذلك مكاناً رمزياً لكتاب كان قد نشر على أنه المجلد الأول من مقالات Bridgewater الشعبية التي كان هدفها المعلن الدفاع عن الدين[50] كيف لا نلحظ فوق ذلك أن ويويل كان قد أهدى كتابه إلى المحترم آدم سيدغويك، ناقد روبير تشامبرز (Robert Chambers) (1802 - 1871) والذي تكرّس كواحد من أحدّ معارضي.. أصل الأنواع.

لندع إذن للاهوتيين التنظيرات حول مسألة الخلق، ولنكتف نحن إن كنا علماء، بمحاولة تفكيك الحروف التي تقدمها لنا الظواهر بقصد، إذا أمكن ذلك، فهم روح القوانين التي تشملها. فإذا ظلت بعض الحروف غير مفهومة من قبلنا، فلنجازف بتأليف كلمات تشتمل عليها وتأخذ معنى وتمثل أكبر عدد ممكن من الظواهر المختلفة. إن الموقف المعلن من قبل داروين فيما يتعلق بأصل التغيرات التي يجري عليها الاصطفاء يبدو مستوحى مباشرة من قبل مثل هذا النص.

[48] يرى ويويل الذي قرأ كانط ويرجع إليه أحياناً أن فلسفة لوك تمثل خيانة للمثل الأعلى الباكوني. وتبدو له نهايتها الأكثر فجيعة متمركزة في وضعية أوغست كونت التي كرس لها فصلاً فلسفياً جداً في الطبعة الثانية من كتابه (1847) بعد أن كان قد قرأ الجزءين الأولين من (*cours de philosophie Positive*) "دروس الفلسفة الوضعية" وقد قدم ويويل بياناً بكل الأخطاء العلمية لكونت - على الأخص أحكامه في الفلك على كيلر وعلى تقديره الإجمالي للكيمياء التي حكم عليها بأنها ليست علماً - ثم قدم دفاعاً مؤثراً لصالح "الميتافيزيق" بوصفها جزءاً مكوناً من سيرورة الكشف العلمي. وبخلاف الفكرة الكونتية الواسعة الانتشار بأن العلم قد يهمل سؤال "السبب" في الظواهر للاكتفاء بسؤال "الكيفية"، ويؤكد أن تقدم العلوم قد أنجز دائماً عبر البحث ليس فقط عن الحالات المنظمة وعن القوانين لكن أيضاً عن أسباب الظواهر المدروسة.

[49] مثل هذه التصريحات وتلك الإحالات ستزول في النهاية إلى تدمير الأسطورة التي تقول إن داروين بوصفه إنكليزياً مخلصاً، كان من الممكن أن يصبح تجريبياً. إذ يبدو تفسير الملاحظات التي أجراها من على ظهر مركب "البيغل" تماماً كتفسير، وفوق ذلك أجرى بعد فوات الأوان، وما كان لهذه الملاحظات أن تأخذ معناها المدمر إلا في إطار نظرية قيد الإعداد.

[50] هذه *Bridgewater Treatises* التي لاقت نجاحاً كبيراً عرفت بهذا الاسم لأنها كانت تدار من قبل الكونت بريدجووتر الذي قدم قبل وفاته عام 1929 هدية من 8000 كتاب بقصد تحقيق تمثيل لعلوم العصر الذي سيظهر "قوة، وحكمة وطيبة الله". ثمان مقالات نشرت وتتعلق بالفيزياء، والعلوم الطبيعية، وعلم التشريح البشري وكذلك علم الفلك. وقد نظر إليها على أنها طريقة إجابة إنجليزية على تأليهية بيير - سيمون لابلاس.

بيد أن عدم ثبات الموقف الفلسفي لداروين يتبدى أكثر وضوحاً حينما نراه، في الطبعات الأخيرة من كتابه الرئيسي يضيف إلى نصوص ويويل وباكون التي كانت موجودة في الطبعات الأولى، مقطعاً مستمداً من كتاب لصامونيل بيتلر يحمل عنوان L'Analogie de la religion révéllée: "إن المعنى الوحيد المحدد لكلمة طبيعي هي خاصية أن يكون ممكناً، ثابتاً، مستقراً؛ إذن فإن كل ما هو طبيعي يستلزم ويفترض فاعلاً ما ذكياً لكي يجعله كذلك، أي لكي يعيد إنتاجه باستمرار أو وفق مدد محددة، في حين أن كل ما هو فوق طبيعي أو أعجوبي ينتج مرة واحدة أو دفعة واحدة".

يبلغ الغموض هنا مداه. فعلى السؤال الحاسم عن وضع "قوانين الطبيعة"، فإن نص بيتلر بإحالته إلى "فاعل ذكي" إنما يصلّب الدرع اللاهوتي لنص ويويل. ولا يمكن أن ينسجم مع نص هيرشل، على الرغم من التمسك بثبات واستمرارية السيرورات الطبيعية... إن مؤلف أصل الأنواع لم يخلص، بقدر ما كان يعتقد، إلى حل مع الغائية[51]. ويمكن للمرء دون ريب أن يوضح بذلك مسألتي تفسير تشكلان منذ مدة طويلة صليب مؤرخي الداروينية.

إن الأهمية السياسية لهاتين المسألتين بدت خطيرة جداً لدرجة أنها تستحق التوقف عندها. لقد رأينا كيف أن داروين قد استلهم النشاط التاريخي للمربين والبستانيين لتبرير المفهوم الجديد لـ "الاصطفاء الطبيعي". لكنه أدخل بذلك في التعبير نفسه الذي يحدد مفهومه الأساسي الغائية التي استحدث هذا التعبير لمواجهتها! وقد حذر قراءه من سوء الفهم هذا. فهل ينبغي إذن وكما يقترح بعض المؤرخين الذين يريدون أن يكونوا داروينيين أكثر من داروين، حصر هذه الإحالة إلى النشاط البشري وذلك بسبب تماثل بسيط مخصص "ليصبح مفهوماً"، أو أيضاً بحسب كلمته في النص الوارد أعلاه "من أجل أن يكون موجزاً"؟ إن نصوصاً

---

[51] بينت إيفيت كونري هذه "العودة" للغائية في كتاب *أصل الإنسان*، هذه العودة العلانية يمكن اعتبارها إلى جانب دلائل أخرى علامة إصرار. أنظر إ. كوندي "كانون أصل الإنسان والاصطفاء الطبيعي" في من داروين إلى الداروينية، باريس، فران 1983.

عديدة لداروين تدعونا إلى ذلك: فدفاتره، حينما تقيم علاقة بين أنواع مدجنة أو مزروعة وأنواع في حالتها الطبيعية، تُعنى دائماً بالتمييز فيما بينها. إن هذا التماثل لم يكن ليلعب نهائياً أي دور في تشكيل نظريته ويمكن اعتباره زلة قدم محزنة جداً في عرضه المخصص للجمهور الواسع.

يبقى أن داروين قد تمسك بعبارة "اصطفاء" التي توحي بالعمل الإنساني. أفلا ينبغي أن نعزو هذا الإصرار إلى مقولة أن مثل هذا الانتخاب "يصحح" عشوائية التبدلات؟ أليس هذا إيحاء بأن الطبيعة في النهاية كانت تعمل دون أن تعرف ذلك، من أجل خير النوع، أي تكيفه الأفضل الممكن مع شروط الوسط؟ لقد استبعد داروين كما قال هو ذاته الغائية تحت شكل عنصر خارجي مشخص، إن لم يكن مؤلهاً، لكنه ألم يعد لإدخال الغائية مؤقتاً إلى قلب نظام آلية ما يأمل منها أن تُظهر يوماً إلى أية "قوانين" تخضع في عملها؟

أما الصعوبة الثانية فتتعلق بإعلان داروين أنه طور مفهوم "الاصطفاء الطبيعي" نتيجة قراءته لكتاب "An Essay on the Principles of Population"، الذي صدر دون اسم المؤلف عام 1798 وينسب إلى ريشة الكاهن والاقتصادي توماس روبيرت مالتوس (1766 - 1834)[52]. ومن المعروف أن هذا الكتاب يتضمن إيضاحاً لمقولة قدمها المؤلف كما لو أنها "قانون طبيعي": "الاتجاه الثابت لدى كل الكائنات الحية لتنمية نوعها أكثر مما تقتضيه كمية الغذاء الموضوعة تحت

---

[52] هناك تفسيران متناقضان كلياً لهذا "الدين": تفسير كامي لبموج، مصدر مذكور ص 80 ومتفرقات عن بيير، بول غراسيه *الإنسان قيد الاتهام* L.homme en accusation، باريس، ألبين ميشل 1980 ص 17 ومتفرقات). ويورد غراسيه المقدمة في الطبعة الثانية من *الأصل* 1860: في الفصل القادم سوف ندرس *الصراع من أجل الحياة* بين الكائنات المنظمة في العالم أجمع كما ينجم حتمياً عن قدرتهم الهندسية تماماً على النمو. وهذا تطبيق لنظرية مالتوس على مملكة الحيوان وعلى مملكة النبات بكاملها" وكان لفرانسوا جاكوب في كتابه (*La logique du vivant*) باريس، غاليمار 1970، الفضل في تحريك السؤال، لكن ذلك كان مقابل استنكار جريء: ربما وجد داروين عند مالتوس مفهوم "السكان" مدعواً إلى المستقبل الذي نعرفه في التاريخ بعلم الوراثة، وعلى الرغم من أنها حجة متألقة جداً فإنها لا تبدو مؤكدة من خلال قراءة نصوص داروين، الذي لم يستخدم هذا المفهوم نهائياً.

تصرفهم". وقد استمد المؤلف من هذا "القانون" توقع زيادة سكانية سريعة لكوكب الأرض؛ فطالب بالتالي بتحديد النسل عبر العفّة (وعبر تأخير سن الزواج). وقد اتهمت فلسفة مالتوس السياسية بممارسة "لا إنسانية". فقد أوصى في الحقيقة بإلغاء القانون الإنجليزي القاضي بمساعدة الفقراء. "ألا ينبغي في الواقع، تجنب إنجاب أولئك الذين لا يستطيعون الإنتاج؟ "وهذا هو الأمر الذي لم يساعد، هذا أقل ما يمكن قوله، في توضيح ما استطاع داروين أن يعتبره موضحاً جداً بالنسبة له في هذا الكتاب. وقد أراد المؤرخون الذين آمنوا ببلادة بـــ "الأصولية الداروينية" تبرئته من خطيئة الاستناد إلى مثل هذا المرجع.

ليعقل أن مفكراً "تقدمياً" بقامة داروين، يمكن أن ينهل من كتاب رجعي شديد الفظاظة؟ وقد توصل كامي ليموج، وهو شخص حذر جداً، من ذلك إلى القول إن مالتوس ما كان سيلعب أي دور آخر في سفر تكوين *الأصل* إلا بتقديم تعبير أشد تأثيراً، وأشد فعالية لإحدى مقولات كاندول الذي كان قد بيّن "شدة الصراع من أجل البقاء، وتأثيره القاهر على الأحياء".

على العكس من ذلك فقد استفاد ماركس وأنجلز من هذا الاقتباس من أجل توجيه اللوم له: داروين لم يفعل أكثر من أن نقل إلى الطبيعة السمات الأكثر وحشية للرأسمالية الإنكليزية الوليدة. لذلك اقترحا تنقية الداروينية من فكرة "الاصطفـــاء الطبيعي" المستعارة من مالتوس. وسيستطيع ليسينكو وأقرانه عام 1948، وبناء على هذه النقطة، التسلح بنصوص مقدسة من أجل إعادة بناء علم وراثة "بروليتاري" جديد[53].

تتكشف الطريقة في الحالين، عن نظرة أخلاقية لتاريخ العلوم وعن ممارسة مدرسية لتفسير النصوص: فقد استحضر البعض بعض النصوص من أجل أن

---

[53] انظر ماركس وأنجلز *رسائل حول علوم الطبيعة* ج. ب. ليفبر، منشورات سوسيال 1974، حيث سنلاحظ أن طرح بير - بول غراسيه يتطابق حول هذه النقطة مع طرح ماركس، بالنسبة للفلسفة التي لم يظهر حيالها أي محبة أصلاً. وقد حللت في كتابي ليسنكو (مذكور سابقاً) تكتيك الأكاديميين السوفييت حيال داروين.

يمحوا بها نصوصاً أخرى، "ولجأ الآخرون باسم الديالكيتك، إلى شكل من الرقابة بمفعول رجعي. إن داروين لم يكن شديد السذاجة لكي لا يفهم المغزى السياسي لنظرية مالتوس. فمن المعروف أن مفاهيمه وممارسته كانت معارضة تماماً لتوصيات ذلك الاقتصادي: فقد واظب بانتظام حتى أيامه الأخيرة على أن يقدم عبر كنيسته هبات مخصصة للفقراء - وهي ممارسة أدانها مالتوس صراحة! - ومع ذلك، فقد حرص على ذكر دينه له بعبارات بعيدة عن كل لبس.

ألا يبدو الاقتباس من مالتوس هو أيضاً فلسفياً؟ "فالغائية الداخلية" لمفهوم الاصطفاء التي تخالف عشوائية التبدلات باتت تستند إلى "قانون"، وهو فوق ذلك قابل للتعبير عنه بمصطلحات رياضية! وبما أن هذا القانون، فوق ذلك، يتعارض مع كل رؤية "انسجامية" مسبقة للطبيعة فقد تلقاه بحماسة.

لقد سقط داروين في حبائل "أبيستمولوجيته" في إبان إعداده لفكره العلمي... سوف نكتشف النتائج الهامة لهذا المأزق. فتاريخ ردود الأفعال المفرطة في عدائيتها للداروينية يجد تفسيره في المواقف المتخذة الدينية والسياسية الدوغمائية والمتعصبة، وفي الأخطاء التي ارتكبها بحق النظرية الداروينية النشوئيون، الذين صبوا الماء بدورهم هم أيضاً في طاحونة الدوغمائية وعدم التسامح. وربما تتعلق هذه الأخطار الجسيمة والمواقف المتخذة مع ذلك وفي التحليل الأخير، بما لا نزال نحن اليوم أيضاً بانتظاره من هذا التصور "للعلم" الذي لم يستطع داروين، ابن عصره، كما لم يستطع مناصروه المبهورون أو السذج، اكتشافه.

_ III _

اللاهوت الطبيعي والأصولية

أمريكا الإيكوسية

لن يظل "اللاهوت الطبيعي" لمدة طويلة العادة السيئة للمثقفين البريطانيين فإنه أمر لا يثير أدنى الشك. لكن الولايات المتحدة، في هذه اللحظة بالذات، لم تظهر رغبتها بالاستقلال إلا بالمزايدة على زوجة الأب. وقد ظل المسرح الفكري ظاهرياً هو ذاته. حيث سنجد فيه البطلين العتيدين ذاتهما: فرنسيس باكون وإسحاق نيوتن. وسيلاحظ المرء محقاً ثمة انمحاء خفيف الثاني قياساً بالأول. ويظهر عمله بانتظام في الواقع كما لو أنه مصادقة بسيطة على صحة مفاهيم المستشار.

ويحتفى به في الواقع لأنه قاد إلى النجاح "الأعمال التطبيقية" التي فات باكون إنجازها لنقص في الوسائل العلمية المناسبة.. وهكذا أمكن الحديث عن "أسطورة باكون" بوصفه مؤسس الفلسفة الأمريكية الخالصة. وهذا يجد ما يبرره، بشرط ملاحظة أن الأمر يتعلق فعلاً بأسطورة: إن فلسفة باكون قد تتكرت خلالها تحت شكل إعادة تفسير حملتها لها النظرة الغائية للطبيعة التي بناها تلاميذ نيوتن الإنكليز. هنا أيضاً، يبدو أننا لم نغادر إنجلترا.

بيد أن هذا الإخراج الفلسفي ظل حتى سنوات 1860 ليس بين يدي الفلاسفة وإنما رجال اللاهوت الذين رعوا الاعتقاد العميق بأن علوم الطبيعة يمكنها ليس فقط التوافق مع اللاهوت البروتستانتي بل تمتزج به حقيقة. وهذا ما أدخل أكثر من فارق بسيط: فقد صار هدفهم بسرعة كبيرة تحويل اللاهوت إلى علم حديث. والاستقبال الفريد الذي خص به كتاب داروين لا يمكن أن يفهم دون الاستناد إلى ما اتفق عدة مؤرخين على تسميته "بشهر العسل" بين الإنجيلية الأمريكية وعلم عصر الأنوار خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

لكن إذا ما كان الشخص طُهري طيب فإنه لا يسعه تخيل "شهر عسل" دون زواج مسبق وفق الشكل الديني الصحيح واللائق. وهنا سنكتشف رئيس تشريفات غير متوقع، شديد اللطافة والحذر لدرجة أن لا يُلحظ غالباً: إنه فيلسوف إيكوسي من القرن السابق! ويمكن دون مجازفة كبيرة بالوقوع في الخطأ تحديد يوم وصوله إلى الولايات المتحدة[1] في 7 آب 1768 وهو اليوم الذي وصل فيه جون ويذرسبون (Jhon Witherspoon) قادماً من أوروبا، مع زوجته إلى جامعة نيوجرسي في برنستون.

وقد استدعي إليها هذا القس الممتاز من أجل تقويم حالة كارثية نجمت عن الانقسامات التي هددت تهديداً خطيراً جداً وحدة الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة، فقد فرقت، منذ اليقظة الكبرى "Le Grand Réveil"، التي حدثت قبل خمسة

---

[1] القصة المفصلة لهذا الوصول قدمها هيربرت هوفنكامب في كتابه الهام: "العلم والدين في أمريكا 1800 – 1860"، *Science and religion in America 1800 – 1860* الصادر عن منشورات جامعة بنسلفانيا عام 1978. وسأعود إليه أكثر من مرة في هذا الفصل حتى لو كان قصده الفلسفي الكبير كغاردي الذي يصعب أساساً تمييزه تحت ركام الوثائق المعروضة من قبل المؤرخ، لا يتوافق حقاً مع القصد الذي يحرك الصفحات التي نحن بصدد قراءتها. الفصل الخامس من كتاب جورج م. مارسون *Understanding Fondamentalism and Evangelicalism*، الطبعة الثانية، منقحة، غراند رابيدس 1991 المكتوب بأسلوب أكثر رشاقة وجزماً، يمكن الرجوع إليه والاستفادة منه، فقد جرى التوسع في مقارنة البروتستانتية الأمريكية بنظيرتها الأوروبية وعلى الأخص الهولندية، بيد أن دور الفلسفة الإيكوسية فيها كان موضوع تحليل سريع جداً. من أجل تفاصيل أكثر يمكن الرجوع إلى كتابه الكبير: *Fundamentalism and American Culture: The Shaping of twentieth century evangelicalism 1870 – 1925. Ny. 1980.*

وعشرين عاماً، نزاعات عنيفة بين أعضائها في الواقع وأدت إلى قسمها إلى معسكرين لدودين: أحدهما مؤيد لحركة "الانبعاث revivaliste" الديني، والآخر معارض بشدة للاعقلانية *الانبعاثيين* لدرجة مواجهة احتمال التحاقهم بصفوف الانغليكانيين!

سينجز ويذرسبون مهمته بأسلوب رائع. فقد أصلح الوضع المالي للمؤسسة، وأصلح التربية، وأعاد تكوين المكتبة. لكنه على الأخص، وهذا ما سيكون له نتائج عميقة، صالح ما بين الخصوم معتمداً على الدرس الذي قدمه معلمه الروحي، الفيلسوف الإيكوسي توماس ريد (Thomas Reid) (1710 - 1796)[2] ستقوم الحجة على أرضية فلسفية ولن تعوزها القوة: لقد نصب في مواجهة المعسكرين خصماً قادراً على توحيدهما: تشكيلكية دافيد هيوم (David Hume) (1711 - 1776) التي وصفها بالنتيجة الكارثية لتجريبية جون لوك (John Locke). وعلى غرار لوك، فإن اعتبار أن ذهن الإنسان يبدو عند ولادته مثل "لوح مصقول" خال مطلقاً من أية فكرة، يعني إدخال سوء فهم رهيب حول مفهوم الفكرة ذاته. فاللفظة لها في الواقع استعمالان متمايزان: إما أنها تعني "فعل" الشخص الذي يركز انتباهه على غرض خارجي - مثل حينما نقول "كوّن فكرة" - وإما أنها تحدد هذا الغرض ذاته. لقد ارتكب لوك، كما بيّن ريد، خطأ فهم كلمة "فكرة" في معنى ثالث يمزج المعنيين الأوليين، عبر إخفاء الغرض الخارجي، لأنه قصد بكلمة "فكرة" "صورة" للأغراض الخارجية. وفي هذه الشروط، ألن يصبح مجرد لعب أطفال في نظر هيوم، الاعتراض على لوك بأن لا وجود قطعاً في الواقع "لأفكار" عن "الأشياء"، وإنما فقط أفكار عن الأفكار. لقد استخدم ريد البرهنة ذاتها، في السياق ذاته، من أجل دحض النظرية "اللامادية" للأسقف الإيرلندي جورج بيركلـــي (George Berkeley)

---

[2] Thomas Reid 1710 - 1796 الذي كان يعيش في أبيردين، نشر: *Enquiry into the human. Mind on the Principles of Commun Sense, 1764* بمثابة رد على تشكيكية مواطنة دافيد هيوم الذي كان يكبره بعدة سنوات. ويتردد العنوان ذاته كرد على كتاب *Inquiry on human understanding 1748* لمواطنة اللامع. وقد عاد عليه نجاح الكتاب بتبوء كرسي الفلسفة الأخلاقية في جامعة غلاسكو.

(1685 - 1753) الذي قدم نفسه على أنه تلميذ أصولي للوك ومنه استمد النظرة للميتافزيق على أنه شطط محض[3].

وقد تذرع قائد المدرسة الإيكوسية بالحس السليم من أجل إعادة تأكيد أنه يوجد خارج الذهن البشري تماماً صخور، وكائنات حية، وأطفال صاخبون.. إنه يدافع إذن عن "الواقعية": "حينما أدرك شجرة أمامي، فإن حاسة البصر عندي لم تعطني فقط مفهوماً عن الشجرة المدركة وإنما الإيمان بوجودها... هذا الحكم أو الإيمان لم يحصل عليه عبر مقارنة الأفكار بعضها ببعض، فهو متضمن داخل الإدراك ذاته".

هذا الإيمان يتعذر التحقق منه. وقد تغلب هيوم على لوك في هذه النقطة: إذ إن أي برهنة منطقية لا يمكنها أن تثبته. لكنه يُوحى إليَّ عبر إحساس يفرض ذاته عليَّ. وقد حرص ريد جيداً مع ذلك على عدم الوصول إلى موقف ديكارت: فهو لا يريد مطلقاً القول بأنه توجد داخلنا أفكار "فطرية"؛ لذلك ظل تجريبياً، كما أنه لم يؤمن كذلك بأن الذهن يمكن أن يبني من قطع متفرقة، عبر العمل المنتظم لحواسه، معارف جديدة. واقترح أن الذهن لكي يعرف العالم الخارجي يربط بنشاط عبر قدراته ما بين معطيات تجريبية متناثرة ويكتشف الروابط فيما بينها - هذه الروابط التي يحددها على أنها "مبادئ واضحة بذاتها"[4].

---

[3] ولد George Berkeley في إيرلندا عام 1685. كان خبيراً بنتاج الفريد السيد نيوتن، وقد قرأ خلال دراسته الكتاب الشهير لجون لوك *Essay concerning human understanding 1690* وقد صاغ في مرحلة مبكرة من العمر نظريته التي تقلب بطريقة ما لوك ضد نفسه. ونشر بدءاً من عام 1708 *Essay Towards a new theory of vision*، وفي السنة التالية نشر *The principles of human Knowledge*. وقد عرض ج. بي وارنوك في مقدمته لهذا الكتاب الأخير (لندن 1962) خطة بيركلي على النحو التالي: "لقد كان مشغولاً بصفة أساسية بالتغلب على ما كان يعتبره ميول عصره نحو الإلحاد واللاأدرية، وقد صُدم لأنه كان يرى ما يشبه الريبة قبالة الإدراك السليم *Commun sense*. وأخيراً فإنه كان يمتلك نظرته الخاصة عن الطبيعة التي حاول أن يعارض بها التصور "العلمي" للعالم الذي كان يحرز التقدم في كل يوم". وكان كل نقاشه، كنقاش ريد فيما بعد، ينصب على التصور الذي قدمه لوك عن "الأفكار". وقد توصل بيركلي، كما نعرف، إلى دحض مفهوم "المادة" على ذات قاعدة تجريبية لوك: إن الله هو علة أفكارنا.

[4] سوف نرى أن هذا التعبير، سوف يعود سياسياً، تحت ريشة محرري إعلان الاستقلال ومن المثير أن المؤرخين، وسوف نرى لاحقاً، لم يبحثوا عن أصله الإيكوسي.

وهذا ما يعني، يهتف ريد، إعادة إدخال الإيمان في المعرفة، لكن ليس ضمن بعد تشكيكي كما ارتكب هيوم خطأ القيام بذلك. ويمكن التعرف مع نظرية الحس السليم إلى ثلاثة مصادر للمعرفة: العقل الذي يقيم الصلات بين الأفكار، الطبيعة التي توفر هذه الأفكار، والرؤيا المتضمنة في الكتاب المقدس التي تقدم لمن يريد فعلاً الانفتاح عليها معرفة أكيدة.

ويغدو مفهوماً كيف اختطف الإنجيليون الأمريكان - وليس فقط مشيخيو نيوجرسي وحدهم، - هذه النظرية -. فقد صالحت ما بين الإيماني والعقلانية.

لقد علمتهم قناعاتهم الطهرية من قبل أن الطبيعة والكتاب المقدس يجب اعتبارهما الطريقين اللتين يخاطب عبرهما الله الإنسان مباشرة. وقد أكمل توماس ريد على يدي جون ويذرسبون (Jhon Witherspoon)، تعزيز هذا الاعتقاد، عبر إدراجه في المناقشات الفلسفية الأكثر حداثة. ألم يكن ثمة شيء من المكر في الاعتماد على فيلسوف إيكوسي من أجل مهاجمة الفيلسوف الإنكليزي الأشد دلالاً - جون لوك؟ ودون حساب إصابة عصفورين بحجر واحد حيث أنه تمّ عبر مفكر بروتستانتي، وخائن لأصوله، استهداف دافيد هيوم الذي ارتكب خطيئة عشق فرنسا اللامتدينة.

وقد بات بالإمكان القول إن هذا "الالتحام" بين فلسفة ريد وبين القراءة الأمريكية للكالفينية قد حدد "أرثوذكسية"[5] حقيقية تباهى بها الإنجيليون الأمريكيون كثيراً. وفي الواقع، سرعان ما اكتسب ويذرسبون أنصاراً في كل الجامعات الأمريكية: فقد سمحت نظريته بمناجزة التأليهية لدى شخصيات سرعان ما كُرهت مثل توماس بين (Thomas Paine) (1737 - 1809) هذا المخرب العاشق لفرنسا أيضاً، وجوزيف بريستلي (Joseph Priestley) (1733 - 1804)[6]. لكنها سمحت

---

[5] راجع Herbert W. Schneider: *A History of American philosophy* نيويورك 1963، وكذلك الكتاب الكبير *The Enlightenment in America*، أوكسفورد 1976.

[6] نشر Thomas Paine 1794 كتاب عصر العقل *The Age of Reason*، الذي يدين في إطار ألوهي تقليدي وبوصفها علاقة لاعقلانية، فكرة أن الله الذي يتحدث جيداً إلى الإنسان عبر لغة الطبيعة قد يكون

أيضاً بعدم تقوية اللاعقلانية وبإنقاذ الدرس الكبير لفرنسيس باكون الذي بدا أن جون لوك كان قد خان الدرس. وهذا هو ما يمكن وصفه بهزيمة الإنكليز في ملعبهم الخاص. فقد تم انتزاع معبودهم من بين أيديهم وأعيد إلى فكره طهره الأصلي الذي كانوا قد دنسوه. ونتيجة لذلك، لم ينفك اللاهوتيون الأمريكيون طقسياً وخلال أكثر من نصف قرن عن ذكر باكون من أجل تبرير فكرة أن نشاطهم ذو صبغة علمية وقد تفننوا في إثبات أنهم يمارسون اللاهوت علمياً. وبالتالي فإن النتائج التي توصلوا إليها كانت غير قابلة للدحض شأنها شأن نتائج عالم الطبيعيات أو الرياضيات. وهكذا رأيناهم يترأسون جامعات وكليات.

في أغلب الأحيان، وفي مجموع المؤلفات التي أصدروها على هذا النحو بحماس خارق ولا يخمد، كانت المفردات الباكونية تبدو محض شكلية. وهذا كتب اللاهوتي المدرس في امهرست، ادوارد هيتشكوك (Edward Hitchcock) سلسة من قراءات دينية حول Peculiar phenomena in the Four Seasons تثير سذاجتها الرغبة في الضحك.

أولى كلمات السر لديهم: "الوقائع". وبفضل التفسير الذي كانوا قد تبنوه لفلسفة ريد، دافع اللاهوتيون الأمريكيون عن فكرة أن التوراة تضم، كما الطبيعة، "وقائع" ينبغي أن تدرس بمنهج "الاستقراء"[7]. هذه "الوقائع" واجهوا بها - مستندين

شعر بالحاجة لأن يحدثه عبر التوراة! أثار الكتاب ضجة وأكد رأي شكوك كل أولئك الذين كانوا يرون في بين "تأليهي" ثوري ذي النمط الفرنسي. وقد نشر القس Joseph Priestley (1733 - 1804) الذي كان في الأصل مشيخياً، كتاب *A History of the Corruptions of Christianity* عام 1782 وأعيدت طباعته عام 1974، نيويورك (في جزءين) ويعتبر البعض هذا الكتاب الموجز التربوي الأكمل للبروتستانتية الجديدة لعصر الأنوار: موحدة ترفض تعبد يسوع المسيح (أو الروح - القدس) وترى في تضحيته لا واقعة تاريخية وإنما مجاز أسلوبي، كيف وفقاً للذهنيات اليهودية، يمكن مراجعة E. Sayons في كتابه: "التأليهيون الإنكليز والمسيحية [...] (1696 - 1738] (*Les déistes anglais et le christianisme* ، باريس 1882.

(7) John Brazer. A Review of the Argument in Support of Natural Religion في *Christian Examiner*، 19، 1835.

إلى نص شهير لنيوتن - "الفرضيات" التي استنكروها باعتبارها طروحات ميتافيزيقية، أي، بحسب استخدامهم لهذه الكلمة، فالتة من كل رصد. ويمكننا بالنظر إلى الماضي وصف موقفهم الفلسفي بـــ "الواقعية اللاهوتية". أو القول بأنهم يبنون "لاهوتاً علمياً".

كلمة السر الثانية: البداهة - كما وصفها هوفينكامب (The biggest word in the natural theologian's vocabulary) هذه الكلمة احتفظوا بها، أو إذا شئتم، كرسوها لكل مفهوم يعيد إلى وقائع تؤكد الأفكار الأساسية للمسيحية[8].

اللاهوت المهدد I

هذا الشكل من الفكر الخاص جداً عاش خمسين عاماً من التوسع الظافر. لكن هاهو فجأة يجد نفسه في وضع دفاعي، مهدداً في قواعده ذاتها. وتظهر الحالة على مستوى كبير من الخطورة لاسيما ولأن التهديد يلوح من جهتين في الآن ذاته: على جبهة العلوم مع تقدم الأبحاث الجيولوجية التي يبدو أن من الصعب أكثر فأكثر مصالحة نتائجها مع "وقائع" سفر التكوين؛ لكن أيضاً على الجبهة التي كانت تبدو غير قابلة للمس، جبهة الدراسات التوراتية حينما جاء تطور النقد التاريخي في ألمانيا ليقلب الفكرة التي نمتلكها عن نص الكتاب المقدس. إذ تبدو أسطورة الإملاء الإلهي على وشك الانهيار. وينبغي أن نضيف بهدف إجراء تقدير سليم، أن فلسفة إيمانويل كانط انجزت بذر الاضطراب بإسقاطها، باسم بلكون ونيوتن ذاتهما، مشروع كل "لاهوت طبيعي"[9] سعى لتقديم نفسه كعلم. "الطاعون" يأتي، بالتأكيد من أوروبا العجوز دائماً.

---

[8] تبدو الكلمة مألوفة في عناوين الكتب، وكذلك كتاب *Evidences of the Authenticity Inspiration and Canonical Authority of the Holy Scriptures* لعالم اللاهوت من برنستون ارشيبالد الكسندر، هجوم جديد ضد هيوم أو في كتاب *The Evidences of Christianity* للأبرشاني مارك هوبكنز عام 1844 في بوسطن..

[9] نعلم أن تناقض العقل المحض يُعتبر نقداً جذرياً لكل "اللاهوت الطبيعي" بوصفه مؤسساً على "وهم مغالق" يعزا لارتباك في أعراف (نظري وعملي) العقل. كما أنه معروف تماماً أيضاً أن "نقد ملكة الحكم" قد برر من جهته بخصوص العالم الحي لاهوتاً سيقوم ويل بورع بجمعه من أجل استخدامه.

إن النقاش حول تطابق "نظريات الأرض" مع نص سفر التكوين قد بدأ، والحق يقال، في إنجلترا، منذ زمن بعيد، وعلى الأقل منذ أن نشر المحترم توماس بيرنت (Thomas Burnet) (النظرية المقدسة عن الأرض) Telluris theoria sacra ما بين عامي 1680 - 1690. هذا النقاش كان في أس كل المجادلات الكبرى التي دارت ما بين "النبتيين" أنصار الألماني أبراهام ج. ورنر (A. G. Werner) (1750 - 1817) الذي فسر تشكل الطبقات الصخرية بحدوث طوفانات متتالية - و"البركانيين"، تلاميذ الإيكوسي جيمس هيتون (James Hutton) (1726 - 1797) الذي نشر عام 1795 كتابه (نظرية الأرض) التي تقدم في نظره "اقتصاداً رائعاً" يعود نظامه إلى أزمان سحيقة ويمكن أن يُفسر بسلسلة من التحركات الشبيهة بالتحركات البركانية المتأتية عن "نار تحت أرضية"[10].

وتدور المواجهة حول سؤالين أساسيين: عمر الأرض الذي يبدو أطول بكثير من الأربعة إلى الستة آلاف سنة التي سُمح بها، بحسب تفسيرات النص التوراتي، وحقيقة الطوفان كما عُرض بوصفه حدث وحيد مفاجئ وشامل. الأول يغوي، كنتيجة، بالتساؤل حول "الأيام الستة" للخلق: هل كان المقصود فعلاً يوماً من أربع وعشرين ساعة؟ كيف نفسر إذن أنه كان هناك بحسب سفر التكوين "يومان" و"ليلتان" قبل خلق الشمس؟ أما الثاني فيقود كنتيجة طبيعية السؤال عن سفينة نوح وبطريقة غير مباشرة السؤال عن خلق الأنواع.

بموجب، وضعهم الفلسفي الخاص، يتوجب على معتنقي "اللاهوت الطبيعي" الأمريكيين، أكثر من زملائهم الإنجليز، أن يرفضوا أية حجة يمكنها أن تقوم بإبطال الصفة العلمية للحقائق التوراتية. في بداية سنوات 1830 كان باستطاعة

---

[10] حول هذه الفكرة، يمكن مراجعة الكتاب الكلاسيكي لتشارلز ج. جيليسبي *Genesis and Geology* نيويورك 1959، الذي يحمل عنواناً آخر هو: A study in the relations of scientific thought, natural theology, and social opinion in Great Britain 1790 - 1850 وكذلك أيضاً مقالة ستيفن جاي غولد Time's Arrow, Time's Cycle. هارفارد 1978 ترجمة فرنسية غراسيه *Aux racines du temps*. كما يمكن الرجوع أيضاً إلى الكتاب القصير لكن الرائع عن تاريخ الجيولوجيا (فصل 9) لغابرييل غوهو *Une histoire de la géologie* "Point Sciences"، 1990.

بنجامين سليميان Benjamin Silliman (1772 -1864) مدرس علم المعادن والكيمياء في يال، التباهي بعد بأنه برهن أن قصة التكوين تأكدت "علميتها حرفياً". ورداً على الاعتراضات التي تقدم بها علماء الطبيعة، المتعلقة بعمر الأرض، بيّن أن الكلمة العبرية "Yom" التي تُرجمت إلى "يوم" لا تحدد مطلقاً فترات محددة بأربع وعشرين ساعة، وإنما يمكن أن تنطبق على فترات طويلة جداً. وهكذا أبطلت الحجة. ومازال العديد من الخلقيين يلجأون إليها - في النقاشات الحالية. وأكثر من ذلك: انهمك سليميان بالبرهنة مستنداً إلى معطيات السجل الأحفوري على أن المراحل الجيولوجية الست قد تتطابق مع "أيام" التوراة الستة. أما فيما يتعلق بالطوفان فإن أبحاث الكسندر فون همبولدت (Alexandre von Humboldt) (1769 - 1859) حول الصخور البركانية[11]، قد أفادته في إثبات أن هذا الحدث يبدو مقبولاً ظاهراً على أقل تقدير وذلك من وجهة نظر العلم. ولا ينبغي النظر إلى كتاب سليميان على أنه نزوة شخص وحيد فقد ظل الكتاب المدرسي للدراسات الجيولوجية في أمريكا حتى نهاية سنوات 1830. ولن يندر من جهة أخرى وجود اختصاصيين آخرين لدعم أو إكمال وجهات نظره. وعلى انفراد، اعتقد ادوارد هيتشكوك السالف الذكر، الذي سيصبح عام 1851 رئيس جامعة أمهيرست، أن باستطاعته تجنيد كتاب جورج كيفيه[12] لهذه القضية.

فقد أكدّ كيفيه، مؤسس علم التشريح المقارن، على وجود "أنواع ضائعة" من أجل تقديم نظرية حول "الثورات على سطح الأرض"[13] والتي اعتبرها، ليس دون

---

[11] يجمع Alexandre de Humboldet (1769 - 1859) كما أشير إلى ذلك مراراً، قرنين في شخصه وقد مات في السنة التي نشر فيها كتاب *أصل الأنواع*. وقد أثارت رحلته لمدة خمسة أعوام إلى أمريكا إعجاب عالم الطبيعيات؛ رجل "موسوعي" كما يقال ويمكن أن يعتبر بحق أحد مؤسسي "علم البيئة" بوصفه منهجاً علمياً، قبل أن تستنبط الكلمة. وقد أعطى لعلم الأرصاد الجوية بعضاً من أساليب ووحدات القياس الحديثة. وهو الذي أقام الجغرافيات الأولى للنباتات بربطه توزع النبات على أوساطها. وانطلاقاً من ملاحظاته حول الصخور البركانية، قدّر قوة البراكين القديمة والتي بدت ضخامتها في عيون لاهوتيينا قادرة على تفسير زلزال علم، يمكن العودة للسيرة الذاتية الرائعة لهيمبولدت التي كتبها دوغلاس بوتينغ ونشرت بالفرنسية تحت عنوان: هيمبولدت، عالم ديمقراطي (ترجمة فرنسية باريس Belin 1988).

[12] كانت أعمال كيفيه قد ترجمت ونشرت جزئياً في الولايات المتحدة عام 1818 من قبل لاتهام مونتشل.

[13] يؤكد كيفيه وجود هذه "الأنواع المختفية": وقد بدت له حجة قاطعة في مواجهة نظرية لامارك التي تفترض سلسلة متصلة من الأحياء وتستثني، مبدئياً، إمكانية مثل هذا الاختفاء، مع الأخذ بعين الاعتبار

قصد سياسي خفي من قبل بارون إمبراطوري، كما الكثير من "المآسي". وهو يرى أن السجل الأحفوري للفقاريات يفرض فكرة أنه تتابع فوق الأرض حدوث كوارث عظيمة استأصلت الكائنات الحية من الكوكب، عدة مرات. وهذه النظرية لا تبدو مطلقاً كما لو أنها تأكيد للنصوص المقدسة التي ظل العالم الطبيعي حيالها شديد الحذر في نهاية المطاف. وقد أبان كيفيه أنه بعد كل حالة من حالات التدمير الشاملة هذه كانت عملية الخلق تستأنف عملها المقطوع، محسنة بحسب الحاجة منتجاتها. وهو يرى أن "الطوفان" التوراتي لا يمكن أن يتوافق إلا مع آخر هذه الطوفانات الكبيرة وفق تسلسلها التاريخي وهو الذي بقي في ذاكرة البشر.

ولم يتحرج هيتشكوك بتاتاً أمام هذه التحوطات والتقييدات. فلم يأخذ من كيفيه إلا فكرة "الكارثة" وكذلك المقولة التي ترى أن "مسار الطبيعة قد تبدل" وأن "أياً من الوسائل التي تستخدمها حالياً لم يكن كافياً من أجل إنجاز أعمالها السابقة". ثم انعطف عندئذ نحو الفصل الأول من سفر التكوين وبين أننا نجد فيه في الواقع (روايتين) القصة الخلق: الأولى في البداية تماماً، يتبعها "فراغ"، ثم الأيام الستة العتيدة التي يقدم النص لها لوحة أكثر تفصيلاً.

لتصورها عن "التكيف". ويجدر ملاحظة أن لامارك لم يعن أبداً بالرد على اعتراض كيفيه تحديداً. ومهما يكن من أمر، فإن التاريخ الرسمي للنشوئية طالما نذر كيفيه تحديداً لجحيم المفكرين "الرجعيين"، في حين أنه خص لابلاس بمنزلة المبشر المباشر بداروين. ألا يدين كيفيه بمجده إلى المساعدات السياسية التي حظي بها في عهدي الملكية والإمبراطورية، في حين أن لامارك كان يمثل النمط ذاته من أولئك العلماء الذين انضموا إلى الثورة مروعة وحماساً؟ هذه الصورة تبدو اليوم كاريكاتورية في الحالتين: فـ "كوارث" كيفيه طُعنت لتزوير - سلفاً ضد الاستمرارية - التدرجية التي كان لامارك يدافع عنها والتي كان داروين ذاته ضحيتها. أما بالنسبة للامارك فإن نتاجه لا يسمح باعتباره "المبشر" بداروين: فقد ظل فكره خاضعاً لمفهوم "الاقتصاد الطبيعي" الذي سيتوجب على داروين الانفصال عنه ليطرح مسألة "التكيف" المفصلية. بالنسبة لـ لامارك لا يبدو "التكيف" مشكلة، وإنما أشبه بجواب الحياة على الإخلال بنظامها. وعبر تلاعب حقوقي بفكرة كيفيه أمكن تقديم نظرية الكوارث بوصفها طريقة شفّ دوغمائي لقصة الطوفان. ذلك أن كيفيه الذي كان يحلم، مثل كثيرين غيره في عصره بأن يكون نيوتن التاريخ الطبيعي قد جرت الإساءة إليه نتيجة لذلك. ومع ذلك فإنها طويلة قائمة أسماء كل أولئك الذين، حتى يومنا هذا، كرروا هذه الخرافة. ويكفي قراءة Discours *sur les Révolutions* "أحاديث حول الثورات" لإزالة الوهم.

ويشرح هيتشكوك: أثناء "الفراغ" الذي تلي اللحظة الأولى "فإن أنواعاً عديدة من الحيوانات أمكن أن تكون قد خلقت ودُمرت والتي لم يصفها موسى لأنه لم يعد لها مطلقاً أية صلة مع الأنواع الحالية إلا بقدر ما لها مع العضويات الحية فوق الكواكب الأخرى إن كان ثمة عضويات فيها"[14].

ويتابع، يمكن إذن اعتبار أن سفر التكوين قد قال بالضبط ما أراد كيفيه جعلنا نفهمه: إن التاريخ الجيولوجي للأرض بأكملها وكذلك كل مستحاثات العضويات المختفية، تنتمي لعملية الخلق الأولى. فبعد أن دُمر هذا العالم الأول المخلوق (الكارثة الشاملة الأولى عند كيفيه): باشر الله عملية خلق جديدة. وهذه تتطابق مع العالم الحالي، فهي تتضمن النباتات والحيوانات التي نعرفها، والإنسان. وهذا الخلق الجديد جرى قبل ستة آلاف عام واستمر ستة أيام!

ويكمل هيتشكوك عمله تالياً بتقديم "دراسة مقارنة للطوفانات التاريخية والجيولوجية". ولا يعدو ذلك تقديم جرد لكل قصص الطوفان المعروفة، وخاصة في الأدب "الوثني"، وقد اجتهد هذا اللاهوتي في البرهنة على أنه يمكنها جميعها أن تُفسر عقلانياً بالطوفان الموسوي، لأنها لن تكون إلا رؤى ساذجة له بسبب كفرها.. ويضيف بحذق مؤلف كتاب "دين الجيولوجيا وعلومها الملحقة"[15]، حيث أن الطبقات الجيولوجية خلقت (قبل) الطوفان، فإنه سيكون دون طائل أن نبحث عن أي دليل على هذا الطوفان الشامل في الطبقات الجيولوجية للكوكب. لذا يقترح القيام بملاحظة سطحه. وهنا يعتمد على التحريات والملاحظات التي أجراها بنفسه في ماساشيتس: "إن طبقات الرواسب الطوفانية تظهر كلها تقريباً متجهة بانتظام نحو الجنوب بدءاً من الصخور التي انفصلت عنها". وهذا ما قد يشير حسب رأيه،

---

(14) Edward Hitchcock، The Connection Between Geology and the Mosaic History of the Creation، American Beblical Repository، 6، 1835، ص 275 - 315.

(15) انكر الكلمات الأولى من سفر التكوين التي استند إليها هيتشكوك من أجل الدفاع عن "تسلسل الأحداث" الذي وضعه": "في البداية، خلق الله السماء والأرض. في ذلك الوقت لم تكن الأرض سوى فراغ وعماء، وكانت الظلمات تغطي وجه الهوة، وترفرف روح الله على وجه المياه، قال الله: "ليكن النور..." هنا في "الفراغ" الذي يفصل الخلق "في البداية" و "قال الله" يقيم هيتشكوك درس كيفيه (Cuvier).

إلى أن موجاً عارمـــاً اكتسح الأرض قادماً من الشمـــال في وقت قريب من تاريخها[16].. إن كتاب هيتشكوك وإن كان قد نُسي تماماً[17]، يقدم مثالاً أنموذجياً للمعركة التي قادها اللاهوت الطبيعي في بداية سنوات 1860. وقد رأينا كيف أن الأمر كان مع ذلك، يتعلق منذ تلك اللحظة بمعركة دفاعية.

وفي الواقع، فقد وضع منذ عام 1830 عالم الجيولوجيا الإنكليزي تشارلز ليبل الذي يعتبر عن جدارة أبو الجيولوجيا الحديثة[18]، مبدأ أساسياً سيقلب ليس فقط نظريات الأرض وإنما أيضاً، وعلى مضض في مرحلة أولى، التاريخ الطبيعي، وقد أطلق ليبل على هذا المبدأ اسماً قليل اللباقة وشديد الإبهام هو "التأحيدية[19] uniformitarism": فإن القوانين الفيزيائية التي تفسر التكوين (الحالي) للطبيعة هي تلك القوانين نفسها التي سمحت بإدراك تكوينها في الماضي. ويحمل هذا المبدأ أيضاً اسم "الراهنية".

وحينما استعار هيتشكوك من كيفيه فكرة أن "مسار الطبيعة" لم تقده القوى ذاتها التي تضبطه حالياً، فإنه إنما وقف بتعمد شديد ضد هذا المبدأ. لقد أدرك هيتشكوك بصواب تام: إن قبول أو رفض هذا المبدأ سيبدو اليوم أيضاً كذلك الذي يفصل جذرياً "الخلقيين العلميين" عن علماء الأحياء النشوئيين.

---

[16] يستند هيتشكوك إلى وليام بوكلاند.

[17] يجب توجيه التحية إلى هوفنكامب لبعثه من جديد.

[18] إن أهمية نتاج تشارلز ليبل في تاريخ الجيولوجيا لا مثيل لها: ذلك أن كتابه مبادئ الجيولوجيا Pirinciples of geology الذي يعود تاريخ أول طبعة له إلى 1830 وظل يعدّل فيه على مدى الطبعات المتلاحقة. وقد انتهى بأن أصبح نوعاً من كتاب مدرسي درس فيه الطلاب الإنكليز والأمريكيون خلال أكثر من ثلاثين عاماً أسس علومهم.

[19] في كتابه The meaning of Fossiles ، لندن 1972، قدم م. جي. س. ريدويك أربعة معانٍ متمايزة لمصطلح "uniformité (انتظامية) التي خلط فيما بينها ليبل. انتظامية القوانين: قوانين الطبيعة ثابتة في المكان والزمان. انتظامية الصيغ السلوكية: لنسلّم أن المرء يستطيع فهم الماضي من خلال أسباب "حالية"، أي عبر نمط من السببية المعاشة حالياً.

انتظامية الإيقاع، التدرجية: يتم التحول الجيولوجي وفق إيقاع بطيء، منتظم ومضطرد انتظامية الحالة الفيزيائية: لا يخضع تاريخ الأرض إلى أي حامل تقدم أو إلى أي اتجاه محدد مسبقاً.

ثمة جبهة أخرى: الدراسات التوراتية حيث قام الإنجيلي صامويل تايلر (Samuel Tyler) المعجب الكبير ببالبي وبيكر[20]، بعملية تنظيم ظل اللاهوتيون الأمريكيون يتبعونها. فطبقاً لمبادئ "واقعية الحس السليم" ترتكز دراسة التوراة ليس في "انتقادها" وإنما على جمع المعطيات التي تحتويها بحسب الطريقة الاستقرائية. فلم يعد الأمر إذن يتعلق بمسألة صحة النص والطبيعة "الموحاة" للنص التوراتي.

والحال، أنه في الوقت ذاته طرح مفكرون ألمان بنجاح متنام تفسيراً آخر مغايراً تماماً للكتاب المقدس. فقد انطلقوا من واقع، جرى التثبت منه باستخدام المناهج الفيلولوجية، أن البشر هم الذين حرروا هذه النصوص؛ وقد وضعوا نصب أعينهم الفصل فيما يرون أنه تاريخي فيها عما هو متعلق بـــ "الأسطورة". وكان العمل الأكثر إثارة للضجة في هذا الاتجاه هو بقلم أحد تلاميذ هيغل "اليساريين" هو دافيد فريدريتش شتراوس (David F. Strauss). والحديث عن كتابه الشهير جداً حياة يسوع[21]. ويدّعي شتراوس أنه يقدم فيه "النواة التاريخية الحقيقية للمسيحية" عبر عودة نقدية لأعمال وفكر يسوع. ويحدد هذا الكتاب في الواقع، نهاية سيرورة طويلة من نقد النصوص المقدسة والتي سدد فيها ضربة الابتداء في ألمانيا رايماروس Reimrus بعد أن تمّ إخراجه باسم ممنوع بعد الوفاة من طي الكتمان على يد الفيلسوف الشهير غوتولد افراييم ليسنغ Gotihold E. lessing (1729 - 1781)[22].

---

[20] صامونيل تايلور، انظر على وجه التحديد Connection between philosophy and revelation. in The Biblical Repertory and Princeton Review، عدد 17 - 1845.

[21] David Friedrich Strauss (1808 -1874) أكمل في جامعة برلين بوصفه طالباً لهيغل وشلير ماخر دراسات بدأت في بلانبورن ثم في توبنجن.

[22] قدم Paul Hazard لوحة مؤثرة عن "الحياة العنيفة والمضطربة" لغوتلوب أفراييم ليسنغ في (الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر (الفصل 11) باريس، فايار 1963). فهو ابن لأسرة من القساوسة، وقد رفض دائماً السخرية من الدين التي كانت أمراً مألوفاً في ذلك الوقت. سيصبح "تأليهياً على طريقته، والتي ستختلف عن طريقة فولتير الذي كان يكرهه - وقد التقى به. سيخوض معركته ضد الأرثوذكسية

وقد دار النقاش أولاً حول الإنجيل وعلى وجه الخصوص حول "الأعاجيب" التي قام بها المسيح. لم يحاول شتراوس، كما فعل آخرون[23]، تحليل هذه الأعاجيب بظواهر طبيعية، بل اقترح أن يُقبل أن تصور العالم لدى المعاصرين ليسوع كان أسطورياً بصورة أساسية: وقد توجب على يسوع إذن لكي يغدو مفهوماً، تقديم أفكار دينية بقالب أعمال حقيقية، تاريخية على طريقة الحكايات الأسطورية. فهو يُنكر إذن وبلا قيد أو شرط الواقعية التاريخية للأعاجيب.

واتسع النقد ليشمل مجموع الكتاب المقدس. وفي الولايات المتحدة آل الأمر بثيودور باركر[24] عام 1842 إلى اعتناق الجوهري من طروحات شتراوس. وقد استجر كل الرواسب الفلسفية لموقفه: لقد جرى خطأ مدّ "الباكونية" لتشمل ميدان الكتاب المقدس بينما لا يمكن للطريقة الاستقرائية تحقيق نجاحات حقيقية إلا في ميدان "العلم التجريبي". وخلص باركر إلى اقتراح تبني نسخة واقعية من التجريبية بهدف عدم تعريض الدين المسيحي للمزيد من عدم وثوقية النصوص. ولن يتـــم الاستماع له حقيقة إلا بعد نصف قرن، بسبب النتائج التي نحن بصدد الكشف عنها.

اللوثرية عبر نشره تحت عنوان: مقتطفات من مجهول مقاطع من مخطوط كتبه صامونيل ريماروس، وهو مدرس مغمور للغات الشرقية في ثانوية هامبورغ، توفي عام 1768. وقد أعطى ريماروس نصه عنواناً هو: *Apologie pour les adorateurs raisonables de Dieu*. وهو يرى أن العهد الجديد لا يملك أي إثبات فهو مليء بالأخطاء، والتفكك. ورفض أيضاً العقيدة البروتستانتية للخلاص عبر النعمة، وكذلك الإيمان بالخطيئة الأصلية: فهذه العقائد لم تبد له عقلانية. كما شوهت الكاثوليكية والبروتستانتية "القانون الطبيعي" الذي ينبغي على رجال الدين العودة إليه. وقد استحوذ ليسنغ على هذا المؤلف، وأشار بخلاف التأليهيين - أن لزوم الإيمان هو حدث أولي والذي سيكون من المناسب إعطاؤه "معناه الحقيقي". فقد كان الدين موجوداً قبل اللاهوت، وهو منذور لأن يظل موجوداً دائماً لأنه كسب روحي بطيء.

[23] على سبيل المثال، يفسر هانيريتش باولوس بعضاً من أعاجيبه بواقع أن المسيح كان قد اكتشف أدوية معروفة منه وحده: ويعتبر أن السير على وجه الماء ليس إلا من توهم التلامذة، وفسر حالات إحياء الموتى بحالات السبات... Life of Jesus as the Basis of a Purely Historical Account of Early Christianity)، 1828.

[24] بعد أن قدم عرضاً نقدياً، لكنه قابل للتأويل، لكتاب شتراوس، نشر باركر نص محاضرة ألقيت في بوسطن تحت عنوان (A discourse on matters pertaining to religion. Boston 1842). ويشير هذا النص إلى تأييده لشتراوس وقد أثار نزاعاً.

وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فقد شن اللاهوتيون المرتعبون هجوماً مضاداً في الحال وبعنف: إن قواعد فكرهم تتعرض لخطر شديد، والأمر يتعلق بإيمانهم وبعلمهم اللذين لا يمكن الفصل فيما بينهما بحسب رأيهم. فأطلق هيتشكوك الشجاع صيحة مدوية. بيد أن مشيخياً محافظاً وعالماً لاهوتياً من برنستون هو تشارلز هودج (Charles Hodge) هو الذي هاجم كتاب شتراوس متسلحاً ببرهنة فلسفية موسعة. ففي مقالة نشرها عام 1837[25] وجه نقده نحو تطور مجموع اللاهوت الألماني، ليظهر كتاب شتراوس وكأنه نتاجاً له - أي حقيقته العارية. وهذه الحقيقة، يجلجل صوته، هي الحلولية (Panthéisme) "التي لا تعترف بأي إله باستثناء الله المتجسد في الجنس البشري".

ولن يستطيع اللاهوتيون الأمريكيون، حتى نهاية سنوات 1850 وإلى ما بعدها، قبول أن يشكك أحد ما بالمضمون العلمي "الموضوعي" للتوراة؛ فالفكرة ذاتها التي تبنوها دائماً عن الصفة العلمية لنشاطهم تمنعهم قبول ذلك[26].

ووسط هذا الوضع المتوتر أصلاً، فإن "قنبلة" جديدة انفجرت في بلاد اللاهوت الطبيعي مع نشر كتاب *أصل الأنواع* لتشارلز داروين. وسيكون مفهوماً أن يثير ردود أفعال بالغة العنف: فلم يعد الأمر هذه المرة يتعلق فقط بتاريخ الأرض وإنما تعداه مباشرة إلى تاريخ الكائنات الحية، وكما يمكن أن نفترض، إلى الإنسان ذاته. وسيكون مفهوماً أيضاً أنه كان وفي الحال موضع حالات عدم تفهم مطلقة سواء من قبل أولئك الذين رأوا من المناسب تبني مقولاته أو أولئك الذين رفضوها برعب شديد.

داروين في أمريكا

ظهرت بوضوح شديد ثلاثة تكتيكات وسط معتنقي "اللاهوت الطبيعي" في مواجهة نظرية "النشوء والارتقاء": التكتيك الأول يقوم على المقاومة مهما كلف

---

[25] سوف نلتقي بتشارلز هودج في السجال الذي دار حول *أصل الأنواع*. وسيظل أحد المناهضين الأشد مضاء لداروين.

[26] سوف نرى كيف انقلب الحال، بدرجة ما، عند نهاية القرن.

الأمر، وعلى رفض عنيد لصحة هذا العلم الجديد باستثمار كل ثغرات وعدم وثوق نظرية لا تزال تُعرض باعتراف مروجها نفسه على أنها "فرضية". التكتيك الثاني يقوم على تقديم تضحية ما: فقد اعتبر عدد من اللاهوتيين، القلائل في بداية الأمر، أنه يجب التخلي عن المقتضى ذاته "اللاهوت الطبيعي" في نسخته الأمريكية وأن يترك العلم يسير في طريقه دون قيود، وعلى العلمانيين أن يقبلوا مذ ذاك على الأخص العودة إلى عرض ذي نزعة وضعية لنشاطهم وسيُرد الدين إلى "حقيقته" الداخلية، ضمن التراث الألماني للاهوتي من مرتبة "شلييرمارشر Schleiermarcher"[27].

التكتيك الثالث، كان يطمح، على العكس من ذلك، إلى إبقاء طريقة التفكير التي كونها "اللاهوت الطبيعي" حية. وهكذا سنرى بدءاً من عام 1860 محاولات عديدة من أجل دمج النظرية الداروينية في إطار هذا اللاهوت. وقد بدت كلمة "نشوء" مناسبة جداً لهذه العملية. وقد باتت هذه الكلمة بعد أن ساعدها في ذلك تلاميذ داروين، لأسباب متعارضة جداً في الظاهر، "الكلمة - الأولى" في الداروينية، وملتقى جميع أنواع سوء الفهم والمخادعة المخيفة. وربما لأن حالات سوء الفهم كانت تسمح بعقد تحالفات فكرية وسياسية تجنبهم الانعزال عن مجتمع أمريكي في عز تحركه الصناعي والعمراني، فقد كانوا كثيرين رجال اللاهوت الذين تبنوا هذا"التكتيك" الأخير[28].

لقد استحوذ على الاهتمام رد الفعل الرافض مع ذلك، لأنه أُعلن ونوقش بنجاح من قبل مفكرين بارزين ويحظون بالاحترام. وقد تميزت شخصيتان شهيرتان، الأولى جاءت من الوسط العلمي: شخصية لويس آغاسيز Louis Agassiz (1807 - 1873)، والأخرى شخصية عالم اللاهوت تشارلز هودج الذي

---

[27] في كتبه: American Protestantism شيكاغو 1961، و Religion in America نيويورك 1981، يقدم هذا الكاتب لوحة أخاذة لانضمام الليبراليين هذا إلى اللاهوت الألماني قبل 1914. وسوف يجدون أنفسهم ملومين بمرارة على هذا بعد عدة سنوات، حينما توطدت كراهية الألمان.

[28] لقد وصل الأمر بهؤلاء اللاهوتيين، وسوف نرى ذلك، إلى تحدي السيرورة التاريخية بأسم.. داروين.

صادفناه في المواقع المتقدمة في المعركة التوراتية ضد فريدريتش د. شتراوس. ينبغي القول عن لويس آغاسيز أن اسمه يتردد بوصفه أكبر عالم تشريح في عصره وهو من أصل سويسري وابن لقس تقوي، درس في زوريخ وهايدلبرغ وميونيخ، وإثر إصداره لأبحاث متميزة عن الأسماك الحية والأسماك المتحجرة قدم إلى باريس عام 1831 لمقابلة كيفيه الذي أبدى نحوه إعجاباً لا حدود له. وكان الاستقبال الذي نظم في المتحف للمدرس اللامع حاراً وفخماً بما يكفي بحيث أن آغاسير أصبح، بعد موته عام 1832، واحداً من تلاميذه الأكثر عطاء. وفي الواقع فقد نشر منذ عام 1833 إلى عام 1843 المجلدات الخمسة لأبحاثه حول الأسماك المتحجرة، ولأنه عامل لا يكل، فقد أصدر أيضاً المجلدات الأربعة لدراساته الوافية للقنفذيات الحية والمتحجرة (1838 - 1842).

وقد انخرط آغاسيز الذي كان يتوق للمغامرة دائماً، لسوء حظه في أحيان أخرى، في رحلة استكشافية للقبب الجليدية في آار، حيث استخلص النظرية المسماة "بالعصر الجليدي": ليست الطوفانات والكوارث الأخرى هي التي غيّرت مناطق واسعة في أوروبا وإنما طبقات من الجليد[29].

كان وراءه إذن عمل ضخم حينما لبى دعوة "معهد لويل" في بوسطن في خريف 1846. وقد خلب هذا المحاضر رفيع المستوى ألباب حضوره وأثار حماسهم، في الوقت الذي وقع هو فيه تحت سحر هذه الأمة "التي ينصبّ نظرها كله نحو المستقبل". وسينتخب عام 1847 في هارفارد ليشغل كرسي "الجيولوجيا وعلم الحيوان". ومثّل في موقعه هذا وحتى موته ما يمكن أن يكون عليه "المدرس الرفيع".

هذا يعني أن نظرية النشوء الداروينية ستواجه في شخصه معارضاً ذا وزن كبير[30] وفي الواقع فقد قاد تلميذ كيفيه معركة لا هوادة فيها ضد داروين. فقد كان

---

[29] كان أغاسيز، ككيفيه، ضحية للتاريخ الرسمي الذي قدم عنه صورة شخص ظلامي قصير النظر. إن نتاج أغاسيز مثله مثل نتاج معلمه، هو اليوم مدار إعادة تقييم، سواء فيما يتعلق بطروحاته في الجيولوجيا، أو فيما يتعلق بأعماله الكثيرة التصنيفية حول الأسماك.

[30] هذا التعبير استخدمه داروين ذاته.

يؤمن "بعمليات الخلق الخاصة" ولم يتراجع عن ذلك قيد أنملة، الأمر الذي لم يمنعه مطلقاً، كما أشار باسكال تاسي Pascal Tassy مقتفياً رأي غولفن لورنت Goulven Lourent[31]، من تقديم آراء ذات طابع عصري كبير حول "التطور التدريجي" للأشكال الحية، وحول "البنوة" التي تربط فيما بينها انطلاقاً من "سلالات" بدائية. بيد أن كل هذه الإشارات ظلت محصورة في إطار "مخطط للخلق" ذي أصل إلهي. وقد بدا له الله كمهندس ينصب على إعادة الإنتاج "خارجياً للتركيبات ذاتها بحكم تماثل وانسجام الأبعاد"[32].

وقد اتهم آغاسيز داروين، وليس دون شيء من العجرفة الأكاديمية التي سببت له عداوات عديدة من جهة أخرى، بأنه "غير كفؤ". وهاجم بشدة إحدى نقاط ضعف *أصل الأنواع*: الغموض الذي يكتنف مفهوم النوع. وفي الواقع فمنذ أن جرى التشديد في تخطيطة الاصطفاء الطبيعي على تراكم التبدلات اللامحسوسة التي تصيب الأفراد فإن مفهوم النوع بدأ يصبح اتفاقياً، إن لم يكن زائداً عن الحاجة.

وقد أعاد آغاسيز التأكيد، في مواجهة هذه الشكوك، على السمة الجوهرية لمفهوم النوع، ولكي يتم الإصغاء إليه جيداً، لم يتردد في وصفها بأنها "أفكار الله"! ومن المفهوم أن معتنقي "اللاهوت الطبيعي" سيجنون فائدة كبيرة من هذه البراهين العلمية.

سينقل صوت تشارلز هودج الرسالة كمدرس لاهوت رفيع المستوى، ويعلن بأسلوب نموذجي: "إن المفكرين الدينيين يؤمنون مع آغاسيز بأن الوقائع مقدسة" ولأنه كان معادياً جازماً "للفكر الحديث" فقد رفض جملةً الليبرالية اللاهوتية والمسيحية "الداخلية" والآراء المتطرفة للنقد التوراتي. ودعا إلى العودة إلى

---

[31] غولفن لورلن: *Paléontologie et évolution en France 1800 - 1860*، باريس، منشورات للجنة الأعمال التاريخية والعلمية 1987.

[32] انظر باسكال تاسي 1991، ص 58 - 59 الذي يورد لكي يختم، هذه الخلاصة لأغاسيز عام 1851: "إن دراسة (...) تتابع الحيوانات في الزمن، وتوزعهم في المكان تقودنا إلى فكر الله ذاته".

الأرثوذكسية الكالفينية لمواجهة هذه "الهرطقات" ولم يقلقه أنه سيكون عليه مصارعة هذا العالم باسم هذه الأرثوذكسية، وكان من البديهي في نظره أن اللاهوت لن يعزز قيمه مطلقاً إلا في مواجهة هذا العالم. وقد بدا له أن عمل داروين يمثل في الحال قمة الرجس "التحديثي"[33]. ومع أنه كان محافظاً فإن هودج مع ذلك كان مفكراً ذا ثقافة واسعة جداً متمرس بالمساجلات الفلسفية، وقد أظهر نفاذ بصيرة متقدماً جداً على ذلك الذي لدى الكثير من "الداروينيين" الفاعلين. ولم يشك داروين من جهته، في ذلك فحافظ على مراسلته باستمرار. ويشرح هودج: إن فكرة التطور ليست خاصة بداروين مطلقاً ولا ينبغي أن تشكل نقطة الخلاف بين اللاهوتيين وبينه. وحتى مفهوم "الاصطفاء الطبيعي" بدا له قابلاً لإعادة تأويل لاهوتية، إن نقطة الخلاف تتمثل في أن "داروين يرفض كل لاهوت، أي نظرية العلل النهائية"[34]. هذا الخلاف اعتبره هودج دائماً خلافاً جذرياً ولا يمكن تجاوزه.

آسا غراي، زميل لويس آغاسيز في هارفارد، صاحب كرسي "التاريخ الطبيعي" تبادل هو أيضاً، مراسلات طويلة ورائعة مع داروين. وقد انطلق من المقدمات ذاتها التي انطلق منها هودج لكنه رفض، فيما يتعلق به، اعتبار نقطة الخلاف هذه نهائية. ومن هنا النقاش المكثف الذي جرى بين الرجلين علانية على مدى سنوات 1870. وقد أعاد غراي في كتاب *داروينيانا* المنشور عام 1876، إثبات "القصد" الإلهي في عمل داروين في الموضع ذاته الذي لم يرَ هودج فيه إلا "مصادفة عمياء": وقد نسبه إلى المبدأ، الذي لم يكن معروفاً بعد، هو مبدأ ظهور التحولات الصغيرة والتي يجري عليها الاصطفاء[35].

---

[33] Charles Hodge، إذا كان الأبرز، فإنه ليس المحافظ الوحيد حتماً الذي يتصرف على هذا النحو، فقد بدا له أن "الداروينية" ستقلب تماماً علاقة العلم بالمسيحية، تلك العلاقة التي تتطلب، كما رأينا، فكرة "القصد" في الكون. وهناك آخرون ليسوا أقل محافظة اكتفوا برفض من الدروينية ما كان يمس مباشرة بنشأة الإنسان.

[34] هودج كان حول هذا البند شديد الفطنة.

[35] يمكن الرجوع إلى تشارلز هودج. *ما هي الداروينية What is Darwinism*، نيويورك 1874، وإلى آسا غراي Darwin on the Origin of Species في مجلة *Atlantic* الشهرية، العدد 6، عام 1860 - ص 109 - 116 و229 - 239.

ولكن، وبخلاف الفكرة التي كانت قد فرضت نفسها حتى هذه السنوات الأخيرة، فإن آسا غراي لا يمكن اعتباره الحالة الوحيدة لمفكر ديني منفتح على النظرية الداروينية. فمنذ عام 1860 حتى عام 1880 وما بعده سنشهد في الواقع تضاعف محاولات دمج تخطيطة *أصل الأنواع* في اللاهوت البروتستانتي. وكان الأسلوب الأكثر ارتياداً يرتكز في القول إن التطور هو "طريقة الخلق". وهذا الأسلوب ليس فيه خصوصية أمريكية فنحن نجده مألوفاً كذلك في إنجلترا. وهكذا فمنذ عام 1871 كان اللاهوتي هـ. ب. ليندون Lindon يؤكد أنه "من وجهة نظر لاهوتية يعبر التطور فقط عن الطريقة التي نفهم بها العمل المتواصل لله على العالم المادي". كما أن الشخص الأرفع مقاماً في الكنيسة الإيكوسية روبيرت راينى Robert Rainy يعلن نفسه تطورياً، وينصح في مقالة معنونة بـ "التطور واللاهوت" في شهر تشرين الأول من عام 1874، اللاهوتيين بأن يشعروا "بالانسجام التام مع داروين"[36]. وفي الولايات المتحدة يخصّ الرئيس المشيخي لكلية نيوجرسي جيمس ماك كوش James Mac Cosh، نظرية التطور بالاستقبال ذاته، أما أمير وعّاظ العصر هنري وارد بيتشر (Henry Ward Beacher) (1818 - 1887)[37] فيدعو إي. ل. يومانس (E.L. Youmans) لتأليف كتاب كبير حول "التطور والفكر الديني"[38].

هذا الاستقبال يمكن أن يدهشنا، فهو يشكل تناقضاً فاقعاً جداً ليس فقط مع ما سيلي ذلك، وإنما مع موقف الكنيسة الكاثوليكية التي عبرت في الوقت ذاته عن رفض مبدئي[39] للنظرية الداروينية. وستخف المفاجأة حينما يتساءل المرء حول

---

[36] لن يكون بوسعي إلا أن أحيل مرة أخرى إلى كتاب جيمس مور الذي يقدم لوحة منهجية للمصالحات بين المسيحية والداروينية.

[37] يبرز هنري وارد بيتشر من بين أوائل "الليبراليين" مع فيليب بروكس، وساهمت اهتماماته الاجتماعية والأخلاقية في شهرته.

[38] انظر جيمس مور 1979.

[39] في بداية سنوات العشرينات، أزمعت الكنيسة الكاثوليكية التخلي عن المعنى الحرفي لسفر التكوين لصالح تفسير روحي ورمزي. لكنها عادت مع بداية بابوية بيوس الحادي عشر إلى مشروع "علم

كاثوليكي" يسعى لأن يستخلص من القوانين الطبيعية صورة للكون تكون متطابقة مع التصورات الدينية. وقد أعلن البابا في 18 آذار 1923: "العلم الحقيقي، الذي ينحني أمام المنبع، أمام إله الحكمة، ولا يبحث عن أي شيء سوى أن يجني من كل مخلوق، حقيقي أو خيالي، طبيعي أو فوق طبيعي، الانسجام العظيم والدائم الذي أقامه الله ذاته فيه عبر إشارات خفية بقصد تكوين نشيد الحقيقة، نشيد الإيمان، نشيد لرب العلوم، للإله الخالق، الموحي والمخلص".

في عام 1936، عمد البابا بيوس الحادي عشر "Pontifica Academia Delle Scienze" (أكاديمية العلوم البابوية) المنبثقة عن "Academia dei Lincei" المحترمة، أول أكاديمية تأسست في أوروبا من قبل الأمير سيزي Cesi عام 1603. وقد أبدت الكنيسة إيثارها لفيزياء الفلك - حيث برع الأب ج. لومانر - والفيزياء، والطب حيث كان لويس باستور بطله. في المقابل تابعت حذرها الشديد حيال الجيولوجيا، وعلم المستحاثات وعلوم النشوء. في عام 1950 عادت الرسالة البابوية *humani generis* المنسوبة إلى البابا بيوس الثاني عشر في هذا الموضوع بالذات إلى تفسير شبه حرفي للتوراة: "لا تصدر الروح عن المادة في نهاية سيرورة تطورية" كما كتب. فالروح نفخها الله سواء في المادة الجامدة أو في جسد الحيوان. إن "وحدة السلالة" (جد واحد مشترك هو آدم) تمثل العقيدة الوحيدة المتطابقة مع "مصادر الحقيقة الموحاة ومع أفعال السلطة الكنيسة حول الخطيئة الأصلية، الخطيئة التي ينبغي نسبها إلى فعل شخصي حقاً ارتكبه آدم والتي بعد أن انتشرت في الكل عبر النسل تعيش في كل فرد وتعود إليه". ويستطيع كل واحد، زمن كتابتها أن يقرأ ما بين السطور إدانة دون لبس لإطروحات الأب تيار دو شاردان، جزويتي وعالم مستحاثات مشهور حاول عرض "الظاهرة الإنسانية" عبر تركيبة فخمة من علوم عصره. (الإحاثة، البيولوجيا، الفيزياء). كل السيرورات الطبيعية تتلاقى عند الإنسان، المحمول هو ذاته بوصفه كائناً شخصياً وهب الوعي والتفكير، ومكرساً لأن يرتقي بسهولة أكبر، عبر هذا الفكر المتنور، إلى حب الله. لم يكن تيار يبشر بالتأكيد بأية داروينية كانت، بيد أن الشكل النشوئي الذي أبده ظل غير مقبول لدى السلطات البابوية، منذ عام 1924، رفض تعليم تيار في معهد باريس الكاثوليكي. وفي عام 1948 أجبرته السلطات العليا الدينية على رفض كرسي كوليج دو فرانس الذي انتخب لشغله وهكذا فرض عليه الصمت ونفي إلى نيويورك حيث مات عام 1955 طي كتمان فظيع. وقد لاحقه الاضطهاد حتى بعد وفاته. فقد صدر عام 1957 عن محكمة التفتيش مرسوم يقضي بسحب كتبه من المكتبات، ومنع بيعها في المكتبات العامة الكاثوليكية، وبوقف ترجمتها! بيد أن "قضية تيار" وعلى الرغم من إيحائيتها، لا ينبغي أن تخفي ملفاً أخرى: وعلى سبيل المثال مثل مأساة هؤلاء الكهنة المختصين 1938، وقد حاولوا، دون أي قسط من النجاح، فصل الكنيسة عن علم الأحداث التوراتي. في عام 1928 اعتبرت السلطة الكنسية العليا أن إعطاء الأرض عمر 200000 سنة يشكل "ضلالاً فظيعاً" بعد أن رفضت التراجع قيد أنملة عن واقعية الطوفان التاريخية وسوف تتمسك حول هذا الموضوع ولزمن طويل بهذا التصريح على الأقل فظاظة لـــ صديق الكهنوت عام 1933: "إن الطوفان حدث مؤكد تاريخياً، وفي طريقه لأن يبرهن عليه علمياً". وفي "تحتية خاصة جداً" سيطلب مجلس الفاتيكان الثاني على الرغم من كونه مجدداً بإصرار وحتى تقدمياً، بالعقلية ذاتها، من "رجال الفكر والعلم" بذلك الجهد لانقياد أكثر انقياداً لروح الحقيقة"، وستتشبث بابوية بول السادس بذلك. وسيعيد البابا إلى الأذهان حتى موقف البابا بيوس الحادي عشر حول وحدة الأصل.

مع جان بول الثاني بدأ الانعطاف. فثمة حركات رمزية قوية - مثل زيارته في حزيران من عام 1982 للمركز الأوروبي للأبحاث النووية CERN وإعادة الاعتبار لغاليله عام 1984 - وكذلك مهدت دعوات

المضمون الذي حمله هؤلاء اللاهوتيون للفظة "النشوء" وسوف يلاحظ في الواقع أن هذا المضمون لم يستمد للمفارقة من أعمال داروين ذاته وإنما من المؤلف الضخم الواسع الشعبيـــة في الولايات المتحدة للفيلسوف الإنجليزي هيربرت سبنسر[40] الذي نشر عام 1862 *المبادئ الأولى* ثم عمل على هضم المفاهيم الداروينية في كتابه *مبادئ البيولوجيا* (1864 - 1867) قبل أن يوسع منهجه ليشمل علم الاجتماع وعلم الأخلاق.

لقد رأينا أن تشارلز داروين نفسه قد شجع الغموض بتوجيه مدائحه المتكررة لسبنسر سواء في كتابه *أصل الإنسان* (1871) أو في كتابه *التعبير عن الانفعالات لدى الإنسان والحيوانات* L'expression des émotions chez l'homme et les animaux (1872). ونعرف من خلال مراسلاته أن داروين لم يكن يحمل في الواقع إلا القليل من التقدير للفيلسوف، وأن مدائحه تتعلق بـــ "سياسة" تحالفات تبين في النهاية أنها كانت ذات نتائج وخيمة. فقد استطاع سبنسر فعلاً وبصورة مفارقة الظهور بمظهر "الفيلسوف الرسمي للداروينية"، في حين أن نظريته لم يكن لها من حيث الجوهر، أية علاقة بنظرية داروين والحال أن كتاب *المبادئ الأولى* Premiers Principes! الذي ناقش في فصله الأول العلاقات بين العلم والدين انتهى إلى الاحتفال "بإعادة مصالحتهما" (عنوان الفصل الخامس).

لقد عرّف سبنسر التطور بأنه قانون فيزيائي ينظم حركة الكون في مجموعه. وهذه الحركة تبرز كانتقال من المتجانس نحو المتغاير ومن البسيط نحو

"للمصالحة" ما بين الكنيسة والعلم الحديث لمداخلات عديدة حول مسألة نشوء الكون. وثمة كتاب جديد جماعي جداً متناولاً الفيلسوف جان غيتون، الذي اشتهر بكونه ملهم البابوات منذ نصف قرن، عبّر عن هذه الروح: ستحاول الكنيسة الكاثوليكية بعد الآن، ملتفة على نظرية النشوء البحث عن لمسة الله في سيناريو "الانفجار الكبير" وقد وجدتها في اللحظة المحددة من تضبيط الثوابت الكونية.. لقد تحول المبدأ "الأنثروبيك" العتيد لبراندون كارتر إلى عقيدة لاهوت استعاري. ربما نشهد انتقام القديس توما..

[40] سبنسر الذي لم يلق النجاح في إنجلترا لأول وهلة حظي بالمجد بسرعة في الولايات المتحدة وللأسباب التي سوف نعرضها، يتحدث سبنسر عن "قانون" النشوء، وسوف تتأثر مفردات "الداروينيين" الأمريكيين به لفترة طويلة. وقد جرى الإعلان عن مؤلفه الضخم الإجمالي منذ عام 1850 تحت عنوان The System of Synthetic Philosophy. ولم تتفك لغة البيولوجيا المعاصرة عن الاحتفاء بـــ "التوليفات"، كما سوف نرى لاحقاً.

المعقد، ومن الفوضى نحو الأشد محافظة. لكن، ولأنه لم يفت المستقبلون الذين استقبلوه ببذخ كبير في نيويورك عام 1882 أن يبتهجوا لذلك، فإن التطور المحمول على هذا النحو قد وجد نفسه ممهوراً بمعنى محدد منذ الأصل: إن الكون يتقدم بحسب قانون للتطور يحدد في كل واقع اتجاهاً مقدراً مسبقاً وفق نظام اكتمال متنامي، وعليه يبدو المجتمع البشري وكأنه الشكل الأعلى من الحياة والمجتمع الصناعي الشكل الأكثر تقدماً لهذا "الجهاز العضوي" الاجتماعي. أية أعجوبة! سيكون من المناسب جداً القول: لقد دعا سبنسر لمبدأ "دعه يعمل" وبين علمياً أنه سينتج عنه، في نهاية المطاف، تماسك أقوى للمجتمع، وتضامن أكثر وثوقاً بين أطرافه، لكونه عقلانياً، على الرغم من وجود الطبقات الاجتماعية. وقد قدم للرأسمالية المتوحشة ربوبيتها الكبرى الأولى. ووسّع في منتصف القرن التاسع عشر منظومة المدلولات بحكاية *النحلات* fables des abeilles الشهيرة لماندفيل التي لعبت دور الحافز لفكر آدم سميث قبل ذلك بمئة وخمسين عاماً. ألم يضرع جورج واشنطن ذاته، كما سنرى فيما بعد - إلى "اليد غير المرئية" الشهيرة في خطابه الافتتاحي للكونغرس الأمريكي؟ وكان هذا ما يستحق فعلاً مأدبة كبرى! ألم تقم بعد مماطلة "نخبة" إنجلترا - الجديدة - وعلى رأسها اندرو كارنيجي - بتنظيمها بتكلفة باهظة ولتظهر فيها ملتفة حول الفيلسوف.

لقد كان الغموض مدمراً للمفهوم الداروينى. ليس فقط لأن داروين لم يستعمل في الواقع قط، كلمة "تطور". بل تحدث بكل طيبة خاطر عن "نظرية نشوء وارتقاء" أو عن "نظرية الارتقاء عبر الاصطفاء الطبيعي"، لكنه اكتفى في *أصل الأنواع* في الجوهر بما يتعلق بمسألة أصل وتحولات الأنواع كما افترضها علماء الطبيعة، وعلى الأخص لم يعزو أي تجاه *قبلي* لسيرورة "الاصطفاء الطبيعي". والتحولات الصغيرة التي يجري عليها الاصطفاء تصيب الأفراد بشكل اتفاقي ولا تنتقل إلى ذريتهم إلا بقدر الفائدة التي يحتمل أن تعود بها على الجهاز العضوي منظوراً إليه في صراعه مع الأجهزة الأخرى من أجل التكيف مع الوسط المعطى[41]. إن نجاح شكل حي محدد بعد هذا "الانتخاب" لا يعني قطعاً أنه هو

---

[41] "أصل الأنواع"، فصل 5.

بذاته أكثر "كمالاً" من غيره. وإنما يعني نجاحاً مؤقتاً ونسبياً لحالة محددة من الوسط الحيوي.

وإذا أردنا ربط المفهوم السبنسري للتطور بنظرية عالم طبيعي ما فإننا يجب أن نربطه بنظرية ج. ب. لامارك[42]. وهكذا فتحت راية سبنسر وباسم داروين، فإن تصوراً لاماركياً للحياة هو ما دخل في الواقع إلى الولايات المتحدة: حياة يفترض بنزوعها الذي لا يمكن اختزاله، دفع الأشكال الحية نحو كمال أكبر فأكبر دائماً بنقلها من جيل إلى جيل السمات التي اكتسبها تحت تأثير "الظروف" أي تحت ضغوط الوسط المادي.

إن مثل هذه النظرية تبدو قابلة للتصالح مع اللاهوت المسيحي بقدر تصالحها مع تصور علماني للتقدم من طراز ذلك الذي بشر به سبنسر اللاأدري. وكان يكفي لتحقيق هذا التطابق نسب اندفاعة الحياة إلى مخطط لدى العناية الإلهية! وهذا ما فعله اللاهوتيون وهكذا، على سبيل المثال، فسر فريدريك تامبل (Frederik Temple) (1821 - 1902) عبر سلسلة من المحاضرات ألقاها عام 1884 حول *العلاقات بين الدين والعلم* Les relations entre religion et science (ونشرت عام 1885) بأن "الاصطفاء الطبيعي" لم يقم إلا بالتعبير عن "الخصائص الأصلية" الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية، "التي تمّ خلق المادة منها". كذلك طرح هنري وارد بيتشر أن "حركة الخلق تتجه نحو الأرقى وتحدد الخطوط والاتجاهات عبر وساطة القوانين الطبيعية".

---

[42] وهكذا سنجد في الولايات المتحدة عدة أنماط من "اللاماركيين": البيولوجيون الذين لقبوا أنفسهم "اللاماركيين الجدد" لأنهم يصرون على "الظروف" بوصفها عوامل نشوء مثل ألفس هيات (1838 - 1892) في بوسطن، وعلى الأخص إدوارد د. كوب (1840 - 1897) الذي نشر عام 1886 The origin of the fittest وبعد ذلك بعشرة أعوام نشر The primary factors of organic evolution. وقد جرى التركيز فيهما على العوامل الخارجية، الأمر الذي أتاح تسوية مسألة الأجهزة التي لا تفيد ظاهرياً في أي شيء. وفي هذا ينضاف طرح كوب إلى طرح اللاهوتي جورج ميفارت الذي وجد لديه براهين لصالح "التلاؤم". وكذلك أيضاً كل أولئك الذين تبنوا اللاهوت السبنسري!

يندرج موقف آسا غراي في هذا التيار، حيث أنه لم يتردد في مقالاته داروينيانا Darwiniana لعام 1876، في أن يكتب بأنه يمكن اعتبار التطور أشبه "باستنباط نظري طبيعي يُنفذ انطلاقاً من القوانين الفيزيائية المعترف بها"، استنباط يفيد في ربط وتنسيق أفعال الطبيعة داخل "كُلٍّ منسجم". ويضيف: "في النظام الداروينى ليست الأشكال والأنواع في كل تنوعاتها، غايات بسيطة في حد ذاتها، لكن الكل يكوّن سلسلة من الوسائل والغايات فيمكن بالتأمل فيها الحصول على رؤية أرقى وأكثر تفهماً لقصد الطبيعة".

وقد تبنى داروينيون آخرون تخطيطة مختلفة قليلاً بتسريب "الاصطفاء الطبيعي" داخل قدرة إلهية قد تكون ماثلة في الطبيعة: وسيظهر التطور على هذا النحو تحقيقاً متدرجاً لمثل أعلى مقرّ منذ البداية في المادة، مثل أعلى سيعي ذاته في الإنسان عبر الحب الذي يكنّه لله. لقد أمكن الحديث عن نوع من "التصوف المسيحي - الداروينى". وتلك كانت مقولة الإيكوسي هنري دريموند (Henry Drummond) (1851 - 1897) الذي، بعد أن قلب، ببلاغة، العنوان الأكثر "هرطقة" في أعمال داروين، نشر عام 1894 كتاب صعود الإنسان The ascent of man [43].

وقدم جيمس مور الدليل الحاسم على ذلك: "الداروينية المسيحية" موجودة وفق قراءات مختلفة، ولها ممثلون بارزون من جهتي الأطلسي. وهذا التعبير كان قد استخدم من جهة أخرى منذ العام 1867. وقد يشار باستثناء ذلك إلى داروينية مزيفة تكون مقولاتها الأساسية مقتبسة من هذا التفسير أو ذاك من أعمال لامارك!

واستخدمت كلمة "التحولية" كلمة سر.. وحين سيظهر الأصوليون، عند بداية سنوات العشرينات، على جبهة نظرية التطور، فإنهم سيهاجمون بعنف هؤلاء المصالحين والذين سيدينونهم بوصفهم خونة. وسيحاولون تجديد اللاهوت الطبيعي الأمريكي التقليدي في أطره. بيد أن رهانهم البارع أدخل في الحساب مشاغل أخرى كثيرة غير تلك التي تتعلق بتفسير نظرية داروين.

---

[43] هنري دريموند ذاته نشر عام 1883 كتاب Natural Law in the Spiritual World الذي يطرح أسس هذه الصوفية.

من هم "الأصوليون" الأمريكيون؟ مع الأخذ بعين الاعتبار للدور المحرك الذي لعبوه في الحملتين الصليبيتين ضد التطوريين فإن الجواب على هذا السؤال سيبتّ بجزء أساسي في تفسير هذا التاريخ: فهل يتعلق الأمر بحوادث بسيطة شهدت أقليات عرقية صغيرة هامشية لكنها متقضبة تعبّر عن ضيق السكان المرتعبين في حالتي أزمة اجتماعية كبرى؟ أم هو رد فعل، خلال سنوات العشرينات، من الجنوب الريفي والغرب الأوسط المحافظ، على الصدمة التي أثارتها الحداثة الصناعية والتي تضمن رخاء أمريكيي الشمال؛ ثم عند نهاية سنوات الستينات، انكفاء أكثر فأكثر جماهيرية نحو القيم التقليدية، جرى هذه المرة من الشمال نحو الجنوب ومن الشرق نحو الغرب من قبل أمريكا مهانة لتورطها في حرب فيتنام، مصدومة بعنف التحرر الجنسي، ثم محبطة بالأزمة الاقتصادية المرتبطة بالصدمات البترولية وكذلك بالتحدي الإسلاموي المتمثل بإيران آية الله الخميني؟ وقد ينبغي عندئذ أن نرى في انبعاثاتها قدراً من هبات ظلامية عابرة لن تنال فعلياً من القيم العليا وحقائق بلد تقدمي بشكل جذري ومكرّس لعبادة البحث التكنولوجي.

ألا يتعلق الأمر بالأحرى، بتعبير أقصوي عن إحدى ثوابت الفكر الأمريكي التي تلتصق بالسياسة الداخلية للولايات المتحدة وتلهم مشاريعها الخارجية؟ إن من يقول "أصولية" فيما يعني "بروتستانتية" وأي استخدام لهذه الكلمة خارج هذا السياق، من أجل تحديد الحركات الإسلامية مثلاً أو الأصولية الكاثوليكية[44] إنما يعني تعسف لغوي كامل، يمكن أن يكشف أغلب الأحيان عن ارتباك فكري حقيقي. والأصح: إذا ما ضربت الأصولية العديد من الدول غير الولايات المتحدة، فإنه

---

[44] راجع توضيح جيل كيبل في La revanche de Dieu "انتقام الله" باريس، سوي 1991، وكذلك برينو إيتيان في الإسلاموية الراديكالية L'Islamisme radical، باريس، هاشيت 1987. إن كلمة "Intégrisme" (الأصولية) على وجه الخصوص لا يمكن استخدامها بصورة شاملة. فهي تخص التراث الكاثوليكي، إذ يطالب الأصوليون المحافظة - أو إعادة تفعيل - l'intégralité كلّ التراث وعلى الأخص الطقسي منه. وهذا لا معنى له كما هو واضح في العالم البروتستانتي، كما لا ينطبق كذلك على الإسلام.

بوسع المرء أن يؤكد أن البروتستانتية الأمريكية هي منبع ذلك، والملهمة لها[45]، أو إذا فضلتم "النموذج الأصلي المحتذى".

لكن في أي اتجاه نتحدث عن "البروتستانتية الأمريكية"؟ وهل تمثل أصالة تسمح على هذا النحو بتميزها عن أية بروتستانتية أخرى؟ بأي حق ننسب إليها وحدة، في حين أن تنوع مكوناتها يبدو بالعكس وكأنه السمة الخاصة بها الأشد رسوخاً؟ هذه الأسئلة يناقشها المؤرخون منذ عشرات السنين.

من الواضح أن البروتستانتية الأمريكية لم تطلع من الأرض كالفطر بعد المطر، فمصدرها كما يعرف كل منا، إنكليزي. وحتى تنوع الكنائس - أكثر من 200 "مِلّة" - هو عقلية إنكليزية، وقد شجعت على سلوكها، لأسباب مختلفة، الحكومة الإنجليزية أيام كانت أمريكا ما تزال مستعمرة. لم يدع إيدموند بيرك (Edmund Burke) الذي كان يرافع عن الثورة الأمريكية داخل إنجلترا معادية، مجالاً للشك في ذلك حينما أشار في خطاب ألقاه بتاريخ 22 آذار 1775 بعنوان "عن المصالحة مع المستعمرات الأمريكية": "إنهم بروتستانت (...) - وهم ليسوا فقط منذورين للحرية، وإنما لحرية مطابقة للمثل الإنكليزية، وعلى قاعدة المبادئ الإنكليزية".

لقد استمد البروتستانت الأمريكيون من إنجلترا، في الواقع، ثلاث قناعات لاهوتية أساسية: إن كائناً من كان، شخصاً أم مؤسسة، لا يمكن اعتباره معصوماً عن الخطأ. وأن الإنسان بوصفه مفطوراً على الخطيئة. على الخضوع لإغراء دائم بمعصية الله، فإن أية كنيسة لا ينبغي أن تتمتع إلا بسلطة محددة[46]: إن إعطاء الكنيسة سلطة قهرية يعني، بحسب تعبير قس ماساشيستوس الشهير جون كوتون

---

[45] جول كوبيل، مصدر مذكور.

[46] نرى أن القضية المدعوة بـ "الفصل" بين الكنيسة والدولة تطرح فيه بطريقة تحدد بأكثر من لونية قياساً بالقضية الفرنسية عام 1905: يمكن القول إن الأمر يتعلق بداية بإعفاء الكنيسة من سلطة الدولة وليس إعفاء الدولة من سلطة الكنيسة. وسوف نرى لاحقاً في النقاشات حول "علمانية" الدولة في الولايات المتحدة، كيف أن التاريخ قد زور أوراق اللعب.

John Cotton "أن تجعل من الكنيسة وحشاً"؛ ولكنه في المقابل فإن كل كنيسة يجب أن تكون حرة في تحديد قواعد عملها وفي تفسير كلمة الله، وفي تكييف حياة مؤمنيها وفق التفسير التي تعطيه للإرادة الإلهية. يبقى مع ذلك مفهوماً أن السلطة الوحيدة التي تستطيع كنيسة ما طلب الخضوع لها هي سلطة المسيح. هذه القناعات الثلاث ترتبط في الواقع بتراث لاهوتي واحد، وبالتالي فإن البنوّة لا تثبت إذن مع المجموع اللامتمايز للبروتستانتية الإنكليزية، وقد وصل الأمر بأحدهم حد أن يكتب:

"الله الذي يعبدونه في أمريكا هو الله الذي التمسه جان كالفن". وفي الواقع فعند نهاية المرحلة الاستعمارية (1787) كان الكالفينيون يشكلون، بعد دمج كل الكنائس، 85% من الأمريكيين بحسب تقديرات المؤرخين. بيد أن الكالفينية ذاتها لم يتلقوها من جنيف مباشرة، وإنما أخذوها من حركة خاصة جداً ازدهرت، على الرغم من التقلبات، في إنجلترا من عهد إليزابيت الأولى (1558 - 1603) إلى إصلاح شارل الثاني (1660) هي "الطهرية Puritanisme ويشار إلى هذه الفترة عادة على أنها "العصر الطهري".

وتشير كلمة "طهري" التي دخلت اليوم في اللغة الدارجة إلى كل سلوك زاهد وصارم في مسائل الأخلاق. وقد أخذ في البلاد التي تسيطر فيها الكاثوليكية مدلولاً تهكمياً. بينما يظهر الواقع التاريخي للطهرية مختلفاً جداً.

فحين تجمعوا ثانية في إنجلترا عند نهاية القرن السادس عشر، كانوا يريدون "تطهير" الدين: الذهاب إلى مدى أبعد في رفض "اتباع البابا" مما ذهبت إليه الملكة بإنشائها للكنيسة الانغليكانية (الـ 39 مادة): فقد أخطأت، من وجهة نظرهم، بالإبقاء على الجوهري من عادات وشعائر وطقوس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. أما هم فإنهم تبنوا ديناً "طاهراً" متمركزاً على الالتزام الشخصي في الإيمان.

لم يكن هدفهم مع ذلك "رد فعل" فقط، بل كانوا يريدون "إعادة إحياء" الدين. وقد استندوا إلى كتابين أساسيين وصلاهم من القارة: *العشاريات* "Decades" لـ

هانريش بولنجر (H. Bullinger) والمدونات "Institutes" لجان كالفن. وقد بنى جون كنوكس J.Knox على هذه القاعدة عام 1560 الكنيسة الإيكوسية المعروفة "بالمشيخية".

بيد أن الكتاب الأهم الذي سيرفع لواءه الطهريون الإنكليز المتزايدون باستمرار، كان التوراة. وسيجري الحديث عن حركة من أجل الكتاب واسعة والتي استفادت من حركة النشر المكثفة التي كانت تهدف إلى إصدار نسخ شعبية من الكتاب المقدس. أولى هذه النسخ المزودة بملاحظات هوامشية ومحاطة بالتعليقات كانت ما عرف تحت اسم "توراة جنيف" التي نشرت عام 1560. وستظل قيد الاستخدام إلى أن حلت محلها النسخة التي قاد وأشرف على تحريرها الملك جاك الأول عام 1604. وستكون "مهد الطهرية" في إنجلترا أو إذا شئتم "قاعدتها" في جامعة كامبريدج، وبشكل خاص إيمانويل كوليج. ويتفق أنه في عام 1625، وبعد ارتقاء تشارلز الأول العرش، أن يفرض على إنجلترا ملكة فرنسية وكاثوليكية مخلصة، وقد بدت سياستها الخارجية ميالة لصالح فرنسا. فبدأ الطهريون الموهنو العزيمة نتيجة للملاحقات التي تعرضوا لها من جديد، سلوك طريق المنفى: نحو هولندا في البداية، ونحو أمريكا فيما بعد في موجات متلاحقة منذ عام 1620 وحتى عام 1640.

وحملوا معهم الاعتقاد بأن الكنيسة ينبغي أن ترفض أية صلة مع الدولة، وبأن قاعدة التنظيم الكنسي ينبغي تكون الكنيسة المحلية - وهذا هو بصفة خاصة اعتقاد أولئك الذين سيعرفون لأجل هذا السبب باسم "الأبرشانيين Congrégationalistes". كما نقلوا إلى أمريكا أيضاً يقيناً آخر عبّر عنه بقوة فوكس جورج (Fox George) (1624 - 1690) بالقول: إن إنجلترا كانت "شعباً مختاراً" مكرساً لإنقاذ البروتستانتية. وباتوا يفكرون الآن بأنه من الواضح جداً بأن هذا الخلاص لن يُنجز في إنجلترا ولا في أوروبا ذاتها بصورة أشمل لأنهما تتعرضان للهجوم البابوي المضاد مدعوماً بالدسائس الفرنسية. إذن هذا ما سيجري في أمريكا، الأرض العذراء، في مستعمرات التاج القديم. ومن هنا الفكرة بأنهم سوف يشكلون "شعب الله" والذي سيصبح العالم الجديد بالنسبة له أورشاليم الجديدة. ينبغي

مع ذلك أن نضيف إلى هذه الجذور الإنكليزية، ظروفاً أمريكية خاصة تتعلق بشروط الحياة غير المسبوقة التي توجب عليهم العيش في ظلها ومواجهتها لدى وصولهم إلى القارة الشاسعة. إن توزع السكان فوق أرض واسعة إلى أقصى حد جعل من المستحيل في الواقع قيام أي شكل كان من نظام خوراني متين يقتضي قيامه استيطان دائم ومتحضر لشبكة كثيفة من القرى، وسيبدو في الحال أي نشاط تراتبي ومترابط للمؤسسة الكنسية غير قابل للممارسة. وعليه فإن نوعاً من "المحلية localisme" يميز البروتستانتية الأمريكية عن أية واحدة أخرى. ولأنه توجب الانطلاق بسرعة والارتجال، فإن تأثير العلمانيين بات عظيم الأهمية في شؤون الكنيسة. وفرض تصور "ديموقراطي" نفسه: "أفراد الرعية هم الذين أسسوا الكنائس وبنوها وموّلوها" فلن يكون للقس إذن أية سلطة سوى الأخلاقية.

وسيتلو ذلك حماس ديني من طراز جديد، سيشجعه في القرن الثامن عشر صعود "الميتودية methodisme" التي أسسها جون ويزلي (J. Wesley). ولأنه لم يكن بالمستطاع تنظيم خورانيات مزودة بما يكفي لاستيعاب المؤمنين، فقد توجب مخاطبة الفرد مباشرة وقيادته إلى أن يقرر هو ذاته، وداخله، تجريب حب الله. ومن هنا تلك الخطب الوعظية الكثيفة التي تثير إلى أقصى حد الشعور بالأثم لدى كل شخص - الإحساس المؤلم بالخطيئة - من أجل دفعه لمتابعة سلوك الطريق القويم، أو للعودة إليه. وقد أتاحت هذه الخطب في القرن الثامن عشر الفرصة لدفعة من "الإحيائيين" - الذين بلغوا إنجلترا أيضاً - عُرفت باسم "اليقظة الكبرى" وما زالوا يميزون الكنيسة الإنجيلية اليوم أيضاً.

هكذا بدت، ملخصة باقتضاب، السمات الأصلية والمبتكرة الأكثر تمييزاً "للبروتستانتية الأمريكية" وقد اجتازت هذه السمات القرون ووسمت دين هذا البلد: بالتنوع، وبالاستقلال حيال الدولة، والطهرية، والألفية - (الخلاصيين)، وباستدعاء الشعور بالإثم الفردي، وورع انفعالي.

وستقوم الأصولية بتشديد هذه السمات.

يناقش المختصون التاريخ الذي ظهرت فيه هذه الظاهرة في تاريخ الولايات المتحدة. وقد اتفقوا عموماً على سنة 1910 لأنه في هذا الوقت دخلت الكلمة في الاستخدام. وقد درست ظروف نشأتها عن كثب. فقد قررت شخصيتان ثريتان من لوس أنجلوس هما الأخوان ليمان وميلتون سيتوارت أن يؤسسا حينذاك صندوقاً خاصاً برأسمال قدره 250000 دولار من أجل نشر سلسلة من اثني عشر كتيباً ستسمح للجميع – قساوسة، بروتستانت وإنجيليين، مدرسي وطلاب اللاهوت، مسؤولي YMCA... - بمعرفة الأساسي من اللاهوت المسيحي. وقد أسموا هذه السلسلة بإسم: الأساسيات لصالح الحقيقة". وقد أعدت عبر موجة من المؤتمرات التوراتية بدأت في إنجلترا، ثم امتدت إلى الولايات المتحدة منذ سنوات 1880 تحت راية "الممتنعين dispensationalistes" وهم إنجيليون متطرفون كانوا يبشرون بمملكة المسيح عبر تقديم قراءة "حرفية" للتوراة. وحين ظهر الجزء الثاني عشر كان قد وُزع ثلاثة ملايين جزء[47]!

وثمة من يرى أن هذه المبادرة لم تأت من كنيسة بعينها. وإنما ستحظى باهتمام جميع الطوائف، ولكن على الأخص اثنتين من الطوائف الأكثر أهمية هما: المشيخية والمعمدانية اللتان تتقارب مفاهيمهما اللاهوتية، المستمدة من كالفينية صارمة، تقارباً شديداً في المحصلة. وقد لاحظ مؤرخون عديدون أن هذه الحركة قد بُدئ بها منذ عام 1876 من خلال تأسيس مجموعة من القساوسة المنتمين إلى عدة كنائس بمناسبة اللقاءات السنوية المكرسة لدراسة التوراة. وقد نظمت هذه المجموعة مؤتمري Prophecy Conferences اثنين خلفا صدى واسعاً جداً في البلاد عام 1878 في نيويورك في كنيسة "Holy Trinity Episcopal"، في عام 1886 في شيكاغو. وقد صارت هذه النجاحات فرصة لإطلاق سلسلة من الخطب الوعظية تحت راية "الامتناعية". وخلال الندوات العامة والخطب الوعظية جرى التعبير بقوة عن الرأي القائل بأن العالم المسيحي بمجموعه كان في طور الغرق في الكفر

---

[47] انظر ج. مارسدن 1991، مصدر مذكور ص 39 - 44.

والهرطقة، ويبدو هذا السقوط عميقاً جداً ومتعذر الخروج منه لدرجة أنه يؤذن، دون أدنى شك في نظرهم بنهاية الأزمنة. ومن هنا الضرورة القصوى للكرز في كل مكان بالكلمة الإلهية بقصد الاستعداد للدخول إلى "المملكة" بعد الخروج من "عصر الكنيسة".

من الواضح أن هذا الاعتقاد وهذه النبوءة لم يكونا جديدين، وقد وجدا نسخة حديثة من خلال التعليم المهووس لجون نيلسون داربي (J.N.Darby) (1800 - 1882) الذي كان قد أسس عام 1828 "The Plymouth Brethren" من أجل حث المؤمنين على الانفصال عن الكنائس القائمة والاستعداد لعودة المسيح الوشيكة: إذ إن مملكته ستبدأ وستستمر وفقاً للكتاب المقدس لمدة ألف عام. وقد كان داري هذا نفسه قد جاء إلى الولايات المتحدة لإلقاء مواعظه سبع مرات متتالية ما بين عامي 1862 - 1875.

وقد استعاد الأفكار ذاتها سايروس انغرسون سكوفيليد (Cyrus Ingerson Scoffield) (1843 - 1921) وهو أحد تلاميذ داري. ولا يزال تأثير سكوفيليد بالغ الأهمية حتى اليوم بسبب طبعة التوراة التي كرّس نفسه لها بعد تحوله عام 1879، فقد استخدمت "Scoffield Refernce Bible" المنشورة عام 1909 ثم المفسرة عام 1919 من قبل كل القساوسة المحافظين في مدارس الأحد. وقد جرى نشر نسخة منقحة منها عام 1966. ويعلن سكوفيلد في تعليقاته قيام ملكوت المسيح وإعادة بناء مملكة داوود حوالى العام 2000 [48]!

لن يستطيع المرء فهم القوة الواسعة التي اكتسبتها الأصولية في الحال، إذا لم يضع نهوضها في إطار الجدل الكثيف الذي كان يخترم الكنائس الأمريكية منذ عشرات السنين. وقد أثمر هذا النقاش في الواقع عن تعزيز اتجاه جديد في إطار البروتستانت الأمريكية: إنه ذلك *اللاهوت الليبرالي* الذي صادفناه سابقاً، وقد رأينا

---

[48] إلى جانب سكوفيلد، وحول دوايت ل. مودي، تقوم شبكة من الدراسات التوراتية (لوس انجلوس، فيلادلفيا..) تعقد ندوات حول النهج المماثل ألفي ونعثر عليها في تعليقات المترجم. "فالحضارة المسيحية" لم تكن سوى طعماً، ودنيوة Sécularisation المجتمع تبرهن الأمر وكذلك ارتداد الكنائس. غير أن التوراة تخبرنا، بعد سبع سنوات من العنف والاضطرابات، بقيام المملكة.

كيف أن "الليبراليين" كانوا يرومون ملاقاة التحولات الاجتماعية العميقة التي كانت تصيب الولايات المتحدة والتي كانت تقلب أساليب الوعظ والإرشاد التقليدية رأساً على عقب، وقد حاول هؤلاء الليبراليون ذاتهم تسوية الصعوبات التي كان يعانيها اللاهوت نتيجة للاكتشافات العلمية الأحدث وللتطورات النقد التوراتي المعاصرة.

كما يتعلق الأمر هنا أيضاً بحركة منظمة، مهيكلة تخترق مختلف الكنائس، يهدف قادتها إلى "تحرير" الدين من الظلامية ومن الاعتقادات الباطلة، وإلى ربط التراث المسيحي بإنسانوية ايراسم وإلى شيء من تراث التنوير. "وقد طرح هؤلاء "الليبراليون" رؤية متفائلة للطبيعة البشرية، وأصروا على قدرة الإنسان على العودة إلى طريق الصلاح. وتظهر الخطيئة بوصفها خطأ ناجماً عن عيوب في التربية وعن المظالم الاجتماعية. وبسبب ذلك فقد تلاشت فكرة الخطيئة الأولى، الغالية جداً على قلوب الكالفينيين. وبانت الموعظة فوق الجبل نصاً مرجعياً لتبشير ذي نغمة أخلاقية. أما فيما يتعلق بنص العهد القديم، فإن البروتستانت الليبراليين لم يخشوا استخلاص العبر من التأويل ومن النقد الذي تطور في ألمانيا. ولم يترددوا في الاستشهاد بحياة *المسيح* (1835)، وبمحاكاة أبحاث *اللاهوت التاريخي* للكاتب الشهير أدولف فون هارناك (Adolph von Harnack) (1851 - 1930) وكذلك أبحاث اللاهوت المقارن التي انتشرت آنذاك بكثرة في أوروبا حينما جرى اكتشاف الهندوسية والبوذية.

بعد أن جرى التشديد على تصور للتربية المسيحية ينبغي أن يغلب عليه تعليم الأخلاق، قد أسسوا عام 1903 "جمعية التربية الدينية" وفي عام 1922 "المجلس العالي للتربية". وسيظل مرجعهم كتاب "Christian Narthure" لمؤلفه هوراس بوشنيل (Horace Bushnell)[49] الذي أعيدت طباعته في بال عام 1916. وغالباً ما اعتُبر نشر هذا الكتاب رمزاً "لانعطاف" حقيقي في التربية، وفي الوعي الدينيين الأمريكيين: فقد توطد عبر ريشة مؤلفه مفهوم للدين يدير في الواقع وعلى

---

[49] يمكن القول إن الانطباع الغالب في الكتاب متفائل، ذلك أن الميل نحو الله هو الذي جرى تقديمه أكثر من وعي الخطيئة.

الرغم من عدم قول ذلك، ظهره "للاهوت الطبيعي"، مفهوم ينتسب لمفهوم الفيلسوف واللاهوتي الألماني فريدريتش شلييرماشر (1768 - 1834). وبحسب ما يرى بوشنيل فإن اللاهوتي ينبغي أن يكف عن العمل على جمع "الوقائع" وعلى بناء معرفة لاهوتية عبر منهج استقرائي، لأن الجوهري في الدين يقوم في نظره على تجربة داخلية تعجز اللغة البشرية عن التعبير عنها.

لقد اصطف بوشنيل بدعمه لمثل هذه الأطروحات إلى جانب الشاعر والمسرحي والناشر والمفكر الإنكليزي الشهير صمويل تايلور كوليردج S.T. Coleridge (1772-1834) الذي أدان ويليام باليي بوصفه "أشد أعداء" المسيحية. فقد سعى مؤلف Aids to Reflexion (1825) في الواقع إلى اعتبار كل محاولة لبرهنة العبارات اللاهوتية "كما لو أنها نظريات في الهندسة" "مخالفة للدين".

ويرى أن الإيمان يفترض "الإخلاص"، ويستدعي إمكانية الشك المفتوحة دائماً. فحين يتحدث المرء إذن عن "بداهات" تقوم عليها المسيحية، فإنه يخون العقل؛ وقد دعا بترجمته لشيللر إلى مسيحية داخلية مطابقة للعرف.

هذا المفهوم للدين، الجديد تماماً في الولايات المتحدة، لم يتوطد دون صراعات، ولم يتوصل مطلقاً للحصول على الإجماع. وقد يكون من الأنسب إذن بدل الحديث عن "انعطاف" الحديث عن نهاية هيمنة، وعن افتتاح مرحلة يتعايش فيها تصوران (وممارستان) للدين لصالح القادم الجديد.

يبقى أنه تفرعت عن هذه "البروتستانتية الليبرالية"، الحركة المدعوة بـ "الإنجيل الاجتماعي" "Social Gospel"، والتي سيكون كتابها الرئيسي هو الكتاب الذي ألفه والتر راشنبوش (W. Rauschenbusch) بعنوان " Christianism and the social crisis". وقد نالت الأسطر الأخيرة منه بالضبط الشهرة الواسعة, ونقرأ فيها: "إذا كان القرن العشرون سيقدم لنا، في ميدان ضبط القوى الاجتماعية، ما قدمه القرن التاسع عشر من أجل ضبط قوى الطبيعة، فإن أحفادنا سيعيشون في مجتمع سيبرر لهم اعتبار مجتمعنا الحالي شبه بربري. ومنذ أن بدأت البروتستانتية بتحرير

العقل وتوجيه قوة الدين نحو الأخلاقية، فإن الحركة قد تسارعت بصورة محسوسة". وقد قدم تشارلز م. شيلدون (Ch. M. Sheldon) قراءة شعبية لهذه المقولات في كتابه In His Steps، الذي بلغت مبيعاته ملايين النسخ. إن الدرس المستخلص من هذه القصة الروائية شديد الوضوح: إن المهم في كل لحظة هو طرح السؤال: "ماذا كان سيفعل يسوع؟"

لم يكفّ المتمسكون بـــ "الإنجيل الاجتماعي" عن انتقاد النزعة المحافظة عند رجال الدين البروتستانت، ولفت انتباههم نحو المظالم الاجتماعية التي أضحت صارخة أكثر فأكثر في هذه المرحلة من "الرأسمالية المتوحشة". وقد نبهوا على وجه الخصوص إلى القسوة اللاإنسانية لوضع الطبقة العاملة. ومنذ عام 1868، أطلق جون باسكوم (J. Bascom) المدرس في كلية ويليافر (آندوفر) إشارة البدء في مجلة "Bibliotheca Sacra". وسينضم إليه واشنطن غلادن (W. Gladden) (1836 - 1918) الذي سيصبح نقده للمبادرة الحرة أكثر فأكثر عنفاً على مر السنين، مع كتابه Tools and man عام 1893 إلى كتابه a Social Salvation عام 1902. وقد تأسست عام 1895 في نيويورك " National Federation of Churches and Christian Workers" (الفيدرالية القومية للكنائس والعمال المسيحيين) التي أسست هي ذاتها عام 1905 (المجلس الفيدرالي لكنائس المسيح في أمريكا Federal Council Churches of Christ in America").

صحيح أن "اللاهوتيين الليبراليين" و"الإنجيل الاجتماعي" قد قوبلا بترحيب خاص في شمال البلاد كان أكثر تحضراً، وبين مثقفي الساحل الشرقي. وقد كان لهما تأثير كبير، وشبه مهيمن، على أتباع الأبرشانية والميتودية قليلي التزمت.. وما من شك في أن "الأصولية" قد استطاعت الاستناد، في تحركها ضدهم، إلى المشاعر المحافظة في الجنوب، وإثارة العداء - للثقافة التقليدي لدى الجماهير الفلاحية[50] في تلك المنطقة ولا ينبغي مع ذلك الاستنتاج بأن الحالة يمكن أن

---

[50] انظر حول هذا الموضوع كتاب: Anti - Intellectualism in America Life نيويورك 1963 لمؤلفه R. Hofstadter.

تُلخص بالمعارضة بين شمال مهموم بالقضية العمالية وبين جنوب تجاهلها. ففي الواقع، نحن نعلم من جهة، أن العديد من الجماعات الأصولية قد تأسست منذ وقت مبكر جداً في الشمال، وسنشير إذن إلى أن الفيدرالية القومية لمعمدانيي الشمال الأصوليين: "National Federation of fundamentalists of the northen baptists" بقيادة جون ر. ستراتون، موجودة في نيويورك منذ بداية القرن، والتي شارك فيها آرزي. سي. ديكسون A. C. Dixon، أحد مدراء مجلة The Fundamentals. ومن جهة أخرى فإن الحركة الأصولية لم تتجاهل مطلقاً القضايا المرتبطة بتطور الصناعة. وتشهد على ذلك مسيرة ويليام جينينغز بريان (W.J.Bryan): فإذا كان قد اشتهر في البداية بوصفه البطل الخالص لمزارعي الجنوب، فإنه سيصبح بعد وقت قريب البطل - التعس - لتأميم الخطوط الحديدية بعد عام 1900. يبقى أن الأصولية كانت تتقدم شاهرة التوراة بيمينها للوقوف ضد ما تعتبره انحرافاً لاهوتياً خطيراً، انحراف سيعتبره الأكثر تطرفاً من بينهم على أنه الانتصار - المؤقت - لعدو المسيح! ورسالتهم، حول هذه النقطة، بسيطة: ينبغي الإيمان بالحقيقة الحرفية للتوراة التي نصها بالكامل ومباشرة وحي إلهي.

هكذا بدت الخلفية التاريخية للهجوم المفاجئ للأصوليين على النشوئية في بداية سنوات العشرين. ويغري تعقيد الوضع باتخاذ المواقف، والاختلاف حيث يمتزج اللاهوت بالسياسة دون أن تتطابق الحدود تماماً. وعند النظر إليه من الزاوية السياسية فإن الحد الذي يفصل اللاهوتيين التقدميين عن المحافظين يمر بين معتنقي اللاهوت الليبرالي وبين الآخرين جميعهم. والحال أن هذا اللاهوت يرفض كل "لاهوت طبيعي" سواء كان صارماً (هودج) أو تطورياً (غراي). وبقول آخر، فإن "الداروينيين المسيحيين" قد وجدوا أنفسهم في الخندق ذاته الذي يقف فيه خصومهم العقائديون الأشد شراسة.

لم يعد اللاهوتيون الليبراليون يحفلون مطلقاً بالعلوم: ذلك أن علم الأخلاق هو الذي بات يمثل هاجسهم الأكبر، بعد أن جرى بعثه عبر دراسة للمسيح ممحصة. وقد رأوا في الأخلاق هذه كسباً متدرجاً عبر ترسيخ تربوي أكثر مما هو

عبر اهتداء (تجدد) فج. وبرغبتهم بتكييف اللاهوت والممارسات الدينية مع الحركة المتسارعة للعالم الحديث فإن المخاطرة تبدو عظيمة لدرجة أن طروحاتهم قد تقضي عليها وتكنسها الأخلاق الدنيوية التي تحرك هذا العالم.

هذه الأخلاق ألزمت الطهرية فعلاً بالانقلاب على قواعدها الخاصة. فالكالفينية الأصلية تمنح العمل قيمة الوسيلة للحصول، عبر النجاح في هذا العالم، على إشارات هشة دائماً بخلاص غير مؤكد مع المشاركة في الوقت ذاته في مجد الله. وقد بدئ، مع القبض على زمام السلطة الاقتصادية والسياسية، باكتشاف "أشخاص صنعوا أنفسهم بأنفسهم" والذين يفاخرون بنجاحهم صلفاً. وقد أضحت الوسيلة غاية، والثروة والنجاح خيراً بذاتهما وبالعكس، بات الفقر شراً. كأن الكالينفية تسير بالمقلوب! أفلم يكن الوقت المناسب لتنكيرهم جميعاً بأن لا أحد بالضبط "يصنع نفسه بنفسه"، وبأن هذه العبارة هي تجديف خالص، ولجعلهم يدركون مجدداً هذه الحقيقة الأولى في المسيحية: أن الله هو الذي "خلق" الإنسان. هكذا بدا بالضبط معنى الحركة الإنجيلية المكثفة التي سبقت الظهور التاريخي للأصولية بوصفها هذا. والتي اصطدمت حينذاك بعقبة كأداء: النظرية العلمية التي تقول بأن الإنسان صنع نفسه بنفسه، أو، على أقل تقدير، تبرر أن يكون بمقدور شخص ما اعتبار أنه صنع نفسه بنفسه: النظرية الداروينية في التطور.

وقد تكشفت لحظة من التردد في الـ Fundamentals عبر عدة مقالات تدافع عن مقولة التطور بوصفه "منهجاً في الخلق"؛ لكن، بعد عشرة أعوام، لم تعد المساومة مطروحة للبحث.

إن التقاسم ينبغي أن يجري في صفوف اللاهوتيين المحافظين ما بين أولئك الذين يدافعون عن "اللاهوت الطبيعي" الأرثوذكسي وأولئك الذين يبحثون عن حلول وسط مع "الداروينية". وعلى كل أولئك الذين يمتنعون عن ذلك التجمع من أجل انتزاع السلطة في الكنائس والمدارس من يد اللاهوت الليبرالي العاجز عن مقاومة الفلسفة "المادية" و"التقدمية" التي تبدو في طريقها نحو تحقيق النصر مع وجود الصناعة الكبيرة والتمويل الوفير. وقد استخلص الأصوليون العبر من تجربة

طويلة، فرمموا اللاهوت الطبيعي الأثونكسي على قاعدة فلسفة لإدراك السليم Common sense ووسعوا وبسطوا الأشكال المؤثرة من الوعظ الإنجيلي الذي أثبت نجاعته. واحتفظ النشاط العقلاني الصارم "للاهوتيين الطبيعيين" في بداية القرن، بمستوى وأسلوب أكاديميين: سيتعلق الأمر بتمجيده وبجعله يبدو وكأنه، إن جاز لي القول، "علماً موحى" لخدمة أخلاق سيكون من الواجب زرعها في المدارس.

هكذا بدت بعض الدوافع الأساسية التي حدت بالأصوليين لبدء هجومهم على "النشوئية" خلال سنوات العشرينات، في حين أنهم لم يعيروها أي انتباه مطلقاً في نصوصهم التأسيسية، بل أن بعضاً منهم قد ساند حتى المقولة التي ترى في التطور "منهج خلق".

لقد أصبحت فكرة "التطور"، بفضل زحلقة المعنى نسبة إلى النظرية الداروينية في النشوء، الراية التي تجتمع حولها كل القوى في أمريكا اليانكية: لاهوتيون ليبراليون، علماء وضعيون، رجال أعمال "ماديون" محكومون بتقديس الربح... لقد بدت الحملة الصليبية الأولى الخلقية، على الرغم من بعض تفرعاتها في الشمال التي تتطابق مع هجوم مضاد محافظ داخل الكنائس في مواجهة المسألة العمالية، بدت وكأنها حملة الجنوب الزراعي والتقليدي المرتعب أمام هذه التقلبات. جنوب لم يكن مستاء من الظهور بوصفه حامل لواء الهواية الأمريكية وقيمها الأغلى في مواجهة أولئك الذين هزموه بنتيجة حرب الانفصال. ألم يكن أساساً تحت اسم هذا "التطور" العتيد، المتمثل بـــ "تقدم" "الحضارة" أن قام متقفو الشمال بإدانة النظام العبودي؟

ينبغي القول إن المنحى الذي اتخذته ما يجب فعلاً أن ندعوها "البروباغندة" الداروينية استطاع بسهولة تعزيزهم في قناعاتهم ومساعدتهم على اكتساب جمهور واسع.

النشوئية وخطر العقائدية

كان قد لوحظ، منذ نشر كتاب *أصل الأنواع*، ظهور معتنقين يستندون إلى داروين من أجل تشجيع فلسفة كفاحية إلحادية جهراً. ولم يكن الأمر يتعلق بمنظرين

عاديين، كما تشهد بذلك شخصيتا قائديهم الأولين، فهما عالمان على درجة كبيرة من الأهمية توماس هيكسلي "المجالد" الذي لا يكل، والصديق الحميم لداروين الذي اعتبر نفسه "جندي العلم" المشتبك في صراع مفتوح مع الدين، حتى لو كان قد وجه للكنيسة الكاثوليكية[51] الجوهري من سهامه. إن "المشهد الأولي" للمعركة ضد ويلبرفورس قد وسم لعشرات السنين، بسمة مناهضة الإكليروس العدوانية، الحركة "الداروينية" التي ظل هيكسلي أحد زعمائها المتقدمين دون منازع، على الرغم من عدم توافقه العلمي مع داروين حول استمرارية السيرورات التطورية التي كان، من جهته، ينكرها[52] وقد جاء العمل الذي حاز الإعجاب العام لعالم الطبيعيات الألماني الكبير إرنست هايكل ليعمق هذه السمة. فقد نشر هذا المختص المشهور، في دراسة اللافقاريات البحرية، "الشعاعيات" عام 1866 كتابه *"المورفولوجيا العامة"* ثم عام 1868 *"قصة خلق الكائنات المنظمة وفق القوانين الطبيعية"* وقد بلغت شهرته مداها مع كتابه: *ألغاز الكون* وهو كتاب تعميمي وبدا كأنه بيان رد على لاأدرية الفيزيولوجي البرليني إيميل دي بوا رايموند *Emil Du Bois Reymond* (1818 - 1896)[53] وسيباع 400000 نسخة من هذا الكتاب في ألمانيا، وسرعان ما سيترجم إلى كل اللغات ليحطّ حتـــى على مكتب فلاديمير إيليتش لينين الذي لن يخفي حماسه[54] لماديته الكفاحية.

لقد دمج هايكل النظرية الداروينية في نظام فلسفي واسع. والذي وصف طرحها الميتافيزيقي بأنه "واحدي *moniste*". وسوف يجد العلماء من أجيال عديدة، ومن خارج حلقة البيولوجيين، أنفسهم في المثل الأعلى للعلم الذي صاغه لهذه

---

[51] اشتهر هيكسلي، على الأخص، بهجماته على اللاهوتي الكاثوليكي جورج موفارت (1827 - 1900) الذي كان يستند إلى الفيس أوغسطين من أجل إخلاء المكان للنشوء.

[52] كان هيكسلي، كما سنرى، على صواب فيما يتعلق بإحدى المسلّمات الفلسفية والتي ستستفيد "النشوئية" منها لتفسير نتاج داروين في إطار فلسفة عامة للتقدم. ربما كان عداؤه السياسي لفلسفة أوغست كونت - متحمس للامارك - هو الذي هداه إلى هذا الموقف.

[53] يعرف خطاب دي بوا ريمون تحت اسم : "خطاب الـ *Ignorabimus*" وهي عبارة حدد بها الفيزيولوجي حدود المعرفة التي يتعذر تجاوزها حسب اعتقاده.

[54] ف. إ. لينين: المادية ونقد الفكر التجريبي 1908.

الغاية. وقد شرح هايكل في سياق محاضرة ألقيت في ألتنبورغ ونشر نصها عام 1892[55]، أنه "فوق كل اكتشافات الذهن الإنساني الأخرى تتربع نظرية النشوء الحديثة خاصتنا" وبحسب رأيه، فقد حدسها غوته، وأكملها لامارك، لتتوضع أخيراً فوق قواعدها العلمية على يد تشارلز داروين. وقد ادعى عالم الطبيعيات الألماني أنه يريد فقط "إكمالها" وعند قيامه بذلك أخرجها عن طبيعتها. أما أهمية النظرية الداروينية فيراها في واقع أنها أسست "تفسيراً ميكانيكياً لأصل الأشكال الحيوانية والنباتية.." (...) و"أظهرت فعلياً ما هي الأسباب الميكانيكية الحقيقية لتطور الأنواع العضوية". وينبغي أن نُفهم كلمة "ميكانيكي" التي تكررت حد الإرهاق، بمعنى "الفيزيو - كيميائي". ويشرح قائلاً: إن "التحركات الجزيئية" للبلاسما الضوئية هي التي تستثير الظواهر الحيوية. ففي عملية إعادة الإنتاج، يقدم كلُ من الأبوين حصته من البروتوبلاسما والتي خضعت "لتأثير" الوسط الطبيعي حيث عاش كل واحد منهما، من خلال عملية التغذية؛ تغذية تحرض حركات جزيئية داخل "نسيج كل عضو من أعضاء الجسد". إن هايكل يدعم، انطلاقاً من هذا التنظير الجريء على الأقل، نوعاً من "اللاماركية الجزيئية" الخيالية والتي يوسّعها تحت شكل (قانون نمو عمري أساسي loi biogénétique fondamentale) مكلف بإعادة ربط مقولة الوراثة بالمعطيات المعاصرة لعلم الأجنة: فكل عضوية يفترض فيها، خلال نموها، أن تعيد اجتياز بسرعة متسارعة المراحل التي سبق أن اجتازها للوصول إلى حالة النضج، الأسلاف في نوعها. وبمصطلحات علمية: "إن تطور الفرد يلخص تطور السلالة". ويدمج الكل، على طريقة سبنسر، في مفهوم عام للكون، والذي يبدو وكأنه يدار بقانون "للنمو" أو الاكتمال التدريجي يفرض سلطته ليشمل تاريخ البشرية. هاكم إذن بطل آخر من أبطال "النشوئية" وليس من أقلهم

---

[55] الكتيب *الواحدية Monisme* الذي يحمل عنواناً آخر هو: "الربط بين الدين والعلم، إشهار عقيدة عالم طبيعيات" كان قد ترجم إلى الفرنسية وكتب مقدمته ج. فاشيه دو لابوج عام 1897. ويحتفي كاتب المقدمة بموت المسيحية. وسيكون أحد المفكرين الناشطين في أقصى اليمين الفرنسي. "الواحدية" التي تنسب العقل إلى المادة تبدو على هذا النحو قابلة لتفسيرين: الأول طبيعي – اختصاري، والآخر روحاني وحتى صوفي. وسوف نرى هذين التفسيرين يلعبان دورهما جنباً إلى جنب في مرحلة ما بين الحربين العالميتين.

شأناً، يخون داروين في الصميم! ومهما يكن من أمر، فإن العدائية الصريحة لهايكل حيال كل لاهوت ثنوي ستساهم بقوة في منح المصداقية لفكرة أن النظرية الداروينية تمثل انتصار "مادية" محمولة على أنها إخضاع الروح للمادة وتقود مباشرة إلى الإلحاد. ويمكن لهذه المعارضة المادية أن تصطبغ بنزعة معاداة ألمانية التي كانت نشطة جداً في الولايات المتحدة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وفي تلك التي تلتها. ولن تعدم عندئذ الأعداء ليتم الحكم عليها بتناقض واضح على أنها "عقيدة ألمانية".

لم تكن التعميمات الفلسفية لأرنست هايكل هي الوحيدة التي ترتدي طابعاً سياسياً في السنوات التي تلت نشر الأعمال الرئيسة لداروين. فنحن نعلم أنه نمت وعلى الأخص في ألمانيا لكن كذلك في فرنسا وفي الولايات المتحدة "داروينية اجتماعية" ستساهم في إسباغ صورة عقائدية على نظرية مسماة للتطور. ففي فرنسا، كان ادغار كيني (E. Quinet) أول من طرح دون شك مسألة معرفة "ما إذا كانت قوانين التاريخ الطبيعي تستطيع إزاحة الستارة عن مشاكل العالم الاجتماعي" في كتابه المعنون بـــ *الخلق (Creatian)* (1870) ثم تبعه بعد وقت قصير باجيو Bagehot وعلى الأخص فاشي دي لابوج (Vacher de Lapouge) الذي نشر عام 1896 كتابه: *اصطفاءات اجتماعية* Sélections sociales.

وفيه نقرأ النص التالي: "بعد استبعاد فرضية الهجرة الوافدة أو الاغترابية، فإن المرء إذا درس شعباً في طور التقدم، فإن الفئات الفوقية سوف تغتني بالعناصر الأرقى، أما إذا كان الشعب في حالة انحطاط فإن التماثل يتجه لأن يتوطد، وتتجه العناصر الأرقى نحو الزوال في كل مكان". ويظهر غامبلوفيتش (Gumplowicz) بوصفه الممثل الأنموذجي للداروينية الاجتماعية باللغة الألمانية والتي ستغدو مهد النازية: فقد أعاد تعريف علم الاجتماع على أنه "التاريخ الطبيعي للبشرية" وعلى منوال هايكل، ربطه بـــ "قانون كوني" يبرهن، بحسب رأيه، بطلان فكرة التقدم حينما يجري تطبيقها على مجموع الإنسانية. إن الطريق يقود على هذا النحو إلى فكرة "صراع الأعراق"..

بيد أنه عبر مدخل آخر دون شك تركت الداروينية طابعها الأشد عمقاً في الفكر الأمريكي: بما أن فكر داروين قد شكل، عند نهاية القرن، المرجع المهيمن في تأسيس هذه "العلوم الاجتماعية" فإن العلماء الأمريكيين التقدميين بوصفهم باكونيين مخلصين قاموا بإعلاء شأنها. فقد رأى سبنسر في جون فيسك J. Fiske داعية مقتنع يطبق مفهوم التطور على علم نفس الطفل. بينما وسّع جيمس مارك بالدوين، المدرس في جامعة برنستون دراساته حول "التطور العقلي عند الطفل وفي العرق" لتشمل علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والأخلاق... وكما بيّن ريتشارد هوفستادتر (R. Hofstadter) في دراسة مدرسية، فإن فكرة التطور قد دخلت في الواقع الحياة الاجتماعية الأمريكية (1860 - 1915 Social Darwinism in American Thought) قبل الحرب العالمية الأولى، وقد ساهمت في طمس مفهوم الحدود.

باعتدائها على هذا النحو على كل ما كان يشكل الأسس ذاتها للهوية الأمريكية، وجدت فكرة التطور نفسها عرضة لنيران الأصوليين.

وليس ما يمنع التفكير بأن الوضع الداخلي للمعسكر الداروينى عند بداية هذا القرن أتاح من جهة أخرى اعتباره مناسب جداً لهجومهم عليه. ففي الواقع لم يتأخر الإجماع الذي تحقق داخله خلسة لصالح النشوئية على قاعدة لاماركية في التطاير شظايا بنتيجة أبحاث اقتفت بشكل متناقض اثر أعمال هايكل ذاته من أجل تعميق وتعزيز "ماديته".

لم يكن أحد يجهل أن داروين كان قد ترك دون شرح سيرورة الوراثة: فبعد أن قدم تخطيطته التفسيرية للنشوء والتحولات التي أصابت الأشكال الحية، فإنه لم يتجاوز من أجل تفسير انتقال الصفات من جيل إلى جيل نظرية.. التوالد التي كانت قد تبنتها غالبية علماء الطبيعة في القرن الثامن عشر، وقد اكتفى من حيث الجوهر أن يضمّ إليها الميكانيكية اللاماركية للصفات المكتسبة. فباشر هايكل تقصي الأسس الفيزيو - كيميائية لهذا الانتقال - فكانت "البروتو - بلازما" الشهيرة.

إن تاريخ العلوم له هو أيضاً سخرياته. فقد وصل الأمر بعلماء البيولوجيا، نتيجة متابعتهم السير في هذه الطريق، إلى طرح مسألة وراثة المكتسبات للبحث من جديد! وخلال عدة سنوات ستقوم دراسة الخلايا (علم الخلايا) لهدم أسس "النشوئية" كما تصورها وكرسها الإجماع الإيديولوجي - السياسي الذي رأيناه.

عمّ الاضطراب مع نشر الأعمال الأولى لعالم البيولوجيا الكبير الألماني أوغست وايزمان (A.Weisman) (1834 - 1914). فقد طرحت منشوراته منذ العام 1883 و1885 نظرية جديدة للوراثة تقوم على فكرة "أن قاعدة الوراثة يجري تكوينها عبر انتقال من جيل إلى آخر، عنصر يمتلك تركيباً كيماوياً وطبيعة جزيئية محددين تماماً". وانطلاقاً من ذلك، عمل على توضيح الآليات التي من خلالها يفترض أن يجري انتقال الصفات المكتسبة: لا شيء في بنية وطريقة انقسام الخلايا مؤهل، كما يبين، للسماح بمثل تلك السيرورة. وقد اشتهر وايزمان لإقامته الفصل الواضح بين "البلاسما المولّدة" التي تنتقل من جيل إلى جيل وواقع العضوية الشخصية والذي هو تحقق لها ودعم مؤقتان. وهكذا ينسب إليه الحل لمسألة البيضة والدجاجة القديمة: فالدجاجة ليست في نهاية المطاف إلا الوسيلة التي اخترعتها البيضة لكي تعيد إنتاج ذاتها!

ستفتح أعمال وايزمان التي لأجلها سيبتدع جورج رومان G.Romanes مصطلح الداروينية الجديدة" (1896)، في اتجاه وحيد الطريق إلى اكتشاف أعمال غريغور مندل (Gregor Mendel) (1822 - 1884) من قبل الهولندي هوغو دوفييرس (Hugo de Vires) (1848 - 1935) ومن قبل الألماني كارل كورينس (C.Correns) (1864 - 1993) عام 1900، ثم للأعمال الشهيرة لتوماس هونت مورغان (T. H. Morgan) (1866 - 1945) حول Drosophile ذبابة الخل، والتي نشرت نتائجها الأولى عام 1910. لقد كان ت. هـ. مورغان أمريكياً ويعمل في جامعة كولومبيا، وقد أثارت أبحاثه صدى واسعاً: "ففكرة "الطفرة" التي أدخلها دو فيريس في تعابير العلوم البيولوجية، باتت مسنودة بنتائج تجريبية مؤكدة، بيد أن الربط ما بين هذه النتائج المتعلقة (بعلم الوراثة) الوليد (العبارة اخترعها وليام باتيسون) مع النظرية الداروينية للتطور، حتى لو استطاع المرء الاستنتاج أو حتى

توقع بأنه سيتم بفضل النظرية الصبغية للوراثة، يظل سؤالاً مفتوحاً، مختلف حوله لدرجة أنه يُيئس لزمن ما من إيجاد حل له خلال سنوات العشرينات.

وهكذا رأينا عالم البيولوجيين ينقسم إلى مجموعتين متناقضتين بولع. وعبارات "الداروينية" و"اللاماركية" تتخذ في لعبة هذه التضادات معاني مختلفة. وفي الحالتين، كاريكاتورية. فالداروينية - الحديثة ستشير منذ الآن فصاعداً وحتى سنوات الأربعينات، إلى موقف الذين لا يعتقدون بانتقال الصفات المكتسبة، وسوف يوصفون بأنهم لاماركيون أولئك الذي ينسبون بالعكس إلى هذا الاكتساب دوراً مرجحاً في مسيرة تطور الأنواع. وكما نعلم فإن داروين نفسه كان قد قبل صراحة هذه الآلية في عداد الفرضيات التي صاغها والمتعلقة بالعوامل المؤثرة في مسيرة "النشوء والارتقاء".

كان من حق اللاماركيين لدرجة ما أن يتقدموا بوصفهم الورثة المخلصين لداروين. وقد أدانوا "الداروينيين - الجدد" باعتبارهم "ميتافيزيقيين" وما سهل الأمر أكثر هو أن رُكن الوراثة - "بلازما" وايزمان العتيدة - لم يكن قد تمّ بعد تعريفه بوضوح[56]. وهكذا فإن إجماع البيولوجيين بدا كذكرى قديمة، سيتذكرها البعض بشيء من الحنين، والبعض الآخر بشيء من الانفراج. هذه الحالة من التردد القوي الذي يتناقض بشكل شديد ومفاجئ مع اعتدادية تطوريي سنوات 1880، قد ترافقت، من جهة الباحثين، مع ازدهار الافتراضات التي يمكنها أن تبرر في أحد المعاني اعتبار التطور، في المحصلة، ثمرة لتنظير محض. وبدت النظرية الداروينية وكأنها في حالة معلقة بانتظار تأكيد ما وتماسك جديد.

لم تكن هذه الحال لتخفى على الأصوليين مطلقاً، فعرفوا كيف يستفيدون منها عند هجومهم الأول، تماماً كما تفاهموا على الاستفادة، على صعيد آخر وفي سياق آخر من النقاشات التي تمزق اليوم المجتمع العلمي المتعلقة بآليات وبإيقاع التطور. بيد أن لهذا قصة أخرى، سوف نكشف خفاياها.

---

[56] حينما هاجم أنصار ليسنكو "الداروينية الجديدة" باعتبارها عقيدة "مثالية - برجوازية" وصفوها بـ "وايزمنية - مندلية".

- IV -

هل ثمة علم خلق؟

قيامة الخلقيين

هاكم كيف قام الخلقيون عند بداية سنوات الثمانينات، بعد غياب امتد لأكثر من نصف قرن. وقد رأينا أن هذا الغياب لم يكن إلا ظاهرياً. فهم لم يتخلوا في الواقع عن أسلحتهم مطلقاً، ونظموا صفوفهم تدريجياً على صعيد البلاد كلها. وقد ارتكب العلماء والباحثون خطأ فظيعاً لعدم إدراكهم للأمر أو لعدم اكتراثهم به. فبعد أن استنفرتهم "الثورة البيولوجية" التي انطلقت في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وجدوا أنفسهم منخرطين في سباق محموم نحو النتائج، سباق استبعد أي اهتمام آخر. ونظراً لأن النظام الجامعي يبعدهم عن تعليم المرحلة الثانية فقد كان يحصل لهم بالتأكيد أن يشتكوا عدم فعاليته الملحوظة، لكن ربما بدا لهم أن الوضع مقدر له أن يتعافى بعد الدفعة الكبيرة التي أعطاها عام 1957 الرئيس كنيدي للدراسات العلمية وإصلاح المناهج الذي تلي ذلك[1]. ففي البيولوجيا، وعلى الرغم من إجراءات إعداد الكتب المدرسية الجديدة والمقلومات العنيفة التي أبديت، فإننا على

---

[1] إن الشعور "بالخزي القومي" جراء إطلاق سبوتنيك السوفيتي، هو ما قاد الرئيس ج. ف. كنيدي لأن يشجع في هذا التاريخ، على المستوى الاتحادي، تفكيراً موسعاً موجهاً لتجديد تعليم العلوم وعلى الأخص في المرحلة الثانية. وقد اصطدم إعلان المناهج والكتب المدرسية الجديدة بعقبات عديدة.

الأقل بتنا نمتلـــك منذ عام 1963 كتباً حصل مضمونها على موافقـــة " American Institute of Biological Sciences" والدعم المالي من " National Science Fondation". وتوجب على طلاب التعليم العالي إذن، نظرياً، تلقي تعليماً يضع نظرية التطور في موقعها المركزي في البيولوجيا الحديثة.

ومع ذلك، وبعد استنفاذ كل مناورات العرقلة، وبعد أن نشرت الكتب ووزعت فإن الخلقيين عملوا بسرعة على التصدي للموكب. فرأيناهم يتحركون منذ سنوات الستينات على عدة مستويات سياسية وفكرية والتي تستحضر مشاعر راسخة في "الوجدان" الأمريكي. فيهاجمون بدايةً توسع السلطات الفيدرالية، تلك البيروقراطية التي لا روح لها ولا ذمة والتي تحتقر الحق الذي تمتلكه الولايات بالسماح للأهل بتلقين أطفالهم العلم الذي يرونه مناسباً. وقد خاطبوا الأهالي حصراً وبإلحاح: ألن يكون لهم في الواقع "حق واحد"، على الأقل حق إلقاء نظرة، على مضمون التربية التي تقدم لذريتهم، أياً يكن تشريع الولاية التي يعيشون فيها؟

إن أمريكا سنوات السبعينات لم تعد مع ذلك أمريكا ما قبل الانهيار الكبير عام 1929. لذلك، فإن الأصوليين الذين انخرطوا في الحملة الخلقية الجديدة يحسبون لاعتبارات عديدة حساباً كبيراً للأمر. لذلك لن يتلفظوا إذن بكلمة "اللاهوت". الكلمة التابو التي رفضوها بقوة حينما لفظها القاضي أوفرتون عام 1981 خلال قضية ليتل روك. ففي مجتمع تبسط فيه الفعالية العلمية سيطرتها لن تكون فوق شفاههم إلا كلمة "العلم"، مع احتمال أن يتم خلسة العودة إلى الجوهري من حججهم في اللاهوت في القرن الماضي، أعمله دون أن تقله، هكذا بدت قاعدتهم المتبعة.

بيد أنهم يعرفون أن البيولوجيا المعاصرة وصلت إلى مرحلة مدهشة من النضج. فالصعوبات التي واجهت نظرية التطور قد تم تجاوزها، ظاهرياً، منذ سنوات الأربعينات. ألم تسمح النتائج المحققة من قبل الباحثين في علم وراثة السكان بربط نظرية التطور بنظرية الوراثة؟

لفضل من ذلك (أو الأسوأ من وجهة نظرهم): علوم الكائن الحي ترتبط بشدة مع أبحاث تتعلق ليس فقط بالفيزياء الأكثر جوهرية وإنما أيضاً بالفيزياء

الفلكية، كما رأينا مثلاً بمناسبة البحث عن الجزيئيات الحية في الحجارة النيزكية في القطب الجنوبي[2]. هذه المعطيات، لا يجهلها الخلقيون مطلقاً. وعلى العكس، سنراهم، في مناورة تنتمي إلى الألاعيب القتالية، يحاولون، ليس دون تحقيق نجاح ما، عكس قوة خصومهم الغالبة ضدهم. فيعكسون اتجاه عملية الربط العقلي، أو إذا شئتم، التوحيد النظري، للأبحاث الحالية. وقد استطاعوا باستخدامهم لهذا الأمر، كما سنرى، نقل المسألة، بشكل إجمالي، إلى ميدان يعرفون أنه حقل ألغام تحت أقدام العلماء: أرض الإبيستمولوجيا. ودون الشعور بأدنى التعاطف مع مشروعهم فإن المرء لا يسعه إلا الإعجاب بذكاء العملية، يضاف إلى ذلك أنهم لا يترددون فوق ذلك حينما تسنح لهم الفرصة باستغلال الخلافات، حتى أشدها تقنية، التي يمكن أن تحدث كما هو مألوف، بين المختصين بالتطور، وبتوجيه الدوغمائية المتجددة لدى بعض هؤلاء لصالحهم.

"علم الخلق"

غالباً ما لوحظ، وبحق، أن الجوهري في عمل "الخلقيين العلميين" يتركز في الواقع على "برهنة" فرضيات "النشوئيين". ويظهر هدفهم الأول في الواقع إثبات أن "النشوء ليس واقعاً، وإنما هو مجرد نظرية". ومن هنا يستنتجون أنه لا يحق لها البتة أن تنفرد في التعليم، سيما وأنها تستدعي في الأخلاق مواقف مناقضة لتلك التي تستند إليها الديموقراطية الأمريكية. فهم يطالبون إذن بإدخال النظرية الخلقية في التعليم بإسم العلم وحرية المعتقد، متمسكين بالتعددية والتسامح.

جرت المعركة في البداية فوق ميدان الجيولوجيا والمستحاثات التقليدي: فالقراءة الحرفية للتوراة تلزم بالقول إن عمر الأرض (والنظام الشمسي) لا يقاس بمليارات السنين (3.5 حسب التقديرات الحالية)، بل إنه لا يتجاوز ستة آلاف سنة. وعلى جميع الحالات أكثر من عشرة آلاف سنة. وقد رأينا أن الأسقف

---

[2] راجع على الأخص (*La vie dans l'Univers*) "الحياة في الكون" المؤلفة جان هيدمان الصادر في باريس عن دار هاشيت عام 1990.

جيمس ايشر J.Ussher (1581 - 1656) كان قد حدد تاريخ الخلق بعام 4004 قبل الميلاد. وقد اختصم لاهوتيو القرن التاسع عشر الطبيعيون طويلاً حول هذا التأريخ. وقد ظننا أنهم تخلوا عنه، ومع ذلك فهذا التأريخ هو ما أعاد أصحابنا "الخلقيون" التمسك به. كما توجب عليهم أيضاً تسوية مسألة المستحاثات المعقدة، لأنه شهادتها، خاصة المتعلقة بالفقريات قد حملت كما يبدو جملة من الأدلة لصالح نظرية التطور وفرضت، على أية حال، على بداية الحياة قدماً يتجاوز بحد ذاته العشرة آلاف عام بكثير.

كما أن مسألة الطوفان التي ظننا أنه أمكن دفنها منذ أبحاث ليبل ظلت مسالة أساسية وليس "الخلقيون العلميون" بأقل تصحيحاً وبلاغة من سابقيهم حول هذا الحدث.

فكيف أمكن لمثل هذه القيامة لـــ "اللاهوت الطبيعي" الأمريكي أن تصبح ممكنة بعد أكثر من قرن من نهاية مرحلة ازدهارها الكبير؟ إن إجابة أولى تفرض ذاتها حينما نقوم بتحليل الاستراتيجية التي قادت إلى ذلك: فقد استغل الخلقيون فيما يتعلق بكل نقطة من هذه النقاط الشكوك ونقاط الضعف التي تشوب العلوم الحالية، كذلك حالات التهور الدوغمائية التي ارتكبها بعض أشهر علماء الطبيعة "الداروينيين".

فحينما قال العلماء إن عمر الأرض يبلغ 3.5 مليار سنة فإنهم استندوا في المقام الأول إلى سيناريوهات كونية معدة انطلاقاً من مجموعة مترابطة من الحسابات والنتائج التي حصل عليها منذ سنوات الخمسينات والستينات علماء الفيزياء الفلكية. ونعرف أنهم توسطوا نتائج المراقبة - خاصة فرار المجرات وأشعة "عمق السماء" - وكذلك نظرية النسبية العامة بوصفها نظرية الجاذبية النسبوية[3]. ولم يتعمق الخلقيون في هذه الأسباب: ألا يتعلق الأمر "بسيناريوهات" بسيطة تعيد بناء الماضي انطلاقاً من الحاضر؟ لقد بدت لهم هذه العودة غير مبررة

---

[3] يمكن العودة إلى ليفري شاتزمان: "تمدد الكون" (L'expansion de l'Univers) باريس، هاشيت 1990.

لأنها نظرية بدرجة متشددة وتستند صلاحيتها إلى مسلّمة يرفضونها بحزم شديد، وهي المبدأ ذاته الذي صاغه ليل في الجيولوجيا - مبدأ الواحدية - والذي يشير إليه الفيزيائيون على أنه مبدأ "تماثل" القوانين الفيزيائية: إن القوانين الفيزيائية التي تضبط اليوم مسيرة الكون هي بالضبط تلك التي كانت تقوده منذ البدء! فيعترضون: ومن الذي أخبركم بذلك؟ ويطالبون بوصفهم واقعيي "الإدراك السليم" بوقائع قابلة للملاحظة وليس بتخطيطات تأويلية. ويبلغ فرحهم غايته حينما يرون، كما هي الحال اليوم مع الأسف، مختصين مرموقين يقدمون "الانفجار الكوني" على أنه "حدث" قد يحدد بداية ما للكون، في حين أنه يشير إلى أن البداية أبعد مما تستطيع فيزياؤنا (الكوانتية والنسبوية) أن تقول المزيد عنها.

لقد واتاهم الحظ لأن يتهموا بالخداع. قصة ستقدم فيما بعد على أنها وصف لقصة ما في حين أن الأمر لا يعدو كونه سيناريو ما...

وستظهر برهنتهم أكثر متانة حينما يتعلق الأمر بالجيولوجيا. فهنا، وعلى الأرجح، تقوم "وقائع" غير قابلة للنقاش، وقياسات دقيقة ومترابطة تسمح بتأريخ عمر مختلف الطبقات الصخرية وبالتالي، عمر الكوكب.

وقد تأسست منذ العام 1938 منظمة حول جورج برايس G.Price تحمل اسماً موحياً هو "Deluge Geology Society". ومنذ ذلك الحين، لم تتغير زاوية هجوم أنصار الطوفان: إن أساليب التأريخ المستخدمة، الأساليب المدعوة "قياس القوة الإشعاعية" هي التي لا يمكن الاعتماد عليها. وقد اجتهدوا في البرهنة على أن لا قيمة لها. فقبل سنوات الثلاثينات لم يكن الجيولوجيون وعلماء المستحاثات يستطيعون لتقدير عمر الصخور والمتحجرات إلا إعطاء تقديرات نسبية: يجري وضع ترتيب زمني عبر تقاطعات المعلومات المتحصلة من الطبقات الصخرية وتوزع العضويات الحية. ويفترض بكل طبقة غنية بالمستحاثات أن تكون أحدث من تلك التي تتوضع تحتها وأقدم من تلك المتوضعة فوقها. تضاف إلى ذلك المعلومات المكتسبة عبر مقارنات بين المستحاثات الموجودة في طبقات مختلفة.

وقد بات ممكناً منذ 35 عاماً تقريباً، كما يقول العلماء، تحديد العمر "المطلق" للصخور بفضل أساليب تدعى "تأريخ القياس الإشعاعي" والتي تستند إلى الفيزياء الذرية وأنظمة أخرى. والمبدأ فيها سهل: كل الصخور مكونة من فلزات معدنية، والكثير من الفلزات المعدنية تحتوي على نظير مشع لأحد العناصر مثل اليورانيوم الذي يتصرف وفق نهج ساعة طبيعية. تخضع واحدة تلو أخرى، وبحسب معدل يمكن توقعه بدقة بالغة جداً، الذرات المشعة لأحد النظائر في الواقع لـ "انحطاط القوى" وتتحول إلى مادة غير إشعاعية - ناتج عن تحطمها". انحطاط قوى هذا النظير المشع يجري عبر مراحل زمنية طويلة جداً لكن وفق معدل محدد تماماً. وبمعزل عن درجات الحرارة والضغط الجوي وأية متغيرات مرتبطة بالبيئة. لا يوجد على الأرض إذن سيرورة تجري على هذا القدر من الكمال. وهكذا، فإن الكاربونات البحرية (الأصداف والمرجان) تحتوي، منذ تكونها، آثار اليورانيوم 238 المشع. وهذا يولّد الثوريوم 230، المشع هو أيضاً، لكن بدرجة إشعاع أقل. فإذا قسنا نسبة هذين النشاطين فيمكننا تأريخ نشأة هذه الكاربونات[4]. يدوم اليورانيوم 238 لمدة 300000 سنة. بعد هذا الحد فإن الفرق بين النشاط الإشعاعي لهذين العنصرين يصبح ضئيلاً جداً لدرجة لا يمكن قياسه معها.

وقد حققت أساليب التأريخ هذه تطورات مستمرة: فمن الكاربون 14 الشهير الذي يسمح بالعودة إلى 30 ألف سنة تقريباً[5] إلى البوتاسيوم - أرغون الذي وصلنا معه حالياً إلى أكثر من مليون سنة. ويجري العمل على استبدالها بالقياس الدقيق جداً لأشعة غاما التي تتيح الوصول إلى دقة أكثر بكثير أيضاً. وتضاف إلى هذه الأساليب "التقليدية" إن جاز القول؛ "الإضاءة الحرارية" التي تستند إلى واقع أن

---

[4] انظر كينيث رميلر في لشلي مونتاغيو 1984 ولرثر ن. ستراهلر 1987 الجيولوجي. وحول هذه المناهج في التأريخ انظر الموجز الواضح جداً والموثق لإيفون ريبيرول في لوسي وجماعتها Lucy et les siens باريس لابكوفرت ولوموند 1988 الفصل 2.

[5] هناك أعمال جديدة (Geographical Research Letters الجزء 18 عدد 10، تشرين الأول عام1991) قادت المختصين إلى إعادة تصحيح التواريخ المقترحة من قبل الكيميائي الأمريكي و. هـ. سيبي في سنوات الأربعينات، بقصد الأخذ بعين الاعتبار آثار التحولات في الحقل المغناطيسي الأرضي.

كمية الضوء الصادرة عن معدن متبلر مسخن إلى 400 درجة مئوية تظهر تبعاً للوقت الذي ظلت طواله هذه المادة تحت تأثير العناصر المشعة الموجودة في محيطه وكذلك، بدرجة أقل للأشعة الكونية. إن الإضاءة الحرارية التي يقتضي استخدامها احتياطات تقنية كبيرة جداً، تقدم أفضلية السماح بإجراء التقديرات انطلاقاً من أجزاء صغيرة. وكل هذه القياسات تتوافق فيما بينها، وتندمج تماماً مع السيناريو الذي يقدر عمر الأرض بحوالى أربعة مليارات سنة، مؤكدة في الوقت نفسه فرضيات الفيزيائيين الفلكيين المتعلقة بشكل النظام الشمسي. لكنه لا يصح التأكيد بأنها أضافت "وقائع" لدعم هذا التأريخ: فلا هذه، ولا تلك تقود إلى "بداية" هذا النظام. وهو الأمر الذي لم يخش من توضيحه عدد وافر من الباحثين الذين لم يفهموا "تعميمه" إلا على أنه شكل من الحماس المبالغ فيه.

وقد قدموا دون أن يريدوا ذلك للخلقيين حججاً ذهبية: فرصة جديدة لبذر الاضطراب ولإدانة الصفة المخاتلة للقياسات المتقدمة.

استخدم "الخلقيون العلميون"، بعد أن استحوذوا على التقديرات الجريئة المبنية على الكاربون 14 أو اليورانيوم 238، ضد كل التقديرات الأخرى الحجة الضخمة التي خدمتهم سابقاً في مواجهة سيناريو "الانفجار الكبير" يقولون: حينما خلق الله الأرض قبل عشرة آلاف سنة من المحتمل تماماً أن يكون جعل اليورانيوم وكذلك العناصر الأخرى لا تقدم عندئذٍ معدل انحطاط القوى الإشعاعي الذي نحدده نحن انطلاقاً من سلوك هذه العناصر كما نعرفها اليوم[6].

بيد أن هـ. م. موريس (H.M. Morris) لم يقف عند هذا الموقف السلبي الصرف، فجازف بطرح أسلوب مواجه لأساليب الجيولوجيين: أسلوب قياس الحقل المغناطيسي. فقد استند إلى نص لتوماس ج. بارنز (Th. G. Barnes)، مدرس الفيزياء في جامعة تكساس في إل بازو (El Paso). فقد جرى قياس الحقل المغناطيسي للأرض بعناية كبيرة منذ 135 سنة. والحال أنه جرى عبر دراسات إحصائية، يضيف

---

[6] هـ. م. موريس Scientific Creationism، ص 157 - 158.

موريس، تبيان أن هذا الحقل يمثل انحطاطاً أسياً خلال هذه الفترة: ويُقدر أنه كان أقوى بضعفين قبل 1400 سنة مما هو عليه اليوم، وأربعة أضعاف قبل 2800 سنة.. وبالثنين وثلاثين ضعفاً قبل 7000 سنة، لدرجة أنه إذا واصلنا الصعود في الزمن فإن حداً فيزيائياً سيظهر هو: 10000 سنة. أبعد من ذلك لم تكن الأرض هي الأرض؛ كانت تمثل الخصائص الفيزيائية لنجم مغناطيسي! فإذا كانت التوراة قد ارتكبت خطأ ما، فإنه ينبغي القول إنه يبدو ضئيلاً جداً[7].

وساق موريس ما كان يقدر أنه ميزته، فقدم في مواجهة التقديرات الحالية لعمر الأرض حجة أخرى: الأشعة الكونية. فقد استند إلى القياسات التي أجراها هانس بيترسون الذي قدّر بـــ 14 مليون طناً كمية الجسيمات الكونية التي تدخل الغلاف الجوي الأرضي كل سنة. وهو ما يعطي لخمسة مليارات من السنين كمية خيالية تبلغ 14×10^{19} طـــن! والحال أن كثافة الغبار الكوني المتماسك تقدر بـــ 140 ليرة على القدم المربع، أي ما حجمه 10^{18} قدماً مكعباً، لكن سطح الأرض يبلغ 5.5×10^{15} قدماً مربعاً. فإذا كانت تبلغ من العمر خمسة مليارات سنة فإنه ينبغي أن نجد طبقة من الغبار الذري تبلغ سماكتها 182 قدماً منتشرة فوق سطح الأرض كله! وهو ما يبدو خطأ فادحاً، لأننا موجودون لنتحدث عن ذلك!

يبقى أنه ينبغي تسوية القضية الأشد سخونة، قضية معطيات علم المستحاثات. وقد بدت مسألة المستحاثات حاسمة جداً سيما وأن المرء يقارب معها مسألة أصل الإنسان، الهمّ الأعظم للخلقيين. وهنا يكتب ديان ت. جيش (Duane T. Gish)[8]، مساعد هـــ. م. موريس: "إذا كانت ملايين الأنواع قد تطورت تدريجياً عبر ملايين السنين، فإن طبقات المتحجرات ينبغي أن تحتوي عدداً كبيراً من الأشكال الوسيطة، وينبغي أن تطفح المتاحف بها. بينما يبين لنا تفحص طبقات المتحجرات على العكس من ذلك الظهور المفاجئ لمخلوقات شديدة التعقيد في الظاهر والتي لا نستطيع أن نعثر لها على أي سلف، وينبغي أن نؤكد وجود صدوع بين كل أصناف النباتات

---

[7] ويتكومب وموريس Genesis Flood، ص 327.

[8] ديان جيش Science Digest، تشرين أول 1981.

والحيوانات. إن معطيات المستحاثات تتعارض إذن مع التطور وتتوافق بشكل ملحوظ مع فكرة الخلق".

هنا نرى جيش يستفيد من واقع معترف به في الحقيقة من كل علماء المتحجرات ويطلق عليه اسم "الانفجار" الكامبري حيث شهدت الأرض انبثاق تشكيلية هائلة من الرخويات والقشريات وشوكيات الجلد والفقاريات. لكنه يرفض بالطبع التأريخ المسلّم به والذي يحدد وقوع هذا الحدث ما بين 450 مليون و600 مليون سنة. ويفسر بالمعنى الحرفي العبارة الخرقاء لعلماء الجيولوجيا الذين تحدثوا، بقصد إثارة المخيلات، عن "فجائية" هذا الانفجار - والذي استمر بحسب أقوالهم حوالي 100 مليون سنة! أما بالنسبة لجيش فإن الأمر يتعلق "بلحظة" من الوقت. أما بخصوص مسألة "الأشكال الوسيطة" والتي، ليس دون سبب، كانت قد أقلقت داروين نفسه، فإنها سمحت لجيش بإرباك معظم النشوئيين. ومن هنا النقاشات الحامية جداً حول حالة الأركايوبيتريكس Archaeopteryx الذي يمثل بالتحديد في نظر الغالبية الساحقة من علماء المستحاثات "شكلاً وسيطاً" ما بين الزاحفة والطير[9]. والحاصل كما يكتب جيش، أنه لا توجد أية سلسلة تطورية لتربط ما بين الثدييات والزواحف. "تقدم الثدييات بصورة إجمالية تقريباً تناقضات عنيفة وواضحة مع الزواحف". النتيجة: "إن معطيات علم المستحاثات لا تمثل إلا مقبرة كونية من الحجارة تقدم للإنسان، لا مشهد تطور الحياة وإنما مشهد التدمير المفاجئ لهذه الحياة". ويضيف الخلقيون: "إن الصفات الجيولوجية للأرض قد جرى تكييفها بشكل أساسي عبر مسارات مفاجئة ذات طبيعة كارثية أصابت الكواكب على الصعيد الإجمالي أو الإقليمي"[10].

ها هنا يتدخل الطوفان، فيكتب موريس: "على أرضية هذه التخطيطة الإجمالية قمنا بتفسير معطيات الجيولوجيا والعلوم الأخرى في اتجاه مختلف عن التماثلية والتطورية المقبولتين اليوم. وقد اقترحنا تصنيفاً للطبقات الجيولوجية وفقاً للمراحل التوراتية لتاريخ الأرض، محتفظين في الوقت نفسه بقدر الإمكان

---

[9] ستيفان جي غولد، مذكور سابقاً، 1980.

[10] Impact Series، العدد 95 أيار 1981.

بالمصطلحات المستخدمة حالياً في الجيولوجيا". [...] "وهكذا يبدو معقولاً تاريخ تشكلات الصخور المتبلرة وربما بعض التوضعات غير الحاوية على مستحاثات لما قبل - الكامبري من مرحلة الخلق، وربما جرى تحريكها فيما بعد من خلال الاندفاعات التكتونية لمرحلة الطوفان. وقد توضعت الطبقات الحاوية على المستحاثات كما يبدو بشكل أساسي خلال الطوفان ذاته، أما المقاطع الزمنية الظاهرة التي تُقدمها فلا بد أنها نتجت لا عن التطور وإنما عن اصطفاء هيدروماتي، وشروط بيئية، وكذلك عن تباينات في الحركية والقوة التي تميز مختلف الكائنات".

إن علم المستحاثات يبدو إذن، إذا ما اقتفينا أثرَيْ موريس وجيش، مسرح أوهام واسع. فقد تشكلت المستحاثات، بحسب رأيهم، في 300 يوماً أثناء الطوفان. وخُلقت الحيوانات والنباتات "جميعها معاً" بحسب "أصنافها". وقام الطوفان بتوزيعها في طبقات متتالية أنتجت مقاطع ذات مظهر تطوري، لكنه مظهر خداع.

ولم يستعمل جيش وموريس دون قصد مبيت كلمة "كارثة" من أجل الإشارة إلى الطوفان، فالكلمة موجهة إلى المختصين وتستذكر هيبة جورج كيفيه. وهم يدّعون بذلك ارتباطهم بتراث فكري مندرج في قلب العالم ذاته الذي يداخلون فيه. وأكثر من ذلك، فهم يستفيدون من إعادة التقدير لكتاب عالم الطبيعيات الفرنسي التي توجب القيام بها في السنوات الأخيرة.

وينهي موريس رفضه للنشوئية إذن بحجة يقول إنه استمدها من علم الديناميك الحراري. فتطور الكائن الحي ينتهك، بحسب رأيه، القانون الثاني من علم الديناميك الحراري. فهذا القانون يبيّن أن القصور الحراري - أي الفوضى - يتعاظم دون انقطاع. وبالتالي فإن النظام لا يمكن أن يُخلق من الفوضى، والحياة لا يمكن أن تصدر عن المادة.

وقد جهدوا بعد ذلك أن يقيدوا لحساب طروحاتهم أبحاثاً حديثة ومعترف بها في علم المستحاثات: أبحاث... ستيفن جاي غولد، أحد أشد خصومهم! ونعرف في الواقع أن هذا الأخير، بالاشتراك مع زميله نيلز ايلردج، قد طرح منذ عام 1972 تخطيطة جديدة، النموذج المدعو "التوازن الفواصلي équilibre ponctué" من أجل

حلّ الصعوبات التي تطرحها "التدريجية" التي تبناها داروين، تحت تأثير ليبل، حينما عرض لتطور الأنواع[11]. إذ إن عدة وقائع "غير قابلة للتفسير" في تاريخ المتحجرات ضمن فرضية تحول بالتتابع المستمر لمتغيرات غير محسوسة تُفسر في الواقع بيسر، بحسب رأيهم، إذا ما تخلينا عن هذه المسلّمة. فهذا التاريخ يقدم العديد من المراحل "الانفجارية"، حيث ظهرت كمية من الأشكال الحديثة الحية - رأينا ذلك مع الانفجار الكامبري - ثم مراحل طويلة جداً - مراحل ركود - حيث لم تعد تقدم هذه الأنواع التي انتشرت آنذاك باتساع كبير واستقرت تماماً، أية تغيرات جديرة بالملاحظة. ويتحدث غولد في هذا الخصوص عن ظاهرة "جمودية" شعوب عريضة، والتي يمكن أن تستمر لملايين من السنين. ويرى أنه دائماً ما يحدث في حالات من الانعزال أو الهامشية لمجموعة صغيرة (فوق جزيرة مثلاً) أن تنتقل صفة جديدة وأن تنتشر فجأة داخل شعب ما، صغير جداً بالتحديد، وسيكفي لحادث ما يصيب النوع المنتشر بشكل واسع لكي تفرض هذه المجموعة الصغيرة نفسها.

ولنستمع إلى غولد: "لم تظهر غالبية الأنواع أي تبدل وحيد الاتجاه طول مدة حضورها فوق الأرض. فالمتحجرات الأولى التي حصلنا عليها تشبه كثيراً آخرها، والتبدلات المورفولوجية كانت بصورة عامة محددة ودون اتجاه. وفي منطقة ما محددة، لا يظهر نوع ما تدريجياً في أثر تحول منتظم لأسلافه، وإنما ينبثق فجأة، وكامل التكوين"[12].

بعبارة أخرى، فإن عالم المستحاثات في جامعة هارفارد يقترح التخلي عن عنصر أساسي في فكر داروين، لكن من أجل تقويمه وفقاً لقواعده الخاصة المحسّنة على هذا النحو وإعادة توافقه مع معطيات علم المستحاثات: يتعلق الأمر بتفسير إيقاع السيرورات التطورية من خلال التركيز على آلية للتأصيل كان مؤلف أصل الأنواع قد أغرقها، إذا جاز لنا القول، في فلسفته عن الاستمرارية الزمنية. وهكذا حُلت دفعة واحدة الصعوبة المتمثلة بندرة الأشكال الوسيطة". وقد توجب إعادة

---

[11] ستيفان جاي غولد ونيلز إيلردج، 1972.

[12] ستيفان جاي غولد، مرجع مذكور 1980.

النظر في مفهوم "الشكل الوسيط" ذاته: فهو لا يخضع لمنطق "البين بين" الذي تفرضه هذه الفلسفة.

لقد عمل الخلقيون على الإفادة من هذا الطرح: في المقام الأول - من إبراز التعارضات النظرية التي تقسم التطوريين - وهو أمر قابل للجدل بصعوبة - واستخلاص من ذلك التأكيد على أن النشوء "ليس إلا نظرية"، وفي المقام الثاني من أجل أن يكتشفوا فيه الدليل على ما سبق لهم طرحه بإلحاح: بأنه لا توجد "أشكال وسيطة" بين المتحجرات. وهو أمر أكيد أيضاً، لكن ليس تماماً وفقاً للمعنى الذي يفهمونه فيه، ذلك لأن المفهوم ذاته هو الذي يزول. وقد كتبوا: "إن وقائع التوازن الفواصلي التي أجبر غولد و إيلردج داروين على ابتلاعها تتطابق مع الوصف الذي أوضحه بريان ومع ما كشفه الله لنا في التوراة". باختصار، ها هو "التوازن الفواصلي" يوضع في خدمة الطوفان! ولم يكف غولد عن الاحتجاج بسخط متزايد ضد هذا "التفسير" الخاطئ، وبحسب رأيه، كما برأينا أيضاً، وغير الشريف لأبحاثه. لكن هل كان مُحقاً بالوقوف في ملعبهم من أجل إبراز "الأشكال الوسيطة" المؤكدة، مثل الأكصور التي تؤكد حالة الانتقال ما بين الأسماك والزواحف؟[13].

ويعرف الخلقيون التقدير الكبير الذي يحمله غولد لأبحاث عالم الوراثة الشهير ريتشارد غولدشميث، اليهودي المهاجر الذي أنهى مشواره في بيركيلي حيث توفي عام 1958؛ وقد لاقت هذه الأبحاث السخرية والاحتقار والتوبيخ لزمن طويل من قبل الداروينيين - الجدد الماركسيين، فقد طرح غولدشميث في كتابه المنشور عام 1940 وأثار ضجة في الأوساط الأكاديمية[14]، فكرة أنه ظهرت بصورة مفاجئة، في لحظات محددة من تاريخ المتحجرات، ما دعاها بلهجة شعرية بـــ "المسوخ الواعدة"، أي أشكال حية جديدة بالكامل متكيفة مع الشروط الجديدة لوجودها. وتستحق العبارة التوقف عندها: فهذه الأشكال، بنظر المعيار المألوف،

---

[13] ستيفان جاي غولد، مرجع مذكور 1980.

[14] ريتشارد غولدشميث: *The material basis of evolution*، نيو هيفن، منشورات جامعة يال 1940. يمكن الرجوع أيضاً *Les stratégies de l'embryon* ، باريس، PUF، 1988.

كانت تتخذ هيئة "المسوخ"، لكن من وجهة نظر مستقبل الأنواع، فإنه يمكن اعتبارها بوصفها "رائدات". وقد صدم غولدشميث مباشرة مسلمة التعقابية التي وضعها خلفاء داروين في مصاف التطور الجمعي. وقد حيّا غولد في مقالة شهيرة صوابية آراء غولدشميث وأعلن "عودة المسخ الواعد". ولن يلزم الكثير من الوقت لكي يتحدث لوثر سندرلاند عن "نظرية المسخ الواعد في التوازن الفواصلي" ويستنتج: "يقود هذا إلى قبول أن خصوم التطور محقون حينما يؤكدون أن ليس ثمة دليل مستحاثي واحد جاء ليدعم النظرية القائلة بأن كل ما هو حي مرتبط بسلف مشترك". ويلح جيش مكرراً بتهكم: "وفقاً لغولدشميث ولما يمكن أن يقال وفقاً لغولد سميث فإن زاحفة باضت بيضة فقست فأعطت الطائر الأول بأجنحته وكامل عدة طيرانه".

ويعلق غولد: "يثير الخلقيون حنقي لكنهم يسلّوني..."

تفنيدات رسمية

حلل القاضي أوفرتن بدقة في قراره المؤرخ في 5 كانون الثاني من عام 1982، اللغة المزدوجة للخلقيين الجدد: فهم يحاولون من جهة إظهار أن "التطور ليس واقعاً" وإنما "نظرية فقط"، وهو ما يُترجم بفكرة أنه لا يوجد بالمعنى الدقيق علم للتطور؛ ومن جهة أخرى، يؤكدون أن "نموذج الخلق علمي مثل نموذج التطور". ولن يعرف المرء كيف يرد عليهم الرد المناسب دون الأخذ بعين الاعتبار اندغام العنصرين في إستراتيجية حتى لو ظهرا متناقضين للوهلة الأولى.

وقد أورد القاضي حول النقطة الأولى، الوصف المعطى بنص القانون 590 "لعلم النشوء"، ويذكر بالتفصيل شهادات الخبراء العلميين التي حرص على الاستماع إليها مطولاً. وتوصل من خلالها إلى عدة استنتاجات. فمسألة الأصول لا تحتل في نظرية النشوء المكان المركزي المفترض من قبل المشنعين. كما أن علماء البيولوجيا لم يعتبروا أصلاً أن مسألة أصل الحياة يمكن أن يكون هدفاً لهذه النظرية. وأن نظرية النشوء تنطلق من وجود الحياة كواقع قائم وعملت على تفسير

كيف تطورت، ومن هنا يستنتج المرء أن التطور لا يفترض ولا يستدعي غياب خالق ما أو الله، بخلاف ما يدعيه الخلقيون.

وقد واجه القاضي فكرة أن "الطفرة والاصطفاء الطبيعي" يمكنهما أن يفسرا بحد ذاتهما وجود كل الأنواع الحية حالياً بجعلها تتحدر من أنواع بسيطة أكثر قدماً، بتصريحات غولد وزميله آيالا اللذين يذكران أن علماء البيولوجيا لا يدعون مطلقاً أن هاتين المسيرتين تفسران كل تغيّر تطوري ذي معنى؛ لكن يجب أن يضاف إليهما إعادة التركيبة والحيدان الوراثيين، وكذلك التوازن الفواصلي الذي مع عوامل ومسيرات أخرى يلعبون دوراً تطورياً.

ويتساءل القاضي عندئذ حول كلمة (Kinds الأصناف) المستخدمة بصورة دائمة من قبل الخلقيين في ذات موضع كلمة (Species) من أجل الإشارة إلى الأنواع. ولوضح بأن العلماء لا يعرفون معنى محدداً يمكن تعيينه لهذه الكلمة وسيدعو لملاحظة أن هذه اللفظة تنتمي إلى المصطلحات التقليدية لـــ "اللاهوت الطبيعي"، كذلك يكتب عالم اللاهوت ريتشارد هوكر (حوالى 1554 - 1600): "إن ما يحدد لكل شيء نوعه (Kind)، وما يلطف القوة والسلطة، وما يعطي الشكل والقياس، ذلك هو ما ندعوه **بالقانون**". هذا القانون الذي سرعان ما ينسبه مباشرة إلى قدرة وحكمة الله.

أخذ القاضي يتفحص بدقة، بالطريقة ذاتها، الخاصية المعطاة لـــ "علم الخلق" في نص القرار[15]. وقد لاحق كلمات مصدرية ذاتها ("لا يوجد أي مرجع لإيمان ما أو لنص ديني") فأشار إلى أن مجموع الإيضاحات الواردة تستند في الواقع دون أن تعلن ذلك إلى مقاطع من سفر التكوين يمكن تحديدها بوضوح. وقد استنتج من ذلك أن المفاهيم وكذلك المفردات اللغوية لهذا "العلم" تدعوان إلى الدين. وقد استند إلى شهادة عالم اللاهوت لانغدون جيلكاي ليذكر بأن فكرة *الخلق من العدم* هي مفهوم ينتمي إلى الديانات الغربية وحدها وأن المرء لن يكون بمقدوره بالنتيجة أن يؤكد،

---

[15] انظر نص القرار في الملحق.

مثل موريس ولصدقائه، بأن مثل هذا المفهوم قد يستدعي اللجوء إلى أية قوة فوق طبيعية.

أما بخصوص المعطيات العلمية التي قام الخلقيون بجمعها من أجل تدعيم ادعاءاتهم العلمية فقد أوضح القاضي طبيعتها مستنداً ليس دون سخرية إلى إفادة خبير كانوا قد طلبوا استدعاءه هم أنفسهم هو: الدكتور فيكراماسينغه (Wickramasinghe) فقد حدث أن طرح هذا العالم مع فريد هويل F. Hoyle العالم الفلكي الكبير، الذي أثبت أيضاً أنه مؤلف روايات "خيال علمي" ممتاز، سيناريو مثيراً للجدل من أجل تفسير ظهور الحياة على الأرض يقوم على لقاء المذنبات التي ربما قامت "ببذرها". بيد أن هذه النظرية، وهذا ما يسهل إثباته، لم تحمل أي واقع يساند فكرة الخلق. والأسوأ، أنها تفترض أن الأرض تبلغ من العمر أكثر من مليون سنة وينكر مؤلفاها فكرة **الطوفان** الشامل!

في الواقع لم تكن كل "البراهين" المزعومة المقدمة لصالح "علم الخلق" تهدف إلا لاستغلال بعض النتائج من أجل وضعها، بطريقة مصطنعة غالباً، في حالة تناقض مع المقولات المقبولة أو الفرضيات المقدمة من قبل علماء البيولوجيا. وقد أظهر بوضوح تام فيليب كيتشر (Ph. Kitcher) أن مضمون "علم الخلق" ليس أكثر من مونتاج لنُتف مستمدة، غالباً بالمقلوب، وأحياناً مقابل تناقضات واضحة، من أنظمة علمية مختلفة ضمن بعد سجالي محض.

وينطبق الأمر كذلك على الحجج المستندة إلى نظرية "التوازن الفواصلي" لغولد و ايلردج وكذلك أيضاً على كل الأبحاث المستخدمة من أجل "إثبات" حداثة عمر الأرض: فقد أكد الباحثون التطابق المذهل لقياساتهم بمختلف أساليب قياس الأشعة، وفندوا الحجة المستندة إلى تطور الحقل المغناطيسي الأرضي، وبينوا أن الخلقيين ينزعون من الأبحاث التي استشهدوا بها ما يمكن أن يربك استنتاجاتهم: فالصخور الرسوبية تثبت أن هذا الميدان قد تعرض لتغيرات لا حصر لها في هذا

الاتجاه أو غيره طوال تاريخه[16]. فلا يوجد إذن أي اتجاه نظامي يسمح بأن نستخلص منه بعض الاستنتاجات المتعلقة بالحالة الراهنة للكوكب. أما بالنسبة للبرهان على الغبار الكوني، فإنه يستند على حسابات جرت قبل غزو الفضاء وقد جرى منذ عشرين عاماً تصحيحها نتيجة للملاحظات التي تمت من على سطح المركبات الفضائية وكذلك عبر استكشاف سطح القمر الذي لا تزيد سماكة طبقة الغبار فوقه عن 15 سم.

كما ينطبق الأمر ذاته على التقديرات المستندة إلى الديناميك الحراري، إحدى الحجج المفضلة لدى هـ. م. موريس. فإن العلماء يردون عليه بأن هذا القانون ينطبق فقط على الأنظمة المغلقة، وبأن زيادة القصور الحراري لا قيمة له بالنسبة لهذه الأنظمة المفتوحة التي تشكلها الأنظمة الحية. لم يصب موريس بالارتباك وردّ بأنه لا يوجد في العالم الواقعي في الحقيقة أي نظام معزول. "فكل الأنظمة في الواقع هي أنظمة مفتوحة، وفضلاً، فإنها مفتوحة أكثر، وفق درجات مختلفة، بشكل مباشر أو غير مباشر، للطاقة القادمة من الشمس. فالقول إذن أن الأرض نظام مفتوح للطاقة الشمسية لا يفسر أي شيء بما أن ذلك صحيح أيضاً بالدرجة ذاتها في كل الأنظمة". ويضيف: "لا يمكن أن يحدث، بجلاء نمو في نظام مغلق. بيد أن هذا المعيار ناقل، لأنه في العالم الحقيقي لا وجود بكل بساطة لأنظمة مغلقة! ومن الواضح أن قوانين الديناميك الحراري تنطبق تماماً على الأنظمة المفتوحة، لأنها لم تُجرب وتثبت إلا على أنظمة مفتوحة!".

وسوف يردّ عليه أنه من أجل قبول مثل هذه الحجج ينبغي "بجلاء" تجاهل طبيعة المفهوم الفيزيائي لـ "النظام المغلق"، والذي يمثل إنشاء نظرياً من أجل تفسير عدد معين من الظواهر، في حين أن مفهوم "النظام المفتوح" يسمح بتفسير ظواهر غيرها.

---

[16] إن هذه التغيرات، كما رأينا للتو، هي التي تتيح اليوم ليس إلغاء وإنما تصحيح التواريخ المقدمة عبر الكربون 14.

يبد أن هذا الجواب يقع على مستوى لا العلم وإنما فلسفته، أو إذا شئتم، مستوى الابستيمولوجيا. وقد أدرك القاضي أوفرتون تماماً أنه هاهنا يقع سوء الفهم الأساسي - المقصود أو لا. وبعد أن بين بإسهاب أن الوصف المقدم لنظرية النشوء من قبل الخلقيين كان مغلوطاً بدرجة خطيرة، ثم بيّن أن الأبحاث التي استشهدوا بها لمساندة "علم الخلق" كانت مستغلة بالمقلوب، فقد بدا له ضرورياً، كي تكون القضية مفهومة، تقديم تعريف "للعلم" يكون بوسعه الفصل بين ما يدعوه البيولوجيون والخلقيون "علماً" لأنهم، كما يبدو، لا يعزون المعنى ذاته لهذه الكلمة.

ومن هنا جلسة استماع لمايكل رس بوصفه خبير في الابستمولوجيا، وقد طُلب إليه عرض المعايير التي يمكن أن تسمح بمثل هذا الفصل. ينبغي القول إن الخلقيين كانوا قد قاموا، بطريقة ما، بدعوته لفعل ذلك، لأنهم ولأجل إسقاط نظرية النشوء، استخدموا بإلحاح معياراً لبستمولوجياً معروفاً جداً ويحظى بالاحترام في الوسط العلمي هو معيار "قابلية النقض" (أو "قابلية التقليد") الذي قدمه كارل بوبر في كتابه الشهير (منطق الكشف العلمي *Logique de la découverte scientifique* 1959). إن أية نظرية لا يمكن وصفها بـــ "العلمية" إلا إذا كان بالإمكان أن تحصل استنتاجاً، من بين فرضياتها العامة، على فرضية تصف على الأقل اختباراً تجريبياً واحداً يمكنه إذا جرى إثبات صحته، أن ينقضها[17]. لنقرأ ديان ت. جيش مجدداً: "لقد بين بوضوح شديد فيلسوف العلوم البارز كارل بوبر، على الرغم من كونه هو ذاته تطورياً، أن التطور، وليس أقل منه الخلق، أمر غير قابل للاختبار وبالتالي ليس قابلاً للإثبات. وهكذا، فلكي نستطيع وصف نظرية بأنها علمية ينبغي أن تكون مدعمة بوقائع، وبسيرورات أو بخصائص يمكن ملاحظتها، والنظرية ينبغي أن تكون صالحة للتكهن بحدوث الظواهر الطبيعية أو للنتائج التجريبية في المخبر.

---

[17] انظر كارل بوبر، منطق الاكتشاف العلمي *La logique de la découverte scientifique* ترجمة فرنسية باريس يوليو 1973، ودومينيك ليكور L'ordre et les jeux (النظام والألعاب) باريس، غراسيه 1981.

وثمة تحديد آخر يُفرض عادة ينص على أن تكون هذه النظرية قابلة للنقض. وبقول آخر: ينبغي أن يكون ممكناً تصور تجربة ما تصلح فكرتها لتكون برهاناً ضد هذه النظرية. وبالاستناد إلى مثل هذه المعايير يرفض معظم التطوريين اعتبار الخلق تفسيراً محتملاً لنشوء الأنواع. إن أي مراقب بشري لم يقدر له حضور الخلق، والخلق لا يمكن إخضاعه لاختبار تجريبي، وهو بوصفه نظرية لا يمكن تقليده. بيد أن هذه الأدلة توجه أيضاً ضد نظرية التطور. إن النظرية العامة للتطور لا تستجيب فوق ذلك لأي من المعايير الثلاثة الأخرى".

فهل يحرّف جيش فكر كارل بوبر لصالحه، كما مهر أصلاً في التلاعب بالنتائج التي حصل عليها العلماء؟ وإذا تمسكنا بأبحاث بوبر فإنه ينبغي الاعتراف بأنه لا شيء فيها من هذا من حيث الجوهر، حتى لو كانت نصوصه قد أظهرت بخصوص قضية الداروينية - تبدلاً تدريجياً في وجهة نظره عبر مرور الزمن. فقد تمسك كارل بوبر لمدة طويلة بنقد "تقليدي" لنظرية الاصطفاء الطبيعي. وقد أشار منذ كتابه *The Poverty of historicism* (1944) إلى أن هذه النظرية لغوية: فإن كان الاصطفاء الطبيعي يُعرف على أنه "البقاء للأفضل"، فإن النظرية تُختصر في الطرحين اللذين يغلقان الدائرة: ذلك الذي بقي هو الأفضل، والأفضل هو ذلك الذي بقي. وباختصارها على هذا النحو فإن النظرية الداروينية تظهر كما لو أنها محض سفسطة، ولا يحقُ لها أن تُعدّ لا بين النظريات العلمية ولا بين النظريات "الميتافيزيقية". وقد أصرّ بوبر في كتابه *Objective knowledge* (1972)، على أن هذا "الجانب" من النظرية الداروينية يظل في نظره "بديهية منطقية". لكنه أضاف تدقيقاً هاماً وجديداً. "إن التأثير الثوري لداروين على رؤيتنا للعالم كان على الأقل شديد الأهمية إن لم يكن شديد العمق بالدرجة نفسها التي كان عليها تأثير نيوتن. لأن النظرية الداروينية في الاصطفاء الطبيعي قد بينت أنه يمكن في المبدأ اختزال اللاهوت إلى السببية، بتعليله، عبر عبارات فيزيائية صرف، وجود قصد ومشروع في العالم". ومن هنا توصل سير كارل (Sir Karl) إلى هذه الخلاصة: في البيولوجيا - حتى أولئك الذين بيننا يعتقدون أن كل تفسير لابد أن يكون سبباً. لأنه

بيّن بالضبط أنه في المبدأ كل تفسير لاهوتي خاص يمكنه يوماً أن يختزل، أو أن يفسر فيما بعد، بتفسير سببي".

يلامس بوبر هنا الصعوبة الفلسفية الأساسية التي توهن فكر داروين. فما الذي استدعى فعلاً تحولاً ما من جهته؟ يفسر ذلك بأسلوب مفصل في سيرته الذاتية المنشورة تحت عنوان *Unended Quest (1976)*: ذلك أنه عرف بأمر "النظرية التركيبية للنشوء" فاعتنقها. وتمثل في المحصلة مع ذلك بـــ جليان هيكسلي في النص السابق. بيد أن هذا الاعتناق عُبّر عنه بعبارات قدمت النظرية المذكورة ليس بوصفها نظرية علمية بالمعنى الذي توحيه لفظة "علمية" وإنما بوصفها مذهباً يقدم الخطوط لما كان قد دعاه "برنامج ميتافيزيقي للبحث" لكي يحاكي بسخرية (وينتقد) تلميذه المنشق إيمر لاكاتوس[18].

وقد كتب بعد إصراره على قدم اهتمامه بالنظرية الداروينية: "توصلت إلى الاستنتاج بأن الداروينية ليست نظرية علمية قابلة للتجربة، وإنما هي برنامج ميتافيزيقي للبحث - إطار ممكن لنظريات علمية قابلة للتجريب". إن المنهج البوبري في الشكل الذي يبدو عليه في أعماله الأخيرة يظهر متمركزاً على هذا النحو على "ابستمولوجيا نشوئية" ترجع إلى تصور بيولوجي داروينى - جديد لتطور المعرفة، تصور تلخصه بنجاح عبارة: "من الإميبيا إلى اينشتاين، فإن نمو المعرفة يظل هو ذاته دائماً" ويلطف من لهجته مضيفاً: "الفرق الرئيسي بين اينشتاين والأميبيا هو أن اينشتاين يعمل بوعي على التخلص من أخطائه". وقد وصل الأمر ببوبر حتى للحديث عن "اصطفاء طبيعي للفرضيات" لكي يصف النشاط العلمي. لكنه يظل صحيحاً أيضاً أنه، من أجل أن نسند إليه هذا الدور، أن بوبر ينبغي أن يستمر في رفضه اعتبار النظرية الداروينية للنشوء نظرية علمية بالمعنى الذي تقتضيه هذه اللفظة.

---

[18] انظر الفصل 37 من *La quête inachevée* التقصي غير المنجز وهي الترجمة الفرنسية لكتاب Unended Quest. باريس كالمان - ليفي، 1981، ص 240 - 257.

إننا نتفهم الشعور العميق بالعرفان الذي عاين فيه الخلقيون كتاب بوبر. والغضب الذي عبر عنه الفيلسوف عندما رأى نفسه مجنداً في حملتهم[19].

حينما طرح مايكل رس إكراماً للقاضي السمات التي تميز العلم عن اللا علم، ذكر مع ذلك معيار "القابلية للنقض" الذي وجد من الأصح أن يضيف أربعة معايير أخرى يعتبرها، في أعقاب ناجيل وهيمبل[20]، "إصطلاحية تماماً". وقد اتخذ نص الحكم على عاتقه هذه الدراسة الموسعة للمعايير ليخلص منها إلى الصفة اللاعلمية للأسلوب الخلقي.

ستكون نتيجة هذه المداخلة الإبيستمولوجية، إن كان ثمة حاجة لقول لذلك، أن يبرز إلى العلن الانقسام المستحكم فيما بين المختصين في هذا العلم. وهكذا نرى لاري لودن يتصدى في الحال لشهادة رس، ويؤكد أن المعايير التي أطلقها لا تسمح بالتمييز ما بين العلم واللاعلم، ويعلن دون مواربة أن الخلقية ينبغي أن تستبعد من قاعات الصفوف فقط لأنها "علم رديء"[21]. وسينضم إلى هذه الحملة بعد قليل فيليب كوين الذي أكد، هو أيضاً، أنه ليس من الضروري البرهنة على أن "علم الخلق" هو مذهب ديني لكي يُسمح بعدم قبوله في المدرسة[22]. وقد أنكر فيليب كيتشر، من جهته، على المعيار البوبري شكله "الساذج"، لكنه اقترح - شاجباً رس ضمناً - إحدى النسخ المنمقة لهذا المعيار ذاته.

---

[19] انظر مقالة كارل بوبر New scientist عدد 21 آب 1980، ص 611.

[20] كان كارل بوبر قد اقترح صراحة معياراً لـ "وضع الحدود" ما بين العلم واللاعلم بخلاف تراث الوضعية أو التجريبية الذي كان يطرح مسألة أخرى: مسألة التحقق من المقولات العلمية، وبالتالي من معناها. يمثل بوبر وتلاميذه خطأ فكرياً بينما تمثل التجريبية المنطقية خطأ آخر. فلا يتفق التمسك بهما معاً. راجع دومينيك ليكور "النظام والألعاب"، باريس غراسيه 1982 حيث حللت هذه الأزمة ببعض التفصيل على ضوء Wittgenstein.

[21] Cf. en particulier Darwinism and determinism par Michael Ruse. Zygon. vol. 22. n° 4. décembre 1987.

[22] مايكل رس، 1986.

ألم تكن ساحة التنازع هذه مفيدة؟ ألم يطرح لودان وكوين بأسلوب ملتوٍ السؤال الحقيقي، حينما تساءلا حول ميل فيلسوف علوم للحضور للشهادة بصفته الرسمية أمام إحدى المحاكم؟ "إذا كانت آراء الخبير لا تمثل توافقاً مثبتاً داخل الجماعة الأكاديمية المعينة، فإن القرار السياسي الذي سيتبنى وفقاً لهذه الآراء سيفتقد إلى المصداقية داخل هذه الجماعة، وسوف يعتبر أعضاؤها على وجه الاحتمال أن مثل هذا الفقد للمصداقية سيؤدي إلى فقد الثقة بالقرار المعني.

وقد رد رس مدافعاً في المقام الأول عن حق (وواجب) "العلماء (والفلاسفة ضمناً) بتقديم وجهة نظرهم أمام المحاكم إذا جرت دعوتهم إليها". ولكن ينبغي عليه من أجل القيام بذلك أن يطرح والحالة هذه، بأنه يوجد "رأي يشترك فيه الجميع حول ما يميز العلم عن اللاعلم". ومن الواضح أن الأمر لم يكن هنا كذلك.

ألم تقدم محكمة آركنساس في نهاية المطاف، ودون أن ترد ذلك، برهنة كبيرة الأهمية.. فلسفية؟ فأن يدعي الفرع الفلسفي المسمى بـــ "الإبيستمولوجي" تنصيب نفسه محكمة للعلم، فهذا شيء تأكد، وحتى أنه يمكن القول إن هذا هو الميل الذي تحتفظ به عن بداياتها الحقيقية في أعمال كانط[23] وأن يقودها هذا الادعاء لطرح "معايير" حكم ذات تطبيق على هذه الدرجة أو تلك من الدقة، فإن تاريخ هذا العلم يشهد بالكثير من ذلك. وقد ظهرت في هذا الأمر وريثة لتقليد فلسفي طويل لمعت فيه قبل كانط أسماء مثل ديكارت وليبنيز على سبيل المثال. بيد أن أياً من هذه المعايير لم يحظ مطلقاً بإجماع الفلاسفة: فهم يعرفون تماماً أن على نصه التقني ظاهرياً سوف ترتبط مجموعة من الطروحات التي تتعلق تدريجياً ليس فقط بالعلم بل كذلك بالأخلاق والسياسة وعلم الجمال والدين... إن معنى هذه "الدراسة

---

[23] اللفظة ابيستيمولوجي Epistemology اشتقها الفيلسوف الإيكوسي Ferrier، بيد أن مشروع الابستيمولوجيا بوصفها نظرية حديثة لأساس العلم يوجد في كتب كانط: المبادئ الميتافيزيقية الأولية لعلم الطبيعة 1788 - *premières principes méthaphysiques de la science de la nature*: "أول تطبيق مجرد في ميدان العلوم الفيزيائية المعاصرة لقرار إحدى "المحاكم"، الواردة في كتاب: "نقد العقل الخالص" *la Critique de la raison pure 1781*.

والمعايير" سيبدو واضحاً في حالة بوبر بالضبط الذي له فضيلة الاضطلاع بها كاملة: ولدى وضعه لمعيار "القابلية للدحض" قيد العمل استنتج في الحال أن التحليل النفسي والماركسية ليس لهما أية صفة علمية. في المقابل، فإن هذا المعيار سيضيف إلى سلطة "العلم" نظرية هايك الاقتصادية الليبرالية - الجديدة، ثم أعمال تشومسكي الألسنية اللاحقة. وقد رأينا هذا المعيار يلعب دوره "القضائي" في مجموع المعرفة المعاصرة ضد التقسيمات التي تجريها فيها المعايير الأخرى، مثل معيار (التحقيق) مثلاً الذي كان يتمسك به "التجريبيون المنطقيون" من حلقة فيينا وتابعوهم، لمصلحة الاقتصاد الكينزي ونظرية السلوكية.

وأخطر من ذلك: سوف نرى أن دراسة المعايير "المتوسطة" التي اقترحها مايكل رس ستعاد صياغتها، على الرغم من الاستنتاجات التي ظهر أنه استطاع استنتاجها منها، في عبارات كما لو أنها تنتمي إلى التراث الفلسفي ذاته الذي أتاح للخلقيين بذر الارتباك.

فقد اعترض الخلقيون على البيولوجيين الذين يتشبثون بنظرية النشوء بوصفها جزء مكون من بحثهم العلمي، بالقول: "إنها ليست واقع". وقد سقط ستيفن جاي غولد في الشرك حينما واجههم مرة أخرى بجواب يتوضع تماماً على الأرضية ذاتها: "إن هذا واقع وليس مجرد نظرية بسيطة"[24]، لأن تعارض هاتين العبارتين بالفعل هو الذي عقّد كل شيء، الثنائي واقع - نظرية الذي زج الفكر في نفق فلسفي مغلق.

---

[24] كتب غولد: "إن واقعة التطور هي من الصلابة على قدر ما يمكن أن يكون الإثبات العلمي وصلابتها تتعلق بأنها تكوّن تخطيطة اكتشفتها عدة مناهج علمية". *Hen's and Horse's Tees* ص 385، وقبل ذلك قدم هذا التعريف لكلمة fait - واقعة: "الوقائع هي معطيات العالم. النظريات هي بنيات الأفكار التي تشرح وتؤول هذه الوقائع. ولا تستخلص الوقائع بينما يناقش العلماء النظريات المتنافسة التي قد يمكنها تفسيرها". وأيضاً: "في العلم "واقعة" لا يمكنها أن تعني إلا (مؤكدة) إلى درجة أنه سيصبح من باب الانحراف الاستمرار لمدة أطول برفض قبولها. (المرجع السابق ص 255).

ألم يكن هذا النفق المغلق في نهاية المطاف هو ذات النفق الذي لم يستطع داروين الإفلات منه؟ فنحن نتذكر أن مؤلف *أصل الأنواع* كان قد بحث في أعمال هيرشل و ويويل عن حجج من أجل التحرر من الغائية - مذهب العلة الغائية - الملازمة لكل أشكال اللاهوت الطبيعي. وقد لاحظ بدقة فوق ذلك الرابط الذي كان يوحد المنهج "الاستقرائي" المؤول بالمعنى التجريبي الصارم الصادر عن فلسفة جون لوك، بهذه الغائية المفرطة وإذا كان قد وقع له أن يعبر عن ذاته بلغة هذه الفلسفة، فإن ذلك لم يكن دون تحفظ ذهني كما تشهد على ذلك النصيحة التي أسداها عام 1863 لعالم النبات الإيكوسي جون سكوت: "فلتقدْ النظرية ملاحظاتك، لكن وبانتظار أن تتوطد شهرتك، احرص على ألا تنشر الكثير من النظرية، لأن ذلك سيثير شكوك الناس في ملاحظاتك". ما من شك أن هذه النصيحة كان قد وجهها لنفسه وأنه لتبعها في كل ما يتعلق به ما بين عامي 1838 و1859...

ربما كانت "العودة إلى باكون" التي اقترحها هيرشل قد ساعدته في هذه الطريق، وكذلك الأمر إعادة تقييم الدور الفرضيات في الفكر العلمي الأمر الذي كرس له ويويل جهوده. سيما وأنه يشارك هذا الأخير إعجاباً كاملاً بنيوتن. لكن كيف يمكن التوفيق ما بين آراء العالم هذه وبين المصادفة التي اكتشفها منقوشة في قلب العالم الحي؟ ألا تتعلق عظمة ومجد أنموذجه بكونهما قد سنّا "قوانيناً" تستبعد هذه المصادفة من النظام الشمسي؟ قوانين تنظم حركة الأجسام الفيزيائية المعينة كنقاط مادية تُمارس فيما بينها "قوى" قابلة للقياس رياضياً، سواء على الأرض أو في السماوات. وعندما يريد المرء طرد اللاهوت من العالم الحي عبر رفض الغائية، ألا يعرض نفسه بشكل متناقض وسط هذه الظروف، حينما يكتشف وجود المصادفة فيها، لحرمانها من ممارسة العلم؟

لقد اكتشف داروين إذن أن النموذج الأعلى للعلم الذي يهيمن على الفكر الغربي يستند بكل حساسياته إلى مفهوم فلسفي للطبيعة مرتبط مباشرة بعلم خاص:

فيزياء نيوتن - لكنه لم يعرف كما لم يستطع استخلاص كل الدروس الفلسفية من هذا الاكتشاف، بما أن هذه الفيزياء ظلت أنموذجه. أما "المادية" التي كان يلمحها، بنفور، في أفق أبحاثه فقد ظلت مطابقة في نظره، لآلية صرفة ستحول، رويداً رويداً، الفكر الإنساني إلى عناصر فيزيو - كيميائية. وبينما تابع إرنست هايكل هذه الطريق، رفض داروين دائماً فعل ذلك. فقد ظل "ألوهياً". واكتفى بأن يجمع وسط انزعاج فكر على درجة كبيرة من التناقض أطروحات مستمدة من هيرشل وويويل، ومصححة، إذا صحّ لنا قول ذلك، من قبل صامويل بيتلر. وقد قاده منطق هذا التفكك إلى تمني لو أن المصادفة التي وصفها في أصل التحولات التي تطال الأشكال الحية في مجرى تاريخهم أن تخلي المكان في المستقبل لـــ "قوانين" مدعوة لإدارة ديناميكية من عناصر مادية مطابقة كما ينبغي.

وبهذا المعنى فإن الاحترام الذي أظهر له يوم جنازته كان يستحقه تماماً: فهو لم يقم إلا بإنجاح إلى أبعد مدى هذا الرهان المستحيل بأن يصبح "نيوتن البيولوجيا".

وسيسأل البعض، بأي حق تطلق أحكاماً فظة جداً حول مفكر له هذه القامة؟ ليس من الحق المفترض الذي تدعيه المنابر الابستمولوجية المعاصرة التي تعتقد على حد سواء أنه باستطاعتها الاعتزاز بمعيار حاسم من أجل الفصل، بثقة كاملة، وإلا فعلى ذمتهم وضميرهم، العلم عن اللاعلم، كما تفصل البراءة عن الجريمة، والخير عن الشر. وفي تاريخ العلوم، فإن مستقبل فكرة هو ما يحكم على ماضيها، وتطورها هو الذي ينتخب دون كلل، ما بين مسلّماتها. إن جانباً جوهرياً من هذا المستقبل والحالة هذه يظل اليوم أيضاً جلي الحضور الأمر الذي يمكننا من القول إن هذه الفكرة ستظل حية. ولهذا أيضاً فإن أي حكم ابيستمولوجي يصدر اليوم يتعرض دائماً لخطر أن يجد نفسه غير صالح في الغد.

بيد أن جانباً مما كانه هذا المستقبل ينتمي أساساً إلى ماضينا، وقد حبك خيوط قصة باتت طويلة، وصاخبة ومتقدة وأخاذة. ماذا سنتبيّن فيها؟ إضافة إلى أنه عهد للأجيال اللاحقة مهمة "تسوية قضية" المصادفة التي اكتشفها، فإن داروين قد

ساهم في زج العلماء فوق طرق تاه أكثر من واحد منهم فوقها. لن نعود إلى علم تحسين النسل الذي لم يشجع السير فيه، لكنه لم ينكره أيضاً، لأنه دون شك كان يبدو منسجماً مع "المادية" التي كان يظن أن عمله، على الرغم منه، كان حاملاً لها، وربما أيضاً لأن هيئته الرياضية أغرت النيوتن الذي يحمله، كما كانت قد أغرته في شبابه، للأسباب ذاتها، النظرية الاقتصادية سيئة الصيت التي طرحها توماس روبرت مالتوس (1766 - 1834)[25]. لنتوقف عند واحدة من أطروحاته، أطروحة حذرة جداً، لكنها تبدت الآن أطروحة رئيسية. الأطروحة التي تنص على أن "الطبيعة لا تقوم بقفزات". وقد قيل إنه يمكن نسبها إلى كارل فون لينيي. لا ريب في ذلك مطلقاً. بيد أن هذه الأطروحة الفلسفية، التي ذكرها لايبنيز في كتابه: مقالات جديدة حول *الإدراك البشري "Nouveaux Essais sur l'entendement humain"* تنسجم مع الديناميك التقليدي، كما اكتشف الفيزيائيون حينما واتتهم الفرصة أثناء الأزمة الكبرى المفتوحة في الفيزياء مع اكتشاف الكوانتا. ولأن المثال الأعلى للعلم الذي انضوى تحت رايته كان قد تحقق في نظره في هذا الديناميك، فإن داروين تكفل هذه الأطروحة: ألا تحمل بحد ذاتها الوعد بأن المصادفة في التحولات سيتم يوماً التحكم بها بطريقة عقلانية؟

سنكتشف إذن قوة مثل هذه الأطروحات الفلسفية. فهذه جاءت لتلحيم عدة عناصر من فكرة عالم الطبيعيات: إذا كانت الاستمرارية تسيطر في الطبيعة فإنه ينبغي حينئذٍ أن يكون تطور الأشكال الحية متدرجاً ومطرداً. وقد فاقم بذلك اللبس الذي اعترى "تماثلية" تشارلز ليل وأدرجها في أفق "تقدمي" كما فتح الباب أمام سبنسر الذي لم يتلكأ في الاستيلاء على مفاهيمه عبر وضعها في خدمة فلسفة عامة للتقدم ولصالح أنطولوجيا "التعقد". وقد لاحظنا بعضاً من نتائجها المجردة. لقد رعى داروين المطاردة الطويلة لهذه "الأشكال الوسيطة" التي انعدمت في متحجرات

---

[25] تظل مسألة الدور الذي لمكن أن تلعبه قراءة نتاج مالتوس في تشكيل فكر داروين مدار نقاشات عديدة. يمكن مقارنة كلمي ليموج مصدر مذكور سابقاً 1969 وفرانسوا جاكوب (La logique du vivant منطق الحي) باريس، غاليمار 1970.

عصره. ولم يستطع، مقتنعاً بالمنطق الفلسفي ذاته، تجنب أن يثير في علم المتحجرات ذاته، التباساً خطيراً بين ما يظهر منها من التحليل التصنيفي لقرابات العضويات وبين ما ينتمي إلى توطيد سيرورات أخلافهم[26]. ألم يكتب داروين في *أصل الأنواع*: "أن الرابط الذي تظهره لنا تصنيفاتنا - وهو رابط متكر في حالته الراهنة بدرجة مختلفة من التعديلات - ليس غير رابطة الأخلاف، وهو العلة الوحيدة المعروفة للتشابه في الكائنات المعضاة". إن التشابهات التي تسمح بالتصنيفات تبدو عندئذٍ ناجمة عن تقاسم الصفات الموروثة من النوع السالف. وقد قدم باسكال تاسي أكثر البراهين سطوعاً: تجذرت الأشجار "الأنسالية" على أرضية هذا الالتباس، وخلدت آثار عقباته على فكر المصنفين والنشوئيين، حتى لو كان لهم الفضل الكبير في أن عرضوا أمام الجميع لأول مرة واحدية تاريخ الحياة. فقد أصبحت هذه الأشجار "رموزاً شعارية للنشوئية". جذر، فروع وفي أطراف الفروع عضويات مختلفة: وقد مثلت هذه الصورة بحد ذاتها بالنسبة لأجيال من علماء الطبيعة الظاهرة النشوئية في بعدها التاريخي. بعد ذلك سيأتي من يقول لنا ويكرر لدرجة تثير التعجب أو الصدمة بأن "الإنسان ينحدر من قرد" أو من "ثدييات الأسماك"! وسيجري تجاهل مسائل التصنيف - المنهجية - للانطلاق في البحث عن "مجموعات سلفية" افتراضية.

لقد سيطرت سيطرة فعلية مسلّمة التتابعية التي تبناها داروين نتيجة للدافع الفلسفي الذي بيناه سابقاً، على علوم الأحياء طوال قرن وأكثر، حتى هذه السنوات الأخيرة. وتمثل "النظرية التركيبية للنشوء" الداروينية الجديدة المعاصرة وذلك بإدماجها في إطار نظرية الاصطفاء الطبيعي "الطفرات" التي تبدو خارجة عليها. وقد بات مخططها الإجمالي معروفاً اليوم من قبل جمهور واسع: تبدلات وراثية صغيرة (طفرات) وإعادة ترتيبات صبغية تعرض التطور فيها، أي التغير الوراثي

---

[26] انظر حول هذا الموضوع الكتاب الذي أورده سابقاً باسكال تاسي L'arbre à remonter le temps، باريس، ش. بورجوا 1991. وخاصة الفصل 11 المعنون: (l'évolution reconsidérée التطور المعاد النظر فيه).

بعد أن قاده الاصطفاء الطبيعي. وقد أعطى هذا المخطط التطور صورة ظاهرة متدرجة ومضطردة، في تطابق دقيق مع هذا الجانب من الفلسفة الداروينية. لقد مثل تكوين هذه النظرية مأثرة وانفراجاً: فقد رأينا كل عناصر هذه "المربكة" المكومة بفوضى منذ بداية هذا القرن تتوحد وتتطابق. هذا التجمع جرى حول علم الوراثة، حيث يبدو أن فرعاً منه هو "علم وراثة السكان"[27] يستطيع أن يحتوي هو بذاته على كل فروع علوم الأحياء. وقد وصف إرنست ماير بدقة الوضع الذي كان سائداً من عام 1936 إلى عام 1960: "كانت تلك السنوات محكومة من قبل التركيب النشوئي ووضوح التفاصيل الأكثر دقة من النظرية. وقد هيمنت المقاربة السكانوية على كل الأبحاث وقد أعيد الاهتمام مجدداً بالتنوع، وعلى وجه الخصوص، في السكان والأنواع، وقد جرى تحليل الجوانب التكيفية للتنوع بعبارات القوى الاصطفائية، غير أن كل المعطيات الوراثية جرى تفسيرها في ضوء مفهوم تحول تواتر الجينات وحده". ولم يخشَ إرنست ماير ذاته ضمن هذه الشروط وصف النشوء بأنه "واقع": "يملك البيولوجي الحديث الكثير من أدلة النشوء لدرجة أن يعتبره واقعاً مؤكداً في مثل دوران الأرض حول الشمس" وها هو هذا الواقع وقد كُلف بمساندة "ثورة فلسفية": "فالثورة الفلسفية التي أحدثها داروين توطدت فوق قواعدها بقوة أكبر من أي وقت مضى". وكما أشار إلى ذلك غولفن لورلن، فإن هذه الاعتدادية - التي تمارس اللبس الابيستميولوجي - قادت ماير إلى أن يصف بالمتدين مؤرخ العلوم الكبير ج. س. غرين لأنه تجرأ على اعتبار أن بعض المسائل المتعلقة بآلية النشوء المذكور لا تزال مفتوحة!

وقد انقلبت هذه الحصرية إلى دوغمائية، إن لم نقل إلى طائفية محض وساذجة، وعلى وجه الخصوص في الولايات المتحدة حيث، وبحسب كلمة ب. ب. غراسي المشحونة بالإثارة، أصبحت الداروينية، ضمن هذا التصور، شكلاً من "دين جلمعي" قام ج. هيكسلي بتحرير "توراته". إذ لم يكتف علماء الوراثة بتقديم أجوبة

---

[27] هذا النظام اشتهر في فرنسا على يد ألبير جاكار في كتبه العديد خلال سنوات السبعينات، انظر على سبيل المثال: مديح الاختلاف Eloge de la différence ، باريس، سوي.

على الأسئلة التي تتعلق بتخصصهم، بل سعوا إلى أن يفرضوا نمط تفكيرهم - المختصر حينذاك إلى شكلانية بسيطة - في ميادين البحث الغريبة عنهم. من هنا حدث، وقد ساعدت في ذلك ألاعيب المؤسسات والميزانيات ووسائل الإعلام، عقم - مؤقت - أضرّ على سبيل المثال بعلم الأجنة ووسم بعدم المصداقية علم المتحجرات..

ومع ذلك فإن علماء المتحجرات هم الذين أنجزوا تعرية الفلسفة المضمرة لهذه المنظومة. وندرك اليوم أن هذه الفلسفة كانت قد قبلت دون نقد من قبل رؤوس النظرية التركيبية. يقف في المرتبة الأولى من علماء المتحجرات هؤلاء، كما قلنا سابقاً، ستيفن جاي غولد. والحال أنه لم يكتفِ، عندما طرح مع إيلردج نموذج "التوازن الفواصلي" بعرض حالات الانقطاع التي تطال السجل المستحاثي. فقد أعاد كل البريق وكل الصرامة إلى فكرة الاحتمال الشاذة[28]. هذه الفكرة التي كان لداروين الفضل في العمل على معارضتها بوصفها حكم قبول الدعوى ضد مذهب العلة الغائية، لكن أمام شدة التخريب الفلسفي لهذا المذهب آل به الأمر إلى التراجع.

وقد عرفت أعمال غولد كيف تتطابق مع العديد من الأبحاث التجديدية والتي بشرت، باعتراف المختصين بعهد جديد لنظرية النشوء: الجغرافية الحيوية التي جددتها نظرية تكتونية (بنيوية) الصفائح، الوراثية النظرية التي طالما جرى إزدراءهـا، نظرية "انحراف القـارات" لعالـم الأرصاد الجويـة ألفرد فينجـر A. Wegener (1880 - 1930)[29]، النتائج المحرزة من قبل "دارسي القرابة" التصنيفية، التي توسعت على أنقاض الأشجار السلالية وسمحت بالتحدث بشاعرية عن "نشوء فسيفسائي"[30] تحقق ليس من "جماعة" إلى "جماعة" وإنما من صفة إلى

---

[28] كتابه الأخير المترجم إلى الفرنسية تحت عنوان: "الحياة حلوة" La vie est belle، باريس، سوي 1991، يقدم الرواية الأكثر اكتمالاً لإعادة الاعتبار للاحتمالية.

[29] ألفـرد فينجنـر: La genèse des continents et de océans, théorie des translations continentales عام 1926، ترجمة فرنسية، ش، بورجوا 1990.

[30] امتلاك خمسة أصابع هو سمة أقل "تطوراً" من امتلاك حافر يتطابق مع أصبع.. هل سينبغي استنتاج أن الحصان هو "أكثر تطوراً" من الإنسان؟

صفة[31]، النظرية المدعوة "الحيادية" في الاصطفاء الطبيعي التي أطلقها قبل أكثر من عشرين عاماً الياباني كيمورا (Kimura)[32]، الأبحاث المتعلقة بعلم الأجنة التي عاودت انطلاقها بعد اكتشاف "جينات النمو"[33] لنراهن على أنها عرفت جميعها كيف تتطابق مع النتائج التي أحرزها العلم حديث النشأة "علم السلوك الإنساني" الذي جاء هو أيضاً ليحطم التخطيطة التتابعية الداروينية وشهدت بعدم انطباق التقديرات الاستقرائية للسلوك الحيواني على السلوك الإنساني والتي أظهر "علم السلوك الحيواني" ذو الأصل الداروينى الجديد اعتياده على فعلها[34].

إذا كان يتعذر قهر الاحتمالية، وبالتالي إذا كان ما هو موجود يحتمل أيضاً ألا يوجد فلنستخلص من ذلك الدروس الفلسفية - إن أحداً لن يعرف كيف يطبق على المعرفة التي تسمح لنا اليوم بتأكيد ذلك مقولات مستمدة من مثل أعلى للعلم مرتبط بوحدة الجوهر بإحدى الانطولوجيات التي جاءت هذه الاحتمالية لتكذيبها. ولنرد على الخلقيين بالقول إن "النشوء ليس لا "نظرية" ولا "واقع" أو إذا شئتم، إنه في الوقت ذاته "واقع" و"نظرية".

وإذا توقفنا عند هذه المفردات، فلنقل إن النشوء يظهر كـ "واقع فكر" يمهر بإمضائه نجاح الطريقة التي سلكها من أجل منح صفة الضرورة للممكنات التي عرف كيف يخترعها عند تجربة الواقع الذي كان يهدف للسيطرة عليه. وهكذا يبدو هذا الواقع كقيمة، لكن هذه القيمة تكمن بأكملها في قوتها الاستكشافية: مركز للمشاكل، أفق للأبحاث. وهي لم تحتفظ بها منذ داروين حتى هذا اليوم إلا مقابل تعديلات عميقة. وما من شيء لا يسمح لنا بالتفكير بأنه لن يجري الأمر نفسه في المستقبل، بل على العكس، فإن كل شيء يشير، وقد رأينا ذلك للتو، بأنه ثمة

---

[31] من غير الصحيح القول إن "الإنسان ينحدر من القرد". إنه تحدر من قرد محدد وليس من غيره، وما يجعل القضية مثيرة: لماذا في الواقع من هذا القرد وليس من أولئك؟

[32] م. كيمورا: النظرية الحيادية في التطور The neutral theory of molecular evolution، كامبريدج، UP، 1983.

[33] آلان بروشيانتز، مصدر مذكور 1988 - 1989.

[34] بوريس سيرلينك: La naissance du sens، باريس، هاشيت 1991.

اضطراباً حقيقياً قد جرى التمهيد له. فقضية "الخلقيين العلمويين" تظهر أن كلمة الخلق تحدد هي أيضاً "واقع فكر" لكنه لا يقدم بتلتاً الصفات ذاتها كسابقة، لأن الأبحاث التي أوحى القيام بها لم يكن لها مطلقاً هدف إظهار الممكنات عبر منحها صفة الضرورة، وإنما تصديق تأكيدات مقدمة مسبقاً مضيفين إليها إقرار الوجود المطلق.

ثمن الدوغمائية

نتيجة لتقديم النشوء كـــ "واقع" واعتماد مفردة "القانون" بخصوصه، شجع البيولوجيون الداروينيون أكثر من مرة انحراف أقصى للفكر البيولوجي نحو دوغمائية علموية، غدت، على أية حال، مهد الخلقية عند نهاية سنوات السبعينات. فكيف ننسى في الواقع ما جرى تقديمه في الولايات المتحدة، على أنه "حدث عام خمسة وسبعين الفكري، وحيته الصحافة وقسم من الانتجلنسيا بوصفه تاريخي: نشر كتاب إدوارد أو. ويلسون الذي يحمل عنوان: *Sociobiology: The New Synthesis* في خريف ذلك العام، وقد شهدنا بروز نظام علمي ظاهراً لا سابق له، مسلحاً بكتاب ضخم من الرأس حتى القدمين، يشجعه عالم طبيعيات كبير في جامعة هارفارد. وقد تقدم هذا العلم بوصفه داروين حتى النخاع، وحتى "داروين، جديد" من واقع استناده مباشرة إلى هيكسلي. وثمة حدث هام: فالقارئ مدعو لأن يكتشف فيه برنامج إعادة تنقيح - أو بالأحرى إعادة كتابة - لمجموع العلوم الإنسانية والاجتماعية! وقد كان الخبر الأهم على صفحات *النيويورك تايمز* وشيكاغو تربيون. وسرعان ما نشب جدال عنيف فوق صفحات مجلة *New York Review of books* ومجلة *Sience*. وكرست له جامعات عديدة من بين أرقى الجامعات (هارفارد، شيكاغو، ميتشيغان..) دروساً بدءاً من العام الدراسي التالي. كانت مفردات ويلسون هي مفردات "نظرية النشوء التركيبية" التي صاغها في سنوات الأربعينات جوليان هيكسلي، وجورج ج. سيمبسون وآخرون، هذه النظرية التي اعتبرت آنذاك أيضاً تتويجاً للداروينية المعاصرة، لقد استمد إذن بغزارة من علم وراثة السكان، لكنه استخدم أيضاً بإلحـــاح نتائج منجزة فـــي علم السلوك الحيواني

منذ كونراد لورنز[35]. وكان ينوي تثبيت (ومفهمة) القواعد الطبيعية (الوراثية) للسلوك البشري. وقد أبدى اهتماماً خاصاً لـ "الاصطفاء الجنسي" الذي كانت دراسته، المهملة من قبل داروين، موضوع العديد من الملاحظات والفرضيات منذ أعمال علم الأحياء الإنكليزي الكبير ج. ب. س. هالدان (1892 - 1964)[36].

قدم ويلسون الذي سرعان ما انضم إليه ريتشارد داوكينز[37] فكرة أن الميزة التناسلية للفرد ستكون الدافع الرئيس للسلوك الاجتماعي عند الإنسان كما في مجموع المملكة الحيوانية. فقد استعاد فكرة كانت قد شقت طريقها منذ أن نطق بها حامل جائزة نوبل لعام (1960) الأوسترالي مارك فارلان بيرنيت: "تلعب الجينات دوراً مهيمناً في جميع جوانب السلوك البشري"[38]. ولم يفت الخلقيون أن يقلبوا لصالحهم المادية الكابحة الطنانة لهؤلاء المثقفين... وها هي، عارية أخيراً، الحقيقة الأخلاقية لنظرية النشوء: الكلبية المرتبطة بالليبرالية الاقتصادية الأشد شراسة، وقد سهّل من مهمتهم واقع أن ويلسون وتلاميذه قد أخضعوا عرض فكرهم لشبكة من الاستعارات المأخوذة بشكل واضح من أعمال الاقتصادي ميلتون فريدمان ومدرسة شيكاغو من أجل تطبيقها على الجينة: "رفع إلى أعلى قيمة" و"تحسين إلى أبعد حد" و"مردود إنتاجي صافي" "استثمار قرابي"[39].

وقد كان الأصوليون في أشد حالات السخط لصورة المجتمع وللسلوك الذي يقدمه "علم الاجتماع البيولوجي". فقد بدا تطور المجتمع مُحدداً بمبدأ الأنانية

---

[35] إ. لو. ويلسون Sociobioglogy، منشورات HUP 1975. في عام 1943 نشر كونراد لورنز مقالته الطويلة الأولى تحت عنوان: Die angebornen Fromen möglicher Erbahrung، الأسس الفطرية للتجربة) في Zeitschrift Für Tierpsychologie.

[36] ملاحظات هالدان تتعلق بمسألة "الغيرية"، بدأت عام 1932.

[37] ر. داوكينز The selfish gene منشورات OUP، 1976.

[38] انظر: أرنست ماير: "تاريخ البيولوجيا"، الترجمة الفرنسية، الجزء الثالث، الفصل 13.

[39] راجع مارشال ساهلنز The use and abuse of biology. An anthropolgical critique of sociobiology وترجمته الفرنسية: Critique de la Sociobiologie. "نقد البيولوجيا الاجتماعية"، باريس، غاليمار 1980.

الصرفة الشامل. كما بدا اقتصاد الطبيعة تنافسياً في جميع جوانبه. وفهم هذا الاقتصاد يعني توضيح العوامل الخفية للظواهر الاجتماعية. والحال، أن الأمر يتعلق، في كل حالة، بالنسبة لعضوية ما بالحصول على مغنم ما على حساب الآخرين. وحتى السلوكيات المبنية في الظاهر على الغيرية تبدو في التحليل الأخير، نتاجاً لخليط من الانتهازية والأنانية. وفي أقصى الحالات، فإن الغرائز التي تقود حيواناً للتضحية بنفسه من أجل حيوان آخر يبدو أن "دافعها" النهائي ضمان تفوق "فريقه الوراثي" أمام طرف ثالث!

ونعرف المثال المفضل لدى ويلسون: مثال الراصد، في مجموعة من الرئيسات، الذي يعرض نفسه لخطر الموت حينما يرسل إشارة التحذير في حالة الخطر القادم من الخارج. وقد وسع ويلسون وتلاميذه منذ البداية تحليلهم، من أجل إبراز "أخلاقية" علمهم، ليشمل مجموعة العواطف الإنسانية المعروفة بنبلها الأرفع: الرحمة، الامتنان، الرفق.. لنفكر بالحالة المحددة بالتضحية بالنفس، ويشرح علماؤنا البيولوجيين: إذا كان للمستفيد قرابة وراثية كافية مع ذاك الذي قرر الموت من أجله، فإن حساباً بسيطاً يسمح بتأكيد أن هذا العمل الغيري في ظاهره، يجري في الواقع لمصلحة توالد جيناته الخاصة. وإذا كان ثمة حظ بنسبة واحد إلى عشرة بأن يكلف العمل الغيري من يقوم به حياته وإذا كان الأمر يعني بانقاذ أطفاله أو أحفاده الذين يشاركهم أكثر من 10% من هذه الجينات فإنه سيمكننا القول إن الفوز بمغنم اصطفائي هو الذي أوحى خفية بفعله هذا[40].

بيد أن أحداً لا يسخر من لاروشفوكو الجزيئي دون عقاب! فقد فُرضت عن الداروينية صورة قاسية على الضعفاء والفقراء، كما كانت "الداروينية الاجتماعية"[41] سابقاً. ويمكن للمرء القول بثقة إن المقصود تقديم صورة "كاريكاتورية" والكلمة هي

---

[40] راجع إ. لو. ويلسون On Human Nature منشورات HUP 1978، ترجمته الفرنسية 1978، باريس، ستوك L' humaine nature. Essai de sociobiologie.

[41] راجع بتريك تور: "الفكر التراتبي" La pensée hiérarchique، منشورات Aubier 1983.

لعالم الوراثة ر. ليونتان[42]: لقد أصبح "الاصطفاء" "مشروعاً" محسوباً للجينة التي من المفترض بها أن تكون ذاتية القيادة. واختصاراً، فإن مذهب العلة الغائية قد أعيد ترميمه من جديد: فالأفضل محدد سلفاً، ومتوقع، وعلى الواقع أن يتطابق مع مثله الأعلى! وقد استطاع غونتر س. ستنت وصف الخلقية العلموية بـــ "آلهات الثأر في علم الاجتماع البيولوجي". ولن يقال أبلغ من ذلك. لقد فتنت بالتأكيد مادية تلاميذ ويلسون صلفة، وحتميتهم البيولوجية المتطرفة، وحيونة الإنسان التي عملوا عليها، ورفضهم لكل بعد رمزي للفكر الكثير من المثقفين الباحثين عن اليقينيات. وآل بهم الأمر إلى إثارة ردة فعل لاسيما وأن خطابهم قد لوث العلم بسياسة دون شفقة في الواقع.

---

[42] ر. ليوونتان: التنوع البشري La diversité humaine، باريس، منشورات (Pour la science) 1984.

_ V _

أمريكا المكتشفة

السياسة والدين

ربما تعلق قدر "الخلقية العلموية" في الولايات المتحدة إذن، في التحليل الأخير، بالنواة الفلسفية لعقيدتها الغريبة. وقد يرتبط بتراث فكري ساهم لأكثر من قرن في تحديد الهوية الأمريكية. بيد أن العلماء والباحثين الأمريكيين، سواء كانوا مهانين أم حانقين أم متحررين من الوهم ما انفكوا يكررون: يستمد هؤلاء "الخلقيون العلميون" قوة جذبهم من الدور السياسي الذي يلعبونه، مع مجموع الحركة الإنجيلية والأصولية. وليس ثمة ما هو أكثر صواباً. وقد يكون من المناسب أكثر التخلي عن كل رؤية بوليسية للسياسة والتاريخ وعدم الاكتفاء بأن نرى في نتيجة لمؤامرة مبتذلة ما بين الظلاميات المتصلبة والمخادعة القادرة على التلاعب بالجماهير الساذجة والجاهلة كما هي قادرة على جذب إلى جانبه رجال سياسة ديماغوجيين علانية.

إن القضية تبدو جدية بصورة مختلفة. وهي تعرّض للخطر مبادئ الفكر السياسي الأمريكي ذاتها، وتاريخ تنظيمها الخاص وكذلك استخدامها من قبل مؤسسات فريدة تنظم توازن القوى السياسية داخلها. وبدقة أكبر: تقوم في الولايات

المتحدة بين الفكر السياسي والفكر الديني علاقة ذات أسلوب لا مثيل له في أي مكان آخر. وهذه هي المفارقة في هذه البلاد حيث لا ينفك علماء السياسة عن التحسر على "نزع التسيس" المستمر للمواطنين، لكنه نزع يبدو ذو هوية سياسية في البداية، لكنه سياسي، لكونه ديني.

وقد لوحظ غالباً أن الأمريكيين يميلون للتقليل من أهمية قوة الماضي إذا لم لا ينكروها بلا قيد أو شرط[1]. فهم يحبون أن يعرفوا أنفسهم في صورة بلد جديد أبداً - "العالم الجديد - معاد للتاريخ، دون ذاكرة، مستخف بالتقاليد، دائب البحث عن الجديد"[2]. ويواصلون معرفة أنفسهم بكل طيبة خاطر في اللوحة التي رسم خطوطها الأولى لهم توماس بين، منذ أكثر من قرنين: "إن أمريكا تعيش في وضع وحالة شبيهين بما كان عليه العالم عند بدايته [...] ومن غير المتاح لنا الانطلاق لتقصي المعلومات في أعماق التاريخ القديم المظلمة، ولا أن نرجم في الغيب. نحن قادرون في الحال على رؤية قيام السلطة، كما لو أننا عشنا فجر الأزمنة"[3].

وقد استمد الفكر الأمريكي من هذه العذرية التاريخية المفترضة، طمأنينة وتفاؤلاً قويين لم تستطع النيل منهما دائماً وحتى يومنا هذا لحظات الشك والقلق التي اعترت هذا الفكر عدة مرات.

وقد قامت حول هذه الصورة "الأسطورة الأمريكية" عن شعب لا مبال، يعيش الربيع الدائم لعنفوان بالغ الحداثة ولا حدود له. وقد افتتن بها الكثيرون، في

---

(1) انظر الفصل الأول (نجوم ميتة Etoiles mortes) من الكتاب الهام واللاذع لويليام بفاف المعنون Barbarian sentiments. How The American Century Ends نيويورك 1989، وقد ترجم بغزارة إلى الفرنسية تحت عنوان: Le réveil du vieux monde "يقظة العالم القديم"، باريس، هاشيت 1991. يقدم هذا الكتاب، المكرس في جوهره لمبادئ السياسة الخارجية للولايات المتحدة، لمحات مؤثرة حول الفلسفة التي كانت في أس وجود هذه "الأمة" بوصفها ذلك.

(2) انظر مقدمة المقالة الوفيرة المكتوبة بالفرنسية للفيلسوف الأمريكي ديك هوارد بعنوان Naissance de la pensée politique américaine (1763 – 1787)، "ولادة الفكر السياسي الأمريكي" (1763 - 1787)، باريس، منشورات Ramsay 1987.

(3) أورده ويليام بفاف 1990، ص 264.

الخارج. ألم نقرأ حتى مؤخراً ما خطته ريشة عالم اجتماع فرنسي اشتهر في سنوات السبعينات على أنه مفكر حر: "لقد أبعدت أمريكا مسألة الأصل، ولا تعنى بالأصل أو بالأصالة الوهمية، فهي لا ماض لها ولا حقيقة مؤسسة [...] إنها تعيش في راهنية دائمة"[4].

ذلك كان ما يسمى الوقوع في الفخ. فالتاريخ الحقيقي لأمريكا لن يمكن فهمه في الواقع دون أن نسجل على العكس الإحالة دون كلل إلى مثل تلك "الحقيقة المؤسسة". ولم ينخدع أفضل مؤرخي الولايات المتحدة بهذا أبداً.

ويتركز السؤال الوحيد الجاد في تعريف وتفسير هذه الحقيقة. وهنا تنقسم آراء المختصين. فالبعض يعتقدون أنهم وجدوها في نصوص أولئك الذين يدعون بالتحديد بـــ "المؤسسين". كوكبة المفكرين الذين أعدوا ما بين عامي 1763 و1787، النصوص الكبرى التي وطدت أسس "الجمهورية" الأمريكية من نص إعلان الاستقلال (1777) إلى نص الدستور الاتحادي (1787) مروراً بالفيض غير المألوف للمشاريع والنقاشات والكتابات الذي أوجده تحرير وتبني الدساتير "وإعلانات الحقوق" المتباينة جداً في فلسفتها، التي اعتمدتها الثلاث عشرة ولاية، الناشئة عن الثلاث عشرة مستعمرة التي تحررت من الوصاية البريطانية. بينما يرى الآخرون ضرورة العودة إلى ما هو أقدم من هذه المرحلة من الحمى الدستورية، إلى اللحظات الأولى من استيطان الأراضي الأمريكية، حينما رست سفن الطهريين الذين جاؤوا ليؤسسوا إنجلترا - الجديدة...

يقدر الأولون، محقين، أن دستور الولايات المتحدة، الدستور الأقدم الذي كتب ولا يزال ساري المفعول حتى اليوم، كان موضع عبادة ثابتة بورع لا يتخيله أحد في أوروبا، ويشددون على أن هذا النص يمكن اعتباره خلفاً مباشراً لفلسفة الأنوار. فهو نص "حديث" بجرأة، كتب من قبل ولأجل "ناس جدد" يبدعون فكرة

---

[4] جان بودريار Amérique "أمريكا"، 1986 ص 151. هذا النص أورده وانتقده بإجادة دينيس لاكورن في كتابه المعنون:L'invention de la république. Le modèle américain، "اختراع الجمهورية، النموذج الأمريكي"، باريس، هاشيت 1991 ص 10.

"حقوق الإنسان" ويستندون بإرادتهم إلى التاريخ القديم التقليدي وعلى وجه الخصوص الروماني كما يشهد اليوم على ذلك مبنى الكابيتول وكذلك كل الأبنية الاتحادية. ويمكن أن نقرأ فيه على هذا النحو نتيجةً "قطيعة مزدوجة"[5] مع الملكية الإنجليزية ومع التراث السياسي - الديني لأوائل المستوطنين الطهريين.

أما الأخرون فيشيرون إلى أن التدرج المقيمْ على هذا النحو الذي عليه أن يقود من فكر الأنوار الأوروبي إلى دستور عام 1787 لا يمتلك مطلقاً صفة الوضوح التي نسبت إليه بعد فوات الأوان، خلال النقاشات التي هدفت بمعان مختلفة إلى مواجهة النصوص "الثورية" الأمريكية بالنصوص الفرنسية. وتظل إحالات الآباء المؤسسين إلى فكر الفلاسفة الأوروبيين أكثر من مشوشة لأنها تدمج ما بين مونتيسكيو ولوك وهارينغتون وهيوم وحتى روسو[6]. أما اللجوء إلى "الحق الطبيعي" الفعّال في وثيقة إعلان الاستقلال على الرغم من كونه مقتصراً على حالة الصك الذي يوحد ما بين شعبين "حرين" (إنجلترا ومستعمراتها) فقد دافع عنه بالتأكيد توماس بين بتألق في كانون الثاني من عام 1776 في مقالته الناقدة المدوية المعنونة بـــ *Common Sense* (الإدراك السليم)[7] حينما طرح للمرة الأولى علانية قضية الاستقلال. وسرعان ما جرى التخلي عن طريقة التفكير هذه مع ذلك. ولم تعد آراء بين التي اعتبرت ذات نزعة إلحادية لا يمكن قبولها، تؤثر كثيراً على مسار "الثورة" الأمريكية. بينما سيظل توماس جيفرسون (1743 - 1826) بالتأكيد أحد معتنقيها الأشد بروزاً، لكن فكر جون أدامز (1735 - 1826) المعبر عنه في كتابه *Thoughts on government* (1776) هو الذي سيلهم في نهاية الأمر، بخلاف التفاؤل الجيفرسوني، محرري غالبية نصوص دساتير الولايات. والحال أن هذا الرئيس القادم للولايات المتحدة كان يدعم موقفاً سياسياً مستوحى من مصدر آخر تماماً.

---

[5] هذه هي، بعبارات محددة، أطروحة دينيس لاكورن الذي لم يتردد في التأكيد في السياق أن "الدولة الاتحادية كانت، في الواقع كما في القانون، دولة علمانية" (مرجع سابق ص 13).

[6] انظر حول هذا الموضوع ديك هوارد 1987، ص 33 وغيرها.

[7] توماس بين Common Sence ، بنغوين 1987، فيلادلفيا 1776.

وقد طرح مقابل "فساد" البلاط والنظام الإنجليزيين، إقامة "الجمهورية"، لكنه عرّفها بـــ "سلطة القوانين المضادة لسلطة الناس". ويستحق منطق نصه أن يحظى بالعناية: فهو ينطلق من الطبيعة الخطاءة للإنسان، بوصفه كائناً كاملاً وقابلاً للجرح أخلاقياً، وهكذا تغدو السلطة السياسية ضرورة لاحتواء ميل المصالح الخاصة للدخول في صراع إذا ما ترك لها الحبل على الغارب. لكن لماذا يجب إقامة نظام ديموقراطي أو كما كان يقول آدمز "الجمهورية"؟ لأن الأمر المقصود هنا هو الشكل المؤسساتي الأشد فعالية من أجل أن يمنع، بالمقابل، تجاوزات السلطة السياسية في فلك الحياة الخاصة للمواطن؛ إذن من أجل ضمان "حرية" الأفراد، باعتبارهم "مالكين" لعدد معين من "الحقوق"؛ والتي يبرز في المرتبة الأولى منها... حق الملكية. ويرتكز هدف النظام الجمهوري، ضمن هذا البعد، بتحقيق سيادة "العدالة". وهذا ما لا يتطابق كثيراً في الواقع مع النظرية الحديثة المدعوة بـــ "الحق الطبيعي" أياً تكن صياغتها. وقد استند "المؤسسون" إلى مونتيسكيو بطيبة خاطر، دون أن يأبهوا كثيراً لأرستقراطيته. وتحدثوا هم أيضاً عن "الفضيلة" التي ينبغي أن تحيي النظام الجمهوري، بيد أن هذه الفضيلة تبدو مبدأ للحكم بصورة أقلّ مما تبدو نتيجة للتناغم ما بين المصالح الخاصة. وكنا سندخل هنا في "حلقة"[8] مفرغة، لو لم يستطع آدامز الاستناد إلى المفهوم، التقليدي في الفكر الطهري، الذي يرى أن أي عقد يرعاه الله بذاته، والذي بحكمته وعنايته يكفل في نهاية المطاف، تناغم المصالح[9].

وسيتم الترويج عندئذٍ بأن فكر المؤسسين يظل في جوهره، تابعاً لفكر *الآباء المهاجرين*. ألم تستلهم وثيقة إعلان الاستقلال صراحة "إله الطبيعة" و"الخالق" و"الديّان الأسمى للكون". وسيعلن جورج واشنطن في خطابه الافتتاحي الأول الذي

---

[8] هذا هو رأي ديك هوارد 1987، ص 168 - 169.

[9] هذا الموضوع أوضحه رالف بارتون بيري في كتابه الهام المعنون: Puritanism and democracy، نيويورك 1944، الفصل 12 يحمل عنوان: "Economic Virtues" وفيه يعلق المؤلف بالطبع على نصوص لريتشارد باكستر وكتاب كوتون ماثر Sober Sentiments، 1722.

ألقاه أمام الكونغرس في 30 نيسان عام 1789 "سيكون من غير المناسب على وجه الخصوص أن أسهو، بمناسبة هذا الحدث الرسمي الأول، عن التوجه بصلواتي الأشد عمقاً نحو هذا الكائن كليّ القدرة الذي يدير الكون.. فليس على أي شعب، أكثر من شعب الولايات المتحدة واجب العرفان والعبادة لليد اللامرئية التي تدير شؤون البشر. وكانت كل خطوة خطاها ليصبح أمة مستقلة تبدو مُسيّرة بحساب ما رباني"[10].

لقد كان الفكر السياسي الأمريكي يسعى للقطع مع فلسفة الملكية الإنجليزية. وكان اتخاذ القرار بكتابة نصوص الدساتير، ولاية ولاية، سيكفي لإثبات أن مثل تلك القطيعة يراد لها أن تكون جذرية، في مواجهة ملكية شائخة لم تكن تمتلك البتة مثل تلك النصوص. ولن يستطيع أحد إنكار أن هذا العمل حدد أيضاً شكلاً من الانتماء إلى فلسفة الأنوار الممون الأكبر لمشاريع الدساتير. وينبغي مع ذلك الاعتراف بأن الفكر الذي توضح في مجرى النقاشات التي سبقت وتبعت إعلان الاستقلال لا يمكن أن يرتبط بهذه الفلسفة ببنوّة بسيطة.

فكيف لا نسجل في الواقع أن العناصر التي تمّ التمسك بها خلالها قد انتظمت في إطار لاهوتي مسبق الوجود موروث من الفكر الطهري الذي رتبوه ونقحوه بالتبادل؟ ولم تصعُب الاستعارة من التيار "الألوهي" في فكر التنوير الإنجليزي سيما وأن هذا التيار لم يحمل طابع المواجهة الطويلة مع الكنيسة الذي دمغ بعمق التنوير الفرنسي.

وهكذا شهدنا "الوصل" الطبيعي لهذا التيار مع فلسفة التاريخ لدى المستوطنين الذين كانوا يرون في العالم الجديد، ذلك العالم الذي سيقومون فيه، بوصفهم شعب الله المختار[11]، بإنجاز التجدد الذي طالما حلمت به المسيحية، هذا التجدد الذي قادت تسويات التاج البريطاني البابوية المخزية إلى جعله في النهاية

---

[10] جورج واشنطن، الجزء XI، ص 384.

[11] لويس هارتز ذهب حد الحديث عن "يهودية" الفكر الأمريكي.

مستحيلاً في أوروبا القديمة. أولم تدخل الإمبراطورية البريطانية وعلى غرار الإمبراطورية الرومانية في طريق الانحطاط[12]؟ ألا يبدو التاريخ بمجمله مسرحاً فسيحاً للمواجهة الأزلية بين الخير والشر؟

تعتبر الولايات المتحدة نفسها مكلفة بمهمة تجديدية، ومؤتمنة على هذا "القدر الواضح" الذي سيجري التذرع به بدءاً من منتصف سنوات 1840 من أجل تبرير الانعطاف التوسعي لسياستها الخارجية[13]. وكان لتعبير "حملة صليبية" استخدام داخلي قبل أن ينطبق حين ذاك على الخارج، ونعرف أنه لم يفقد اليوم شيئاً من حدته في أفواه رجال السياسة الأمريكيين.

هذا ما تبدو عليه، في المحصلة، الصفة الفريدة لهذا الفكر السياسي: فخلف الدستور المكتوب، ثمة دستور غير مكتوب يحث على العبادة التي موضوعها الدستور الأول. ولا يحتاج المرء لأن يكون متفقاً بارعاً ليكتشف، خلف العقلانية "الحديثة" للنصوص التي تنظم الحياة السياسية، استلهاماً اشتهر بأنه إلهي، يدرج مصير هذه الأمة في خطة العناية الإلهية. فثمة حلم، داعم للديموقراطية، مخبوء في الذاكرة، يدور ببطء، زد على أنه غامض، حلم بحكم تيوقراطي[14] أو على الأقل "بحكم توراتي". ولهذا السبب، وكما لحظه ديك هوارد، فإن موقع السلطة في هذا النظام يظل "فارغاً". وقد يحكى عرضياً عن "الإدارة" للإشارة إلى الحكومة القائمة،

---

[12] سيذهل كتاب جيبون الهام "انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" Décadence et chute de l'Empire romain المنشور عام 1776، كل العقول حينما سيقرأ في سنة إعلان الاستقلال ذاتها.

[13] راجع الكتاب الممتاز لفريدريك ميرك: Manifest destiny and mission in American history نيويورك 1963. "إن الإحساس بمهمة تعويض العالم القديم بأنموذج كبير اجتاح الرواد المثاليين حينما وصلوا إلى العالم الجديد. وكان ذلك ناجماً عن الإمكانيات التي توفرها أرض جديدة من أجل بناء سماء جديدة. وقد تبدى هذا الإحساس فيما بعد في كل الأجيال المتعاقبة من الأمريكيين، لقد تغير نمط المهمة، لكن الإحساس بقي (ص 3). يحلل ميرك على الأخص الانعطاف الذي شكله احتلال الفيليبين، وكوبا وكذلك الحرب ضد المكسيك.

[14] كانت كلمة (حكم رجال الدين) théocratie "قد دخلت الفلسفة السياسية للإشارة إلى نظام العبريين والأصح الحديث عن "حكم توراتي" (وحول هذه الفكرة راجع Yirmigahu Uovel في: spinonza et autres hérétiques، سبينوزا وهرطقة أخرون، باريس، سوي 1991).

بيد أن هذا "الفراغ" ليس إلا ظاهرياً، فهو يقصد الله بذاته في غيابه. وسيكون من الصعب إنكار أن الأصولية ستجد في هذه الأعماق القوة الأساسية لنجاحاتها. ولم يكن كليمانس دارّو قليل الفطنة ليلفت نظر المحكمة، أثناء قضية سكوبس إلى أن الغش بدأ منذ أن قرئت آية من التوراة عند بدء افتتاح الجلسة[15]. وقد أظهر علانية رواسب الدستور غير المكتوب التي تكشفها هذه الملامسة للحقيقة.

وسيعترض البعض مع ذلك بأن روح المؤسسات شيء والممارسة السياسية شيء آخر. وهذا أمر مؤكد. لكن يكفي الالتفات نحو تاريخ هذه الممارسة لمعاينة التأثير الذي استطاعت أن تمارسه هذه اليقينات التوراتية. وإليكم بأية عبارات، وقد باتت معروفة جداً، وصف الجمهوري جيمس ج. بلين، في سياق الحملة الانتخابية، لعام 1884، الديموقراطيين: "حزب الروم، والرومانية والتمرد" (روم، رومانية، تمرد)[16]. فهل كلفته هذه العبارة الموزونة جيداً انتخابه؟ لاشك في ذلك. وعلى الأرجح، كما بيّن ج. مارسون، لأنها جاءت في غير محلها. وقد عبرت تماماً على أية حال عما كان يشكل حتى ذلك الوقت في نظر المقترعين خط القسمة بين الحزبين الكبيرين: فقد قدم الحزب الجمهوري عن نفسه صورة تنظيم يهدف إلى توطيد إجماع مسيحي على قاعدة الأخلاقية البروتستانتية الصارمة، وكان قد برر معارضته للعبودية بإسم هذه الأخلاقية. أما فيما يتعلق بالديموقراطيين فقد استمالوا إليهم في الجنوب كما كانوا قد اجتذبوا في الشمال المنحدرين من أصول إيكوسية وايرلندية الذين عارضوا تشدد إنجلترا الجديدة، ثم انضم إليهم الكاثوليك بأعداد كبيرة خلال سنوات 1850.

وقد جرى إعادة توزيع للأوراق في بداية سنوات 1880 وانتهى عام 1896 حينما اختار الديموقراطيين مرشحاً رئاسياً الإنجيلي.. ويليام جينينغز بريان الذي فشل، كما سيفشل عامي 1900 و1908. وأخيراً أوصلوا إلى كرسي الرئاسة وودرو ويلسون الذي على الرغم من كونه جنوبياً فقد كان يمثّل شخصية المشيخي الطهري

---

[15] انظر القصة الحية التي قدمها غولدينغ لهذه المرحلة في كتابه.

[16] أورده جوردج مارسدن 1991، ص 90.

تماماً. وعلى خط مولز، تبنى الحزب الجمهوري نهجاً إدماجياً نحو المهاجرين الجدد وبالتالي مفتوحاً على الكاثوليكية وقد أظهر قدراً من التعاطف مع " Social gospel" وطرد من بين صفوفه الأشد تعصباً من الإنجيليين. وهكذا بدت الفروقات بين القوتين السياسيتين الأساسيتين في البلاد صادرة عن دواع أخلاقية ودينية، ومن ضمنها ما حدث من تبادل واضح للأدوار.

سيكون لتطور الحزب الجمهوري نتائج تتجاوز أبعد بكثير مما لو كانت نتائج تغيير تكتيكي انتخابي: فبعد أن تجذر كأغلبية في الشمال الصناعي، تحرك بشكل جعلت ما يمكن تسميته بـــ "علمنة" المجتمع الأمريكي تجري فيه ليس نتيجة لمواجهة بين الدين والتشكيلات الصناعية والتكنولوجية للثقافة، وإنما عبر طريقة من التوفيق البارع بين أهدافهما.

ولم يغادر الدين إلا مع Grande Dépression الأزمة الكبرى ثم مع التوزيع الجديد New Deal واجهة المشهد السياسي لصالح امتيازات تتعلق بالقضايا الاقتصادية والاجتماعية. ولن يعاود الظهور قبل عام 1968 إلا في حركة الحقوق المدنية *Civil rights* التي حشدت السود حول مارتن لوثر كينغ. ونفهم، في هذه الشروط، كيف أن الأصوليين استطاعوا التوقف عن الظهور كقوة سياسية بارزة طوال ما يقارب أربعين عاماً. لكننا نعرف أيضاً لماذا استطاعوا استعادة عافيتهم خلال سنوات الستينات للعودة بقوة إلى واجهة المشهد السياسي بعد عام 1968.

سيقال إنه من أجل "العودة" على هذا النحو وجب أن يكونوا مع ذلك قد صمدوا أثناء هذا "العبور الطويل للصحراء". وهذا ما كان عليه الحال، كما رأينا سابقاً: عبر الانكفاء نحو مواقف ألفانية من القطيعة مع عالم السياسة، واستغلال استعداد قديم جداً معاد للكاثوليكية، ثم خلال سنوات الخمسينات باللعب على ورقة معاداة الشيوعية التي أججها على أسس مختلفة جداً هـــ. ترومان والسيناتور ماك كارثي.

يبقى أن "الأزمة الثقافية" العميقة التي صاحبت سنوات الستينات قد أتلفت التوافق التقدمي والليبرالي الذي نشأ طوال الـــ New Deal وصمد بقوة أخيراً خلال المرحلة الأشد توتراً من الحرب الباردة. عصر "الشعور الطيب" حيث وجدت

أمريكا نفسها حامية "للعالم الحر" طبقاً "لقدرها الواضح". وهذا اليقين بالذات هو ما جاءت حرب فيتنام لتحطمه بعنف، والتي لم يتم الشعور كثيراً بها على أنها إهانة للقوة الأمريكية، وقد ساهمت بذلك القاذفات الإستراتيجية B52 والصور التلفزيونية، أكثر من أنها تكذيباً أو خيانة لمهمتها الأخلاقية.

وقد دفعت ثورة عام 1968 هذه الأزمة إلى ذروتها. والحال أن الأصوليين عرفوا كيف يكسبون المنافع كسباً مزدوجاً: باستغلالهم بداية رد الفعل العنيف الذي أدى إلى إثارة أمريكا بعنف ضد المثل العليا وتطبيقاتها لـ "معاداة - الثقافة": "جنس، مخدرات، *والروك أندرول*.. لكن أيضاً بحرف ثورة الشباب لصالحهم، وهي التي انتهبت ضد قيم مجتمع استهلاكي تُرك نهباً لأطماع الكسب والقوة لنظام قائم Establishment من المدراء والمهندسين والباحثين بدا لهم صلفاً وفظاً[17].

وقد انضوى الأصوليون، ليلعبوا على هاتين اللوحتين، إلى موضوعة، جرى طرحها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقد اتخذوا منها سلاحاً ماضياً حتى

---

[17] في كتابه المعنون برقة Fuck منشورات غراسيه 1991 يكشف لنا لوران شاليمو سر هذه الانعطافات:
".. فإن الأمريكيين البروتستانتيين المحرومين من قبل لوثر والأخر من صناعة الفنون التي سلمت بها البابوية إلى رعاياها، انفكوا عن التمسك بها، واخترعوا بكثرة ما هو أشد عنفاً من أشد ما لدى الكاثوليكيات من هستيريا. وقد أوحى لهم "فقدان العبادة" الصارخ أيضاً ألف نوعٍ من الهزات الورعة المزيفة والتي كانت أودت بهم في أوروبا القديمة، في زمن ما، إلى الحرق In petto بسبب ممارسة الشعوذة الجنونية. ولم يضيعوا في التبادل: ليس فقط الأصولية، التي مع حكمة المجانين وجهت كل قلق ميتافيزيقي، لكن فوق ذلك، بوصفه "تسلية"، بوصفه "لهواً" Fuck بوصفه مطلقاً للمكبوتات، عجباً، "تكلم اللغات" طرح نفسه فجأة لدرجة ما هنا!، بأي عين تشاهد أي Grand Extasié (مخطوف كبير؟) أمامها ولا تطرف. Rollover تابع بحق القديس يوحنا! اعزف شيئاً من الإيقاع والبلوز! والحال فإذا كان الجميع مجانين بعض الشيء جراء الكبت فإنهم لم يكونوا جميعاً حمقى: فمعظمهم عرفوا - لو تفكرنا قليلاً ودون أن نكون قرأنا أعمال باتاي! يا للعجب! - إلى أين يمكن أن يقودهم ما قد شعروا به للتو: ذلك الجذل، الذي حاولوا جعله يبدو "طاهراً" خالصاً، يظل، في الواقع، وقبل كل شيء جذلاً باختصار. وقد ارتعب البعض منه. فالمتعة المنقولة عبر هذه الأشكال الملتفة من الابتهاج كانت تظهر، وقد جرى تذوقها دون إجازة إكليكانية، بحالتها تلك شيطانية بالتأكيد. ومع ذلك فإن آخرين أسقطوا الأقنعة، فسموا الأشياء بأسمائها - وعصابات الأشرار - وأعادوا إلى الشهوانية الجنسية ما هو لها. وهكذا، تحت شكلها الورع (بحسبما تصرخ كل الكنائس الميتودية) كما في تطبيقاتها المدنية (أه واحد - أه اثنان، أه واحد، اثنان، ثلاثة أربعة) فإن الروك اندرول هو بالنسبة للاشتراكية - سرها الصغير المخجل، والإقرار بفشلها، وجزؤها الملعون".

الآن: هي نقد "الإنسانوية المدنية"[18]. وقد شرح تيم لاهاي كذلك أن كل المواقع الحساسة في جهاز الدولة كانت محتكرة من قبل هؤلاء "الإنسانيين المدنيين" الذين غزوا على الأخص النظام المدرسي[19]. فهل يمكن للإنسانوية أن تكون "مدنية"، إذا كانت طبيعة الإنسان، وكرامته الخاصة تقوم على التقرب من الله بانتزاع نفسه من "العصر"؟ مما لاشك فيه: أنها أخلاق الملعونين، التي يوحيها الشيطان!

إن عودة الأصوليين إلى المشهد السياسي تكرست عام 1979 عبر تأسيس الـ "Moral Majority" (الغالبية الأخلاقية) من قبل جيري فالويل الذي قاد حملة من أجل العائلة الأمريكية، أي ضد الإجهاض والمثلية الجنسية والإباحية التي تدمر العائلة. ويدين له رونالد ريغان بانتخابه، إلى درجة كبيرة. ونعرف أن جورج بوش كان خليفته. وما أن انتُخب حتى عكس الرئيس الجديد اتجاه تعبير الحملة الصليبية التي كانت تستهدف الاتحاد السوفييتي أيام بريجنيف بوصفه "إمبراطورية الشر"! ليهاجم به تجار المخدرات في البداية ثم وما أن خفت صوت "ملهاة المخدر" هذه، ودفع شعب بنما الثمن حتى اتجهت ضد صدام حسين ونعرف ما كلفته للشعب العراقي وللأكراد.

الأخلاق الخَلْقية

تدلّ مبادئ الفكر السياسي الأمريكي، وأسس المؤسسات في الولايات المتحدة، وتاريخ النقاشات التي دارت ما بين القوى السياسية الرئيسية في البلاد، على وجود واستمرار ومنافذ قوة الأصولية. يبقى أن نضيف عنصر تفسير أخير لكي نفهم لماذا، استطاع نقد النظرية الداروينية حول "النشوء مع الارتقاء" أن يصبح منذ بداية سنوات العشرينات، موضوعة كبرى - ووحيدة تقريباً في لحظات معينة - في دعايتهم.

---

[18] يمكن الإطلاع على كل المراجع في الكتاب، المذكور سابقاً، عن جورج مارسدن وعلى الأخص كارل ف. هـ. هنري Remaking the modern mind، منشورات Grand Rapids 1946. إدوارد ج. كارنيل Introduction to Christain Apologetics، منشورات Grand Rapids 1948.

[19] تيم لاهاي The Battle of the Mind، منشورات Old Tappan، 1980. استخدم فرنسيس سيفر كمرجع بسلسلة أفلامه المسماة How then shoud we live?، 1976، والتي لاقت نجاحاً كبيراً.

وحينما يتفحص المرء مجموع المآخذ التي استطاعوا تقديمها ضد هذه النظرية من حملة صليبية إلى أخرى، فإنه سيلحظ فيها تكراراً بارزاً. فلا ينبغي أن تستقطب الاهتمام حجج هـ. موريس وتلاميذه الابيستيمولوجية، "العلموية" والتقنية. فقد عزف هؤلاء الدُعاة على سلم آخر، السلم الذي سمح بالتأثير في الجماهير. إذ تقوم موضوعتهم الأكثر قدماً على التأكيد بأن "نظرية النشوء" تسيء "للقيم الأساسية" للمجتمع الأمريكي. ومن هنا معارضتهم لتدريس هذه النظرية في المدارس.

ولا تستهدف هذه الحجة فقط الصراع ما بين نظرية داروين وحرفية النص التوراتي بعصمته المفترضة، بل تترافق بانتظام بالإشارة المرعوبة إلى أن النشوئية تسيء إلى "كرامة الإنسان". ومن هنا التشديد على فكرة أن "الإنسان ينحدر من القرد"، كما لو أنها رأي "مُخل بالحياء". وهكذا هاجم الخلقيون رؤية شعبية للداروينية، مع أنها الأقل تقريبية كما رأينا[20].

إن كلمة "كرامة" تصدح بعمق في وجدان البروتستانتي الأمريكي لأنها تأخذ وقعاً خاصاً في التراث الطهري. فما هي في الواقع كرامة الإنسان إن لم تكن علاقته مع الله. أليست غاية الحياة الإنسانية أن تقيم معه هذه العلاقة المباشرة التي يسمح بها الشرع شريطة نوال النعمة؟ ولادة جديدة حقيقية مخصصة لتجميل كل أفعال وكل أفكار ذلك الذي يتوصل إليها. إن البروتستانتية تتصف، بحدة أشد دون شك من أية رواية أخرى للمسيحية، بأنها دين الخلاص لأن هذا الخلاص يبقى دائماً غير مؤكد. لكن السعادة الكاملة لن يمكن تصورها على أنها قمة السعادة الأرضية، ولا حتى بالقياس إليها. إذ تتركز كرامة الإنسان، بنعمة من الله، في أن يخلص نفسه من جانبية متع هذا العالم. والحال فإن هذه "المتع" تحاصرنا، وهي تهددنا بداية بوصفنا كائنات من لحم ودم، منذ أن تدنست طبيعتنا بالخطيئة الأولى.

---

[20] أحيل هنا إلى الفصل السابق. كتب هنري م. موريس: "إن فكرة نشأة تطورية قد خرجت بكل تأكيد من عقل الشيطان ذاته" في: Studies in the Bible and Science or Christ and Creation، فيلادلفيا 1966 ص 196.

ومن هنا الإلحاح الطهري على الحضور - الحضور الكلي - للشر خلف أصناف الإغواء. إن لإبليس وجه المُغْوي. وحيلته الكبرى: جذبنا إلى الشر تحت ظاهر المتع المباشرة. وتكشف المتع الجسدية أدواتها الأشد فتكاً، وتهدد العواطف التي ترتبط بها بأن تجرفنا في كل لحظة نحو هلاكنا.

إن الدعوة إلى "كرامة" الإنسان، في مثل هذا التراث، معناها على هذا النحو إيقاظ هذا الإحساس بالخطيئة، الذي يرتبط بالعواطف الإنسانية وبمتع الحياة. والقول بأن نظرية ما تهين "كرامة الإنسان" يوحي، كما رأينا، بأنها ذات منشأ شيطاني[21]. فالمثل الأعلى الطهري للحياة يشدد كثيراً على الخطيئة. وهو يجند على هذا النحو كل القوى النفسية للفرد المنضوي تحته إذ عليه أن يتسامى، وقد غدا وحيداً أمام الله[22]، ووسط عدم اليقين الأصلي حيث سيظل دائماً بخصوص خلاصه، نتيجة لقدر المقرر سلفاً، نحو حب كامل تهدده في كل لحظة ارتباطاته الأرضية. إن براءة المتع التي تنشأ هي الفخ لأشد خدع الشيطان إثارة للرهبة، فإذا انزلق فيها الإنسان فإنه سوف ينحط إلى مرتبة الحيوان. وسيسقط ويفقد طبيعته الحقيقية. وعبر هذا الموضوع تلتحق الطهرية بالتراث المسيحي التقليدي الكبير في الصورة التي تكون عليها في أوروبا بعد الخروج من العصر الوسيط[23]. وحينما تشكل العقل الغربي ظهرت الحيوانية فجأة بوصفها التهديد الملازم للإنسانية: وهي تمثل في الإنسان ذاته: الاندفاع، والهوس بحرية دون ضوابط لا يستطيع إلا العقل

---

[21] قد يجدر هنا استحضار الشخصية المتشددة لأبرز الطهريين - الأمريكيين، جوناثان إدواردز. فإن رغبته في إيقاظ الإحساس بالخطيئة جعلته يتبنى أسلوباً متجسماً في الوعظ. وقد وصف رالف بارتون بيري إنجيليته بـ "التخويفية". وتبدو حياته كمعركة طويلة من أجل مذهب الجبرية الكالفاني، بكل صرامته. راجع رالف بارتون بيري، مرجع مذكور فصل 5.

[22] راجع لوثر في تعليقه على "الرسالة إلى الجلاطيين" بعنوان: "لأجلي أنا": لأنه لم يسلم الخراف، والعجول، والذهب والفضة، بل الله ذاته تماماً وكلية من أجلي، من أجلي أنا الخاطئ البائس. هكذا سلّم ابن الله إلى الموت من أجلي أنا، فحصلت من ذلك على منفعتي أنا. وفي هذا المكسب تتركز قوة الإيمان".

[23] يمكن الرجوع حول هذا الموضوع إلى التحليلات الرائعة لميشيل فوكو في كتابه: "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" l'Histoire de la folie à l'âge classique بباريس 1972، خاصة ص 164 وغيرها.

وحده السيطرة عليها. ومن هنا واقع أن هذه الحيوانية تعزو قناعها إلى الجنون. وقد تحدث ميشيل فوكو عن وسواس أعطى منذ التاريخ القديم، وعلى الأخص منذ العصر الوسيط، العالم الحيواني "غرابته المألوفة"، وأعاجيبه المهددة، وكل ثقله كقلق خفي. ويضيف "لكن الانمساخ الحيواني لم يعد العلامة المرئية للقوى الجهنمية ولا نتيجة لخيمياء جهل شيطانية. فالحيوان داخل الإنسان لم تعد له قيمة المؤشر للماوراء، بل أصبح جنونه: جنونه في حالة الفطرة. إن الحيوانية التي تندفع في الجنون تنتزع الإنسان مما يمكن أن يمتلكه من الإنساني داخله، لكن ليس من أجل تسليمه إلى قوى أخرى، بل من أجل تثبيته فقط عند الدرجة صفر من طبيعته الخاصة".

أن تكون هذه الحيوانية فسق محض، هو ما يتبدى عبر شطط عاطفة الحب وبالقدر نفسه عبر شهوانية المصابين بالهستيريا. وقد وجد هذا الرابط ما بين الحيوانية والجنسية كلمة لتعبر عنه: البهيمية[24]. فمنذ القرن السادس عشر وحتى أيامنا هذه، تلاحقت نصوص القساوسة من أجل تبيان خطرها، وملاحقة مقدماتها الأولى، وكشف جاذبياتها. ومن هنا، على سبيل المثال، رعب الكالفانيين الموروث حيال الرقص. وقد عبّر بيير ميرلان عن رأيهم الموحد حينما كتب: "أليست قمة الشر في أنه، وبعد أن يكون المرء قد هيجته الخمرة، يأتي إلى الرقص، فلا يسمع إلا موسيقى شهوانية، ولا يرى إلا حركات مغرية مع حرية في قول وفعل تقريباً كل ما يريده.. "[25]. إن الأمر يتعلق هنا بمعركة حقيقية، كما يشهد بذلك الشاعر

---

[24] منذ القرن السابع عشر، أخذت العبارة فهماً مزدوجاً: التصرف مثل بهيمة، أي "الاستسلام إلى الله" لكن أيضاً ممارسة علاقة "مخالفة للطبيعة" مع حيوان ما. وقد لعب ساد، الذي كان يهاجم النظرة الإنسانوية للطبيعة الإنسانية كما تصورها المسيحي، على هذه الحيونة (العلاقة الجنسية الشاذة بين إنسان وحيوان) بسخرية لكي يفصل ما بين هذين المفهومين.

[25] بيير ميرلان Sermons sur le livre d'Esther (عظات حول كتاب إيستر، منشورات لاروشيل عام 1591 ص 35. هذا النص أوردته جانين غاريزون في كتابها الممتاز المعنون L'homme protestant باريس منشورات كومبليكس 1986، الذي لا يتحدث على الرغم من عنوانه إلا عن البروتستانت الفرنسيين الذين يختلف تاريخهم وقناعاتهم اختلافاً شديداً عن تاريخ وقناعات الانغلو - ساكون، وعلى الأخص الأمريكيين.

لوجيه غلبار: "من جهة أخرى، يقال إنه بعد وجبة دسمة نشهد الرقص عادة. ونعرف تماماً أنه عند هذه اللحظة يكون الجميع قد هيجتهم أصوات الآلات التي لا تعزف إلا أغنيات شهوانية: هذا هو مجرى حياة الكثيرين من الكاثوليك"[26]. ستخترق إدانة الرقص القرون للأسباب ذاتها: انشغال "تافه" يثير الخيال عبر حركات فاحشة.

ومن الواضح أن الكحول يعاني الإنكار ذاته. وقد عبر ليف روسبو عن ذلك شعراً:

دون سيرس وباخوس تعاني فينوس الذبول
وذاك الذي يريد قهر شهوات جسده
وتجنب الشر الذي يرتكبه في النوم
فليأكل وليشرب باعتدال وليكتف بالقليل[27].

"قهر": بالتأكيد إن البهيمة في الإنسان هي ما يعني الأمر بالسيطرة عليها، وهي التي تنطلق من عقالها حينما يستسلم الإنسان "للشر الذي يرتكبه في النوم". لكن لن يمكن تلخيص الموقف الطهري - وهو والحالة هذه مشترك لدى غالبية فروع الكالفانية - بأنه شيطنة بلا قيد أو شرط للمتعة الجنسية وكل الملاهي التي تهيئ لها بمكر أو تقود إليها. لذا ينبغي أن يفرد لها مكان من الحب الجسدي في إطار الزواج المحمول في أفق آخر تماماً مختلف عما هو في التراث الكاثوليكي[28].

وقد أوضح كالفن نفسه بكل وضوح حول هذه النقطة. فبعد أن أشار إلى أن المتعة الجنسية هي من حيث الجوهر حاملة للخطيئة، قدّم الزواج تحت مظهرين.

---

[26] أ. غلبار. الأعمال الكاملة Œuvres complètes التي نشرتها E. Nègre، باريس PUF، 1970 ص 67.

[27] ليف روسبو: Questions spirituelles de l'honnête amour nouvellement mis en lumière، باريس 1586 ص 24، أوردته جانين غاريزون.

[28] من المعروف أن العفة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، تظل في هذه الموضوعات القيمة الأعلى. فالزواج هو سر مقدس ينذر الزوجين الذين تشكلا على هذا الأساس لحب الله. ولا يكون للعلاقة الجنسية أي هدف سوى الإنجاب، فهي إذن موضع ضبط مختلف جداً عما هي عليه العلاقة الجنسية في البلاد الكالفينية. إن "جنسنة" العائلية الطهرية قد تمثلت عبر قوانين يمكن أن تذهل الأوروبيين مثل تلك التي تعاقب في ولايات عديدة اللواط بين الزوجين بالسجن. أما فيما يتعلق بالعقيدة الكاثوليكية فإنها تلزم المراتب العليا برفض، مبدأي، وعلى نص القدر وسائل منع الحمل والإجهاض.

قبل السقوط كانت غايته، طبقاً للشرعة الإلهية، إدامة الجنس البشري. وبعد ارتكاب الخطيئة الأصلية بات يمثل طريقة للتحكم تمارسها البشرية على ورائتها. ومن الواضح أن الحب الجسدي وبعد أن نُسب إلى الشهوانية والرذيلة فإنه سيكون مستبعداً من الحب المقدس. فقد منح مع الأسف موضع الشر الذي لا يمكن تجنبه في الحب الدنيوي. وتوجب أن يمثل الزواج في معناه الأرفع، "إعلاء" للعنصر الجسدي لهذا الحب. وتسمح له العائلة بأن يتطهر عبر اغتنائه بالقيم الأخلاقية مثل الإخلاص الزوجي وحب الأهل المشترك لأطفالهم[29]. وفي ظل هذه الشروط، فإن الزواج كما يرى كالفن يمثل "رابطة اللذة الشريفة" حيث تصبح المتع الجسدية شرعية.

تشدد الطهرية، بحسب إيحائها الإجمالي، على الأخطار التي يتعرض لها ذلك الذي سيستسلم للرذيلة: وتتبدى هذه الأخطار على الأرض بالمرض. ومن هنا وسواس مواجهة العدوى الدائم وفي الوقت نفسه إجلال العافية الجسدية بوصفها علامة على القيمة الأخلاقية. قبلاً في العام 1659، هاكم اللوحة المرعبة التي تقدم عن النتائج المهلكة "للتحلل". فقد قيل عن "شهواني عجوز" إنه "بعد أن قضى عمره وسط الرذائل، شعر أنها تركت في جثته من الآثار السيئة أكثر مما يستطيع التوبة عنه لأنه كان مصاباً بالنقرس، ومليئاً بالقروح المقززة والمنتنة، وزيادة في الكيل كان متهماً بأنه مصاب بالزهري..." وقد طورت الطهريّة الأمريكية، بحسب هذه الرؤية، عناية دائمة بالصحة العامة، أمكنها في بعض الأحيان اتخاذ الأشكال القصوى لرهاب حقيقي.

---

[29] من هنا على الأخص خمى الكالفينيين، الواضحة أحياناً، ضد الدعارة، وموقفهم العدواني على الأغلب حيال العاهرات. ومنذ القرن السادس عشر كانت البغايا تطرد من المدن في المناطق الكالفينية أو اللوثرية. في عام 1567، جرى في مدينة غاياك في مقاطعة البيجوا وسم "النساء العاطلات السيرة" بوسم العار: كان يجري جمعهن في السوق، ثم يجلدن، ثم تقطع إحدى الأذنين. ومن المعروف أن رامبرانت قدم بانتظام العاهرات بملامح مثيرة للتقزز. وحتى روسو ذاته كتب في (اعترافاته): "كنت أشعر حيال البغايا برعب لم يمح أبداً". أذكّر أنه جرى تنظيم مطاردة للعاهرات في الولايات المتحدة ما بين عامي 1918 و1920 لدرجة أن 15000 منهن جرى سجنهن أثناء هذه المدة!

ويستحق العناء، ودون التعرض لمشكلة وباء السيدا الحالية، أن نستذكر الرعب الشديد الذي ألمّ بالأمريكيين أمام السفلس - "مرض الزهري" - طوال حرب عام 1914. وقد لعبت فيه كل العناصر التي أتينا على ذكرها للتو[30].

في عام 1885 بدأ علم البكتيريا الجديد بالانتشار في أوروبا. فسافر هيرمان بيغز إلى ألمانيا، عبر باريس باستور، للإطلاع على التقنيات التي تم التوصل إليها في ألمانيا. وحينما عاد إلى الولايات المتحدة، أطلق حملة ضد السل، المرض المعدي. فرأيناه حينذاك يصطدم في البداية بمقاومة عنيدة من الأطباء الذين كانوا يرفضون المساس بالحرية الشخصية لمرضاهم بالإعلان عن حالاتهم المرضية... ومن باب أولى فقد جرى الأمر نفسه بالنسبة للأمراض الجنسية. ألا تقوم "الوقاية" في "السلوك القويم": أي أن تظل الفتيات عفيفات وأن يظل الأزواج مخلصين. وقد رفض أشهر مشفى في بوسطن عام 1882 أن يقبل المصابين بالأمراض الجنسية بين مرضاه! وظل الواقي، المدعو بـــ "الإنكليزي" وهو في الحقيقة من اختراع الجراح الإيطالي فالوب في القرن السادس عشر، ممنوعاً من البيع. ونحن نرى هنا تفعيلاً للأخلاقية الطهرية في مظهرها الأول: إدانة العلاقات الجنسية خارج الحياة الزوجية وإدانة نتائجها واعتبارها عقاباً إلهياً.

وقد فاقمت مع ذلك الهجرة والتمدن درجة الخطر. ولم يلبثوا في الولايات المتحدة أن جرّموا مفاسد "أوروبا العجوز". ولن نعوز أمريكيين ليذكروا، مشمئزين، بأن الدعارة تزدهر فيها بصورة شبه رسمية، وفي فرنسا على وجه الخصوص. وفي حزيران من عام 1917 أبحرت السفينة الأمريكية *بالتيك* نحو فرنسا. فما الذي كان يقلق لأقصى درجة الجنرال بيرشنغ الذي كان يقود القطعات الأمريكية؟ أن لا تفسد جنوده أخلاق هذا البلد الذي اشتهر بأنه وطن الجنس وألا يضيعوا في مواخيره التي لا تحصى!

---

[30] انظر أ. م. براندت No magic shots، نيويورك 1985، والذي يعرض تاريخ الأمراض الجنسية في الولايات المتحدة؛ كما قدمت آن. ماري مولان عرضاً جذاباً للموضوع في مجلة L'Histoire، العدد 82، تشرين الأول 1985 ص 80، وغيرها، والتي نستعيد هنا جوهره.

الأمر الذي سيمثل كارثة لأن الولايات المتحدة تمثل المستقبل - الأخلاقي - للعالم، ولأنها دخلت الحرب بعقلية تبشيرية. وقد قرر بيرشينغ، الذي لم يكن مع ذلك طهرياً، أن الجنود الذين سيصابون بمرض جنسي سيتعرضون لمحكمة ميدانية! وقد حصل حينئذٍ حادث يستحق التفكير. فقد انتشرت الفيالق التي رست في سان نازير على الرغم من التهديد السابق، في أرجاء المدينة.. وفي الحال أرسل كليمنصو الذي أخطر بالأمر مقترحاً إنشاء مواخير عسكرية تحت إشراف أطباء فرنسيين. فما كان من بيرشنيغ المرتعب من فكرة احتمال أن يقرأ الرئيس المتشدد جداً وودرو ويلسون هذه الرسالة، إلا أن نظّم العفة الإجبارية للجنود: فقد أقام "معسكرات الأمراض الجنسية" العقابية. وقد رفعت لوحة مكتوب عليها: "هنا، معسكر الزهري، إنهم يساعدون الهون". وقد دعم ملصق دعائي معنويات القطعات العسكرية عبر الحكمة التالية: "الأفضل يستحق طلقة لا عاهرة!".

وقد ازدادت عدوى الأمراض الجنسية حينما وقعت الأزمة الكبرى، فاستيقظت النزعة الصحية البروتستانتية واتخذت وجهاً جديداً: فقد نظم توماس باران حملة دعائية واسعة لتذكير الجميع، وباسم العلم، بأن الجنس مسموم! وفي الحال سيدفع المواطنون السود ثمن هذا "الحماس" الطبي: فقد أدى بحث "حول الزهري عند الأسود غير المعالج"، كان يهدف لإظهار أن المرض ليس هو ذاته لدى الرجل الأبيض، إلى حرمان خمسمئة من السود من تلقي أية عناية طبية في آلاباما[31]!

وجاءت السيدا بدءاً من عام 1981 لتوقظ المخاوف القديمة وردود الفعل الأمريكية الموروثة في مواجهة الأمراض الجنسية. وقد وجدت فيها الطهرية دافعاً إضافياً لتستعيد قوتها. ونعرف مدى الشجاعة التي لزمت لاتحادات المرضى من أجل أن يحصلوا على بعض العلاجات ضمن ظروف ما تزال حتى اليوم غير كافية بعد أن كانت فضائحية.

---

[31] لم تكشف هذه الفضيحة إلا عام 1973 عبر مقالة نشرت في الواشنطن بوست إثر دراسة قام بها طالب شاب.

وتشكل "القيم الأخلاقية" الأمريكية نظاماً لا مثيل له في تماسكه، وحتى في صرامته، لأنها قامت في التحليل الأخير على فلسفة للتاريخ تجد فيها هذه الأمة المكانة التي تخولّها لها بحسب رؤيتها الخاصة، هويتها!

ولهذا ندرك لماذا أمكن لن يجري باستمرار تشويه نظرية داروين ولماذا أزعجت مؤلفات علماء الأحياء الذين اندرجوا ضمن إطار الداروينية، هذا النظام وصدمته. ولم ينفك الأصوليون عن الإعلان بأن هذه النظرية تمثل اعتداء على كرامة الإنسان وهي "مثيرة للقرف"، وهذا التعبير يعود إلى الفكرة الكالفينية عن الطبيعة البشرية، وكذلك الأمر فإن الاستحضار المرتعب لصورة "القرد" المدمجة تلقائياً بالشهوانية التي تؤثر بهذه الطبيعة مذ ذلك لدرجة أن تنسى الحب الذي يجب أن تكنه نحو الله. ومن هنا المقولة المفاجئة لأول وهلة، بأن النشوئية تمثل تهديداً "للعائلة الأمريكية".

إن الخلقيين اليوم، حتى لو كانوا يدعون العلموية، لم يقصروا في اللعب على هذه المقولة الأخلاقية التي تُشرك بطريقة غير قابلة لحل السياسة وعلم الأخلاق والجنسية، في إمكانية الخلاص. وقد خاطبوا بوصفهم إنجيليين مخلصين كل فرد لإعادته إلى مخاوفه الأكثر جذرية - تلك المتعلقة، في المرتبة الأولى، برغباته الخاصة - التي يمكن أن تبدو في الوقت المناسب الأكثر إماتة للجسد... وبات معروفاً مدى انتشار الجريمة الجنسية في الولايات المتحدة.

ولن نتحدث عن الدراما النفسية الوطنية التي تمثلها القضايا الموصوفة بـــ "التحرش الجنسي" حالما يتدخل القانون فيها.. ومع ذلك سيخطئ من لا يرى في حملتهم الدعائية إلا هبة لتيار ما من تيارات الظلامية القروسطية، كما حصل حتى لعلماء متنورين لن دعموا هذه الرؤية. أما قوتهم فإنما يستمدونها، بالعكس، من واقع أن فكرهم قد تأصل في بعضٍ من المسلّمات المقبولة بصفة أكثر عموماً لدى العقلانية العصرية منظورة من زاوية أخلاقيتها. فالقسمة التي يقيمونها من حيث المبدأ في برهنتهم، ما بين الإنسانية والحيوانية في الإنسان ذاته تتوحد مع

طروحات الفكر "الحديث" بالقدر الذي صاغت فيه المسيحية هذه القسمة. وهم برفضهم، نتيجة لقناعة دينية، دمج الحيوانية في سيرورة تطورية سيكون الإنسان سليلها، فإنهم يرفضون ليس فقط نظرية داروين وتطوراتها - التي فهموها في النهاية بصورة خاطئة جداً لأنهم لم يهتموا إلا باستغلال ترددتها وصعوباتها - وإنما الإيديولوجيا النشوئية بوصفها فلسفة للتاريخ هيمنت على العقول منذ أكثر من قرن. كما قال بحق جورج م. مارسدن فإنهم حقدوا على النشوء بوصفه "أسطورة الثقافة المعاصرة".

وفي الواقع فإنهم يجدون النشوئية ويدينونها في كل مكان. وحينما قررت الحكومة الفيدرالية في بداية الستينات على سبيل المثال، تدريس "العلوم الاجتماعية"، فإن الأصوليين استنكروا مضمون هذا العلم باعتباره مسكوناً بالحتمية البيولوجية، المخالفة لقيم الحضارة المسيحية، وتشكل إهانة "لحق الأهل". وقد رأينا كيف أن هالة "علم الاجتماع البيولوجي" التي قامت بعد هالة "الداروينية الاجتماعية" ربما قدمت مصداقية لهذا الهجوم بعد ذلك بوقت قليل. ومن المعروف أن البيولوجيا العصبية ظلت منذ ذلك الوقت إغراء لم يكف عن التوطد لدى الباحثين الأمريكيين في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

إن الإنسان ليعجب من أنهم يستطيعون الإدعاء بأن مذهبهم "علمي" في حين أننا نرى فيه الخيوط الغليظة لمناورة سياسية مبتذلة. وهذا لا ريب فيه. لكن يجب أن نضيف أن فكرة العلم الذي أباحوا لأنفسهم إدعاءه لا تختلف، من حيث الجوهر، عن الفكرة التي سمحت تماماً ببناء "الأسطورة النشوئية" بوصفها نسخة معاصرة عن فلسفة التقدم، بثمن خيانة فكر داروين في ما كان، حسب رؤيته الخاصة، يمتلكه من نقص تهديمي، إذ اكتفوا بمناهضة الألفية المعلمنة بألفية تقليدية مع قدر كبير من الفعالية لدرجة أن الأولى لم تكف منذ قرن عن التعرض لأشد أنواع الدحض وأن تتواضع في ادعاءاتها.

سيبدو أمراً مذهلاً أن تستسلم عدة ولايات لضغطهم وتخويفاتهم، في بداية سنوات الثمانينات إذا ما نظرنا إليه من أوروبا. لكننا سنتفهمه بصورة أفضل حينما نتذكر أن مؤسسات الولايات المتحدة، ذات المظهر العلماني، تجد أُسّها النهائي بصورة محددة في الرؤية الدينية للعالم التي يدعمها الأصوليون بقوة وإلى أقصى حدّ. ولماذا يتمركز ضغطهم على المدارس؟ هذا ما يبدو على المدى البعيد ذكياً سيما وأنهم استطاعوا مرحلياً تحديد النقطة التي تتكشف فيها لاعلمانية الدولة، معرضة للخطر البناء كله: اللجان المحلية، حيث يؤثر الأهل في قرار اختيار الكتب المدرسية وبالتالي، في مضامين التعليم. لقد فتح لهم غياب مركزية النظام التعليمي هامشاً واسعاً للمناورة عرفوا كيف يستثمرونه بأفضل صورة.

لكنهم استفادوا أيضاً من مفهوم التربية الذي يسود في الولايات المتحدة: فهو يهدف رسمياً إلى تربية مواطنين صالحين، أي أفراد "مندمجين" تماماً في الجماعة المحلية والوطنية. وهذا يعود مرة أخرى إلى مسيرة الاستيطان ذاتها، ثم قطيعة المستعمرات مع إنجلترا. إن ندرة اليد العاملة، وتشتت السكان وخصوبة الأرض كان لها في البداية تأثيران بالغا الأهمية لوضحهما جيداً دانييل بورستين: ترك تربية الأطفال على عاتق الأمهات وهذا ما حسم لزمن طويل المكانة الجديدة التي شغلتها النساء في المجتمع الأمريكي؛ عدم الثقة بالذكاء "المحض" وبقدرته على رفع إنسان ما فوق مستوى الآخرين[32]. وقد عزز المستوطنون في مقابل النخبوية البريطانية، مساواتية مطلقة، باسم الديمقراطية ومن هنا التقدير الدائم "للوسطية الربانية" لذكاء عملي يكون متعدد المواهب بقدر ما يمكن. وقد لاحظ تيموتي دوايت في بداية القرن التاسع عشر أن "كل الرجال عن بكرة أبيهم في إنكلترا - الجديدة هم ناس المهارة" وهكذا كان يحكم على الأفراد بحسب فعاليتهم أكثر مما هو بحسب المعلومات التي يمكنهم الحصول عليها في هذا الجانب من المعرفة أو ذاك. لكن لا

---

[32] قارن دانييل بورستان Histiore des Américains الترجمة الفرنسية روبير لافون 1991 ص 174 - 205.

ينبغي أن نعزو هذا المفهوم لظروف الاستيطان وحدها؛ إنما يمدّ جذوره في الواقع، في الطهرية الإنجليزية، التي تتدرج بطريقتها الخاصة، في الخط العام للكالفينية "التقليدية". أليس من مهام الدولة المساهمة في بناء المدنية المسيحية، وألا تمثل التربية الواجب الأول الذي ينبغي عليها القيام به لهذه الغاية؟

ويعرف الجميع مدى اهتمام تلاميذ كالفن بما كان يسمى حينذاك "تكوين الشبيبة" والاهتمام الذي أبدوه هم أنفسهم ثم تابعوهم لإنتاج مناهج تربوية فعالة. وإذا ما كانت الحرفية التوراتية قد شجعت منذ القرن السادس عشر شكلاً ما من السذاجة، فإن البروتستانتية سلمت مع ذلك بأن كلاً منا يستطيع هو بنفسه التوصل إلى أرفع الحقائق المفترض بساطتها. ومن هنا واقع أنها شجعت تربية شعبية، ظلت غايتها النهائية في التحليل الأخير أخلاقية ودينية.

وهاكم العبارات النموذجية التي تصور من خلالها جيفرسون ذاته "أهداف التربية الابتدائية":

1 - إعطاء كل مواطن التعليم الذي يحتاجه لممارسة شؤونه.

2 - جعل كل واحد قادر على إجراء الحسابات بنفسه، وأن يعبر وأن يحفظ أفكاره وعقوده "وقيوده".

3 - تحسين أخلاقياته وقدراته، عبر القراءة.

4 - فهم واجباته نحو جيرانه وبلده وإتقان قيامه بالمهام التي يمكن أن توكل إليه.

5 - معرفة حقوقه.

6 - وبعمومية أكثر، الانخراط بذكاء وثقة في كل أنواع العلاقات الاجتماعية التي سيكون فيها طرفاً معيناً[33].

ظل التعليم الثانوي العام والخاص في حالة جنينية لمدة طويلة في الولايات المتحدة: فحتى عام 1890 لم يكن قد ارتاداه إلا أقل من 7% من الأطفال ما بين 14

---

[33] رسالة إلى هـ. نيلز بتاريخ 14 كانون الثاني 1818، Works، الجزء العاشر ص 275.

و17 سنة. وقد سلطت المعركة التي رافقت توسيعه في القرن العشرين الضوء بقوة على واحدة من الصعوبات الكبرى للفكر السياسي الأمريكي. وقد لخصها بورستين بدقة تامة في عبارة (هما أمران أحلاهما مر): "فهل المجتمع المثالي هو ذاك الذي يسمح لكل مواطنيه باستثمار كل فروقاتهم الطبيعية، بما فيها عدم مساواتهم الطبيعية؟ أو هو ذاك الذي يحاول جعل الناس متساويين؟ وهل المساواة تعني التألق الأمثل لكل فرد أو وضع الجميع في مستوى واحد"؟

وقد عارض فلسفة تشارلز و. إيليوت، رئيس جامعة هارفارد المتحمس لأفكار الرئيس جيفرسون، عارضها بقوة المختص بعلم نفس الطفل ج. ستانلي هول والفيلسوف الشهير جون ديوي، تلميذه. فقد كان الأول يدافع عن فكرة أن هدف التربية للجميع يتركز ليس فقط في تثقيف مجموع السكان، وإنما في إطلاق أرستقراطية طبيعية مبنية على صفات فكرية مستقلة عن الثراء أو عن الأصول الاجتماعية للأفراد.

أما هول وديوي فلم يتعاطفا مطلقاً مع فكرة "الأرستقراطية الطبيعية". وقد اعتبراها "معادية للديموقراطية". أليست هي كذلك بكل وضوح، ما دام الأمر يتعلق بـــ "اريستوقراطية"؟ وقد طرحا السؤال التالي: ما الذي سيؤول إليه "جيش العاجزين الجرار"، أي مجموع أولئك الذين "أدت حتميات الوراثة إلى تباطؤ أو حتى توقف سريع للنمو العقلي لديهم"؟ ويعترض إيليوت بأن عدد أولئك الذين هم ضحايا "حتمية الوراثة" لم يبد له على هذا القدر من الأهمية الذي صوره ديوي. وتساءل عن مضمون التعليم. أما هول وديوي فلم يتحدثا، من جهتهم، إلا عن "التلميذ" وكان يريدان تخليص التعليم من مفهوم "البرنامج"...

وفي نهاية المطاف، فإن أفكار هول وديوي هي التي كسبت الجولة منذ السنوات الأولى لهذا القرن. وكان ديوي يقول: "إن التربية طريقة للعيش اليوم، وليست تحضيراً للعيش في الغد". وعلى المدرسة إذن أن تكون في المقام الأول "وحدة حياة". هكذا قُدمت عقيدة "التربية الجديدة" التي سرعان ما فُرضت على البلد بأكمله.

في عام 1918، تبنت جمعية التعليم الوطني المبادئ السبعة الأساسية للتعليم الثانوي، وها هي مذكورة بالترتيب: الصحة، فهم العمليات الأساسي، المساهمة في الواجبات العائلية، التوجيه المهني، حسن المواطنة، حسن استخدام أوقات الفراغ، المناقبية:

إن المساواتية وأولوية القيم الاجتماعية والأخلاقية على القيم المعرفية لا تزال حتى اليوم تقوم في صميم النظام التربوي الأمريكي. وهي الفلسفة التي تقوم في أس رواج "النزعة التربوية" المطلقة العنان والتي أخذت طابعها المؤسسي في التعليم العام للمرحلة الثانية (*high schools*) ونعرف مثلاً أنه من أجل التدريس في أي مدرسة منها، ينبغي الحصول على إجازة في "علم التربية" والتي بواسطتها يفترض بحاملها بما أنه يعرف الأسلوب "لتعليم التعليم" أن يكون قادراً على تعليم أية مادة كانت. وفي المقابل، فإن أي مجاز في مادة محددة لا يحق له تعليم هذه المادة إن لم يثبت إمكاناته في "العلم" المذكور. وهذه الفلسفة - التي توصف بأنها "تقدمية" - قادت إلى حالة كارثية اجتماعية وتخريبية مالياً والتي أثارت تذمراً متصاعداً في أوساط الطبقة الوسطى: فنتيجة لنقص المدرسين الحائزين على الكفاءة الفكرية الكافية في علم ما، ولأنه لا يجب "إهانة" التلاميذ السيئين، فقد آل الأمر إلى تحويل المدارس إلى مجرد "أماكن عيش" حيث يكاد التلاميذ يموتون ضجراً نتيجة عدم تعلمهم أي شيء.

وبسبب هذا الأمر، فإن الفتيان الأمريكيين يأتون، حسب المعايير العالمية، في المراتب العالمية الأخيرة في كل المواد تقريباً. لقد كانت فلسفة ديوي تريد أن تتمركز التربية على الطفل. ولم تؤد إلاّ إلى نجاحها الباهر في إبقائه طفلاً وكذلك الكثير من مدرسيه معه. ويمكن لحالات التسرب أن تصل إلى 75% خلال الفترة الدراسية في "المدن" الأشد فقراً. وقد توجب تمديد الدراسات العليا لمدة عامين وسطياً من أجل "تعديل المستوى".

والنتيجة: بحسب تحقيق حديث العهد، فإن 24 مليون من الأمريكيين بدوا عاجزين عن تحديد موقع بلدهم على خارطة العالم؛ ولم يستطع 50% منهم ذكر بلد

واحد في أوروبا الغربية؛ ويجهل 60% من الطلاب في أي عصر وقعت حرب الاستقلال. صحيح أن تعليم التاريخ والجغرافية قد ألغي في التعليم العالي لصالح هذه *العلوم الاجتماعية* والتي قاد الأصوليون حرباً شعواء ضد مضمونها لدرجة أن لم يعد هناك أية مسألة للنقاش سوى الدستور الأمريكي والنص المقدس[34].

ليس ثمة شك في أن هذا الجهل المعمم قد أمكنه تشجيع انتشار "الخلقية العلموية" كما أدى إلى أن تتوسع لدى الطبقات الوسطى المأزومة، كل أنواع الخرافات ما فوق - العلمية ذات المنحى الروحاني والتي يشكل سقط أشيائها ما يدعى "بالعصر - الجديد" (New - Age)[35].

التيكنو - لاهوتية

بيد أننا رأينا أن هذه "الخَلقية" لم تجند إلا بعض الجهلة، لكن هيهات، لنعدْ مجدداً إلى الفلسفة التي أوحت بالنسخة الأمريكية من "اللاهوت الطبيعي": واقعية *الإدراك السليم* الإيكوسية وقد صاغت الوجدان الشعبي ورسخت فيه بعض اليقينات غير القابلة للزعزعة. وما هو موجود، ها هو هنا وفي متناول يدي، سهل الاستعمال، ويمكن تقليبه باليد. ومن العبث البحث في مكان أبعد. فقد كتب هـ. م. موريس: "من المحتمل ألا توجد طبقة اجتماعية تولي المزيد من القيمة *للإدراك السليم* وللعقل أكثر من طبقة المهندسين وآمل أن هذه الصفات لن تظل متخلفة تماماً

---

(34) أحيل حول مجمل هذه الأسئلة إلى المقالة الصاخبة المنشورة في مجلة L'enseignement philosophique (أيلول - تشرين الأول 1991) بقلم Elisabeth Altschull، وثيقة مباشرة حول سير عمل التعليم العالي.

(35) كل مكتبة جيدة في الولايات المتحدة يجب أن تحتوي بعد الآن على أقسام لكتب العصر الجديد New Age مزدحمة جداً. وتتيح لنا مجلة New Age International في عددها لشتاء 92 (النسخة الفرنسية) أن نكتشف تجسداتنا القديمة، والوصول إلى تقنيات في التدليك، صينية على هذا القدر أو ذاك وممارسة التناغم، والاتصال مع كيشيبو - جين، إله واسع الشعبية في اليابان، على حد قولهم. ويطلعونا على الشعر الذي بدأ ينبت فوق تمثاله"، وكل ذلك خلف تلك الراية الصغيرة: "مع العصر الجديد، سيعود لطفل أيار!.. وهذا "التمهيد" مرة أخرى أيضاً سيكون جيلنا (جيل 35 - 50 سنة) هو من يوسع الثغرة من أجل بناء عصر السلام هذا، والسعادة، والحرية الذي ينتظره العالم منذ ألفي سنة".

عندي". إن موريس، الذي كان هو نفسه مهندساً كما جيري فالويل، يقول الصدق. ذلك أن واقعية "الخلقيين العلمويين" توافق تماماً إعداد المهندسين الأمريكيين. إذ سيصعب على من لم يقمْ، كما هي حالهم في الأغلب، أية علاقة مع البحث الجوهري، ومع مناهجه الفكرية التي تجابه، بالتحديد، الإدراك السليم ولا تقيد المرئي إلا بالمرئي، سيصعب عليه أن لا يعتبر النتائج التي يتوصل إليها هذا البحث محض تنظيرات.

ألا يتطلب الإدراك السليم أن نفكر بأن نظام الطبيعة قد جرى ضبطه منذ الأصل على النحو الذي نجده فيه الآن؟ فكيف نقبل تتابعاً للمصادفات الدقيقة مثيراً للدوار؟ وإذا ما اكتشفنا أن ثمة "قصداً" في الكون، فأين جرى الإفصاح عن هذا القصد للمرة الأولى؟ في التوراة. ونحن نعرف ذلك لأن نصها بين أيدينا. لكن إذا كان هذا الكتاب يضم بعض الحقائق، فإنه ينبغي أن نستطيع التحقق من صحتها نحن بأنفسنا: وذلك بتقديم براهين، واضحة، "جلية بطبيعتها". وهاكم مثالين يقدمهما موريس في نص يعود لعام 1946عن "عدد كبير من الحقائق العلمية التي ظلت مخبوءة في هذه الصفحات طوال ثلاثين قرناً أو يزيد": أن "النجوم غير قابلة للعد" وأن التبخر والريح والشحنات الكهربائية هي سبب المطر. "فجأة تهتز الأرض وترتجف، وتتداك أسس الجبال، يدفعها غضب الله. تتصاعد الأبخرة، علامة غيظه، ومن فمه تخرج نار مفترسة، وتتدفق شرارات حارقة. يحني السموات وينزل، وتحت أقدامه بخار سميك. محمولاً على أكف الملائكة، يطير، يحلق فوق أجنحة الريح" (المزامير 188/I).

وبموجب هذه الفلسفة ذاتها، موّل معهد البحث رحلات استكشافية للبحث عن بقايا سفينة نوح دون أن يعني لهم شيئاً أن الطريق قد باتت مطروقة جداً منذ قرون عديدة. ألم يقل في التوراة إن الحيوانات لم تنجح إلا بفضل هذه السفينة؟ فإن المقصود أن نجد منها عناصر ملموسة، حقيقية، يمكن رؤيتها، وسيظل هناك وقت للإجابة فيما بعد على الأسئلة القديمة جداً: وماذا بشأن الحشرات؟ والأسماك؟ وحجم

السفينة بالنسبة لكل هذا العالم؟ وكيف نفسر توزع الأنواع على سطح الكوكب؟[16] هكذا تبدو تماماً الفلسفة التي تتشاطرها الخلقية العلموية مع التكنولوجوية المعاصرة: فلسفة اليقين والفعالية، فلسفة الفعالية عبر اليقين. ولن تعرف منافساً لها إلاّ في البراغماتية التي تعرف، من وجهة نظرها، اليقين بالفعالية. وهذا يعني البقاء على الأرضية الفلسفية ذاتها. إن المنهج الفكري الوحيد الذي تعتبره صالحاً يتمثل في مطابقة الوسائل للغايات التي يكون تبريرها "جلياً بحد ذاته". وحينما تُطبق على المسائل الأعقد - مسألة الأصل، ومصير الإنسان والعالم - فأين ستجد هذه التكنولوجوية يقيناتها المطلقة؟ ويجب أن تكون قابلة للملاحظة لكي تكون مطلقة: وحدها عبارات النص التوراتي يمكنها ادعاء هذه الميزة المزدوجة... وستتمخض سنوات الثمانينات عن هذا "المسخ": "التكنولاهوتية". إننا نفهم بصورة أفضل لماذا برهن الأصوليون عن براعة لا مثيل لها في استخدام تقنيات الاتصال الحديثة: إن فلسفتهم تعدّهم لذلك. كما سمح لهم هذا التوسط باللعب على صورتي الأصولية الموجهتين لجمهوريهما: انفعال جماعي موجه للجماهير وعقلانية أريبة موجهة للطبقات المتوسطة. مع من أجل الجميع، اليقين كهدية إضافية.

العلموية ومعاداة العلم

مما لا ريب فيه أن ما من مكان آخر أكثر من الولايات المتحدة تبرز فيه بوضوح ازدواجية المشاعر التي يحيط العالم بها العلم والعلماء منذ أيام المستشار باكون. وقد رأينا هذا البلاد تتنقـل دورياً حول هذا الموضوع من الهيام الشديد حتى الكره العميق. وقد راهنت فوعة "الخلقية العلموية" أيضاً على هذا التأرجح الدائم.

بيد أن تاريخ الولايات المتحدة قد عهد إلى هذه الازدواجية اتجاهاً نوعياً. فقد كان النشاط العلمي فيها مشدوداً في البداية إلى شبكة قوية من الجمعيات العلمية

---

[16] انظر المقالة الرائعة لبيير توييه Pierre Thuillier في مجلة La Recherche، العدد 87 آذار 1978، بعنوان "سفينة نوح والعلم" L'arche de Noé et la science.

والمؤسسات الخاصة[37] التي كانت تفسح مجالاً واسعاً للتجار والصناعيين. وقد احتوى المجلد الأول من معاملات "الجمعية الفلسفية الأمريكية" على المجاهرة التالية بالرأي: "تكون المعرفة قليلة الاستخدام حينما تنحصر في التنظير وحده. لكن حينما توضع الحقائق النظرية قيد التطبيق وحينما تعالج نظريات مستندة إلى تجارب المسائل الملموسة للحياة، وحينما، وبهذه الكيفية تتحسن الزراعة وتتوسع التجارة [..] حينئذٍ حقاً تصبح المعرفة مفيدة[38]. وهنا نلقي الوجه الآخر من "الباكونية" الأمريكية، الوجه الذي سيشجع تأسيس مثلاً "معهد فرانكلين لترويج الفنون الآلية" الذي أنشئ عام 1824 ثم "الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم"....

لقد جرى التركيز ضمن هذا البعد "التطبيقي" على "العلوم الطبيعية": الجيولوجيا علم المعادن، علم النبات.. وسيلزم وقت طويل قبل أن تهتم الدولة الاتحادية بتطوير البحث. ولذا لن نرى في الولايات المتحدة أي معادل لأولئك العلماء الكبار للجمهورية الثالثة، في فرنسا، الذين كانوا حاملين ومبدعين لرؤية كونية للعالم. وسينبغي الانتظار سنوات 1920 -1925 لكي يجري إعادة تنظيم المؤسسات العلمية بتحريض مركزي: وقد وجد علماء الفيزياء أنفسهم في قلب إعادة التنظيم هذه، وعندها رأينا العسكريين يقتربون عضوياً من المجتمع العلمي. وقد فُرض (Big Science) بتنظيمه الأنموذجي (تراتبية وتقسيم العمل، الفصل بين الأعمال الإدارية والتنفيذية) نفسه غداة الحرب العالمية الثانية. ونعرف أن هيروشيما تثير "أزمة" خطيرة ومستمرة في وسط العلماء وفي علاقات المواطنين بالعلماء[39]. بيد أن ارتقاء الفيزياء إلى مرتبة قوة اجتماعية حقيقية طوال عشرة أعوام 1920 -1930 كان قد لعب دوراً معاكساً، ضد العلماء، أثناء الأزمة

---

[37] لعبت الجمعيات العلمية دوراً أساسياً حتى منتصف القرن التاسع عشر، في تنظيم الاقتصاد القومي والإقليمي الأمريكي. إن تفوق مدينة فيلادلفيا خلال المرحلة يتعلق بأنه قد تواجد سوية فيها الجمعية الفلسفية الأمريكية، ومعهد فرانكلين، والجمعية الكيميائية، وجمعية فيلادلفيا من أجل تنمية الزراعة... يمكن قراءة الكتاب الممتاز (The Pursuit of Science in Revolutionnary America 1735 – 1789) B. Hindle الصادر عام 1956.

[38] أورده Luc Rouban: "الدولة والعلم" L'Etat et la science باريس منشورات CNRS 1988.

[39] دومينيك ليكور: ضد الخوف Contre La peur، مقالات عن القرن العشرين، هاشيت 1990.

الاقتصادية الكبرى التي بدأت ما بين عامي 1929 - 1930، فقد شهدنا عندئذٍ انقلاباً عنيفاً في الرأي اتهم العلم بأنه "لم يحافظ على وعوده". وقد تبنى بعضهم، في مواجهة الأزمة، الدعوة لتوسيع التطبيقات العلمية أكثر بحيث تشمل التنظيم الاجتماعي - وهي موضوعة باكونية قديمة تحمست لها "الحركة التكنوقراطية" (كلمة "تكنوقراط" ابتدعت بمعنى إيجابـــي وكفاحي من قبل هوارد سكوت عام 1932). وفي مواجهة هؤلاء، طُرح نقد كوارثي للعلم. وهكذا استطاع ج. ك. شيسترتون أن يكتب: (*A plea that science now halt*) في *النيويورك تايمز ماغازين* في العدد الصادر يوم 5 تشرين الأول 1930: "ليس ثمة شيء سيئ في الكهرباء، لا شيء سيئ سوى أن الإنسان ليس إلهاً يسيطر على الصاعقة وإنما متوحش يخاف من بريقها".

وقد شهدنا حينئذٍ أول دفقة نارية من المقالات المعادية للعلم في المجلات، والتي كانت تدين الطمع الشيطاني للعلماء والسمة الشريرة لإنجازاتهم. وستظل "طائفة العلماء" حتى أيامنا هذه هدف موجات من الافتتان ومن القدح العدائي ترافق تبدلات واسعة في الميزانيات التي تخصصها الدولة للبحث. ولن يفوتنا أن نربط عدم الاستقرار هذا "بالباكونية الأمريكية" التي تربط "قيمة العلم" ليس باكتشاف المجهول، وإنما فقط بالمنفعة الاجتماعية لهذا الاكتشاف.

وقد حملت افتتاحية مجلة *Science* الصادرة في 15 كانون الثاني من عام 1982، العنوان التالي الذي حمل توقيع ويليام د. كاري: "العلم في عالم انتخابي". فقد عرض، بلهجة تحذيرية موازنة عام 1981 بصورة متشائمة جداً، وأسف لاقتطاعات الميزانية التي جرت في برامج مختلفة، وأدت، كما قال، إلى "تآكل" شديد في قدرات وطاقة البحث في الجامعات. وتمنى أن تكون السنة القادمة أفضل. وختم بالقول: "المهم في سنة انتخابية هو أن يفهم المرء أن البحث ليس إنفاقاً إنما هو استثمار".

وقدم العدد التالي من المجلة ذاتها بحماس عرضاً للحكم الصادر عن محكمة آركنساس ضد "الخلقية"...

الخاتمة

الفكر العلمي واليقينات اللاهوتية

من بين الدروس العديدة ذات الأهمية العامة التي تستخلص من دراسة هذه القضية الفريدة، ذلك الذي يفتح الآفاق الأوسع أمام الفكر ويتعلق بالعلاقات بين العلم الحديث والدين. إذ إن ثمة تصور فلسفي للعلوم المدعوة بعلوم الطبيعة لم يكفّ في الولايات المتحدة عن تغذية المآسي التي تحيط بتفسيرات النظرية الداروينية.

وقد رأينا أن هذا التصور لم يكن يمثل في المحصلة، إلا قراءة مختلفة لتلك النظرية التي في مآزقها تاه فكر داروين ذاته. وقد تستهدف المعرفة العلمية تقديم "لوحة" دقيقة للطبيعة التي تتحكم "بالوقائع" بحسب الترتيب المنطقي "للنظريات" الموافقة. ومنذ أن تغدو "الوقائع" مثبتة وفق إجراءات تثبت معترف بها وأن يكون قد جرى مراقبة ترتيبها بمنهجية، فإنه يمكن اعتبار يقينية المعرفة مضمونة ضمانة مطلقة.

في مثل هذا البعد، تقف المعرفة العلمية على قدم المساواة مع الأشكال الأخرى من الفكر التي تصبو إلى اليقين المطلق. وهكذا هي خصوصاً، بالتحديد، حالة الفكر اللاهوتي الذي يدّعم الأديان. وقد جرى الإقرار كثيراً بأهمية أن الأديان الكبرى في الغرب التي تقاسمت منذ القدم السيطرة على العقول (والأجساد) هي أديان توحيدية. أليس المهم أنها كلها تستند مباشرة نوعاً ما إلى نص يقدم لوحة للعالم ولتاريخه: هو التوراة؟

ومما لا شك فيه أن الفائدة كانت ستقوم في إثارة الأسئلة حول الطبيعة والتي كان بإمكانها مواصلة جهد العقلانية الإغريقية عبر تصور للشرعية الشاملة. وهل ينبغي أيضاً تبيان أن هذا التصور ما كان بإمكانه أن يبدو خصباً في بداية القرن السابع عشر إلا عبر نهله من أفلاطونية - جديدة ملحدة، ودون جرأة زائدة على الاعتراف بذلك، من فلسفة لعنتها السلطات الدينية: هي الأبيقورية. وقد شهدنا على الأخص العقبات التي ظهرت حينئذٍ عند الإسناد إلى الكتاب. ألا ينبغي أن يقوم تطابق أكثر دقة ما بين اللوحتين، سيما وأن النصوص التوراتية تظهر الإنسان وقد خلقه الله "على صورته ومثاله"؟ سينبغي بالتالي إقطاع النشاط العلمي لتعاليم اللاهوت.

وهكذا رأينا "اللاهوت الطبيعي" الإنجليزي يجهد للقيام بذلك. بيد أن العلم سيتابع مع ذلك طريقه، تحثه قوى أخرى غير القوى الروحية، كما هي حال الجيولوجيا، مفتاح صناعة التعدين، مما أدى إلى تزايد الأزمات.

وقد تشكل معسكران: الأول يدعي أن العلم ملحد، والآخر يدعي أن الدين "ظلامي" وقد نُصب مسرح هذه "الحرب الأبدية"، وبين هذين الموقفين الأقصيين فإن بعض صيغ الحل الوسط بدت مع ذلك ممكنة.

وهذه الصيغ تتعلق جميعها بالحصر الدقيق لميادين يقينية كل شكل من أشكال الفكر. وهكذا سيقال، على سبيل المثال، إن العلم ينحصر في ميدان "الكيف؟" للظواهر ويقدم وصفاً محضاً للاضطراد المثبت بين "الوقائع" وسيترك للاهوت أمر العناية بالرد، من جهته، على سؤال "السبب؟".

وقد بدت هذه الصيغة قابلة للقراءتين الأساسيتين تبعاً للمعنى الذي يعطي لسؤال "السبب؟" العتيد. ويمكن التلاعب بحدود المعرفة العلمية عبر إظهار، في الجوف، وجود الخالق الحافظ منذ الأزل لهذه الحدود. وهكذا ستجد لوحة العالم المقدمة عبر المعرفة العلمية أنها تحولت إلى احتمالية وقدمت بوصفها "تصعيداً" نحو إله الكتاب المقدس. هكذا كان الوضع الأكثر ثباتاً للكنيسة الكاثوليكية التي يبدو أنها استخلصت اليوم الدروس من العثرة التي ارتكبتها قيادتها برفضها لتيّار Teilhard إذا حكمنا على ذلك على الأقل بالأهمية الشديدة التي أولتها لموضوعة الانفجار الكبير.

يمكن أيضاً الابتعاد عن كل قلق حيال "اللاهوت الطبيعي"، وترك العلم يعرض نظرياته وإعادة تعريف غرض اللاهوت على أنه مجرد تعليم أخلاقي. وهذا الموقف الذي أرجع، على الأغلب، إلى القديس أوغسطين، يركز إذن على شخص المسيح وعلى "جنون الصليب" (باسكال). وهكذا تبدو الكتابات المقدسة مجازية من حيث الجوهر. وقد أطلقت "المسيحية المعلمنة" لإيمانويل كانط القواعد الفلسفية الحديثة لمثل هذا التنقيح المذهبي. وقد سلكت "البروتستانتية الليبرالية" الأمريكية، كما رأينا، الطريق ذاته. وقد انتقل سؤال "السبب" من الظواهر إلى المعرفة ذاتها. إن العقل العلمي هو الذي تقدم على العقل النظري.

والصيغة العامة التي أفسحت في المجال لهاتين القراءتين، اقترح تحديدها على أنها "الوفاق الوضعي - الروحاني". وهذا الوفاق هيمن على الفكر الغربي منذ نهاية القرن التاسع عشر.

وقد رفضه الأصوليون ليتبنوا بداية موقف رفض جذري. بيد أن "الخلقيين العلمانويين" لم يكتفوا بهذا الرفض، فالتزموا السير على طريق جديدة تتركز على التظاهر بدمج اللاهوت بالعلم المدرك دائماً على أنه لوحة العالم. ينبغي عندئذ أن يكون العلم قادراً على عرض ما تصفه التوراة على أنه "وقائع" مما يعني في الحاصل رفض منح العلم هذا الذي يتوسع فوق قواعده الفلسفية الخاصة صفة ستميزه عن الفكر الديني. من هنا المظهر الاستشباحي للنصوص المنشورة تحت شعار "علم الخلق" والتي تظهر كإنكار دائم وصاخب لهذا الرفض مقابل، وهذا صحيح، بعض التناقضات ما بين الأتباع. وعلى هذا النحو تُفسر المراهنة الغريبة، التي انخرط فيها هؤلاء "الباحثون" حول الكتاب الابيستيمولوجي لكارل بوبر.

وقد سبق أن رأينا على أية حالة سياسية وإيديولوجية يرد هذا الاستعراض العلمي. وسنشير إلى أنه يتوافق مع ازدهار عدد من المذاهب ما فوق العلمية والتي تنبثق عن المبدأ نفسه لكنها، في أغلب الأحيان، تستعيد ليس التوراة وحدها وإنما لكتلة من الأديان غير الغربية قامت بدمج نتف منها في عقائد، هي أيضاً، "علموية" زوراً ذات مطامع طبية - روحانية.

بيد أن كل شيء يرتبط، ويظل في التحليل الأخير، معلقاً بمفهوم المعرفة العلمية الذي انتقل من جيل إلى جيل في الغرب. هلاّ سمحتم لي العودة مرة أخيرة إلى كتاب فرنسيس باكون؟ يحتوي كتاب *le Novum Organum*، بصفة نص أساسي، على نظرية "الأوثان" - أي الأفكار الخادعة التي ننحني أمامها أو نسجد لها. ويفسر باكون الأمر بالقول إن الإدراك البشري يعيش دائماً "محاصراً" بصورة حتمية بأوثان، والأسوأ: أن العدو في الداخل لأن البعض من بينها قد استولوا عليه منذ زمن طويل "وثبتوا فيه بعمق". وبالتالي فإن الحقيقة لن تصل إلا بصعوبة إلى هذا الإدراك (aph 38).

والحال فإن هذه الأوثان تتجلى في أربعة أنواع. أوثان "النوع" وتتعلق "بالأرومة البشرية": فالحواس ليست في الواقع مقياس الأشياء، يكتب باكون، وكل الإدراكات الحسية "تتناسب والإنسان، وليس مع العالم". ولا يعود الذهن إلا "مرآة مشوّهة" لأن الإدراك البشري "يخلط طبيعته الخاصة بطبيعة الأشياء". وهذا ما كان يتوجب على الأقل أن يفهمه كل أولئك الذين رأوا في باكون تجريبي بسيط. "أوثان الكهف" هي تلك التي يبدو الإنسان ضحيتها حينما نتأمله، هذه المرة، فردياً. فكل منا يحمل داخله شكلاً من الكهف حيث يأتي ضوء الأشياء "ليتكسر ويتخرب". وهذا الكهف جرى تفصيله عبر التربية، والقراءات والانطباعات الشديدة.

بيد أن الكائن البشري ليس فقط نوعاً وفرداً، بل يمثل، إذا جاز لي القول، نوعاً من الأفراد الذين لا يمكنهم العيش دون "أن يتقاربوا" بعضهم من البعض الآخر. وقد حدد باكون بـــ "أوثان الساحة العامة" تلك التي تتولد عن الأثر العام لتجمع الناس فيما بينهم. يتشارك الناس عبر الخطاب، غير أن "الكلمات التي يفرضونها تتطابق مع الفهم العام". أخيراً تأتي "أوثان المسرح": تلك التي تأتي لتتزرع في ذهن الإنسان بعد أن نشرتها أنظمة الفلسفات والحقائق الناقصة في العلوم. ويشير باكون إلى أن الأنظمة الفلسفية يمكنها على هذا النحو العمل ككتلة واحدة، لكن أيضاً "كنتف" متفرقة، دون أن تكون حاضرة بوصفها تمثلت في هذه الموضوعات أو تلك في الفكر الذي تجمعه أو تعتنقه.

ولم يُقدم المنهج المدعو بـــ الاستقرائي إلا كعلاج يجب تناوله باستمرار "قادر على إبعاد وإزالة الأوثان". ولهذا السبب فإن المعرفة العلمية التي يريد باكون تشجيعها ينبغي أن يُنظر إليها بوصفها مشروعاً لا نهاية له من "تأويل الطبيعة"، وهو تعبير ستروق استعادته ديدرو بعد مضي قرن ونصف من الزمان. ألم يقم تاريخ العلوم بإثبات صحة هذا الـــ "باكون؟ ويبدو أن الفكر العلمي، ضمن هذا التاريخ، وكأنه هذا الجزء من الفكر الذي انخرط بعناد في صراع مستمر من بعد ضد الأوثان، وعلى الأخص ضد "أوثان المسرح" التي يحملها في داخله، والتي تعيق مسيرته أو جعلها تتعثر.

كان في فرنسا، عدا عن ديدرو، باكونياً آخر على الأقل: غاستون باشلار الذي حدد دائماً "العقبة الابيستيمولوجية" بوصفها "فكرة - مضادة" قائمة في الفكر ذاته. إن الفكر العلمي يوسع دون انفكاك حدود المعروف، لكن وفق طريقة خاصة به: عبر تحديد اللامعروف بوصفه أفقه انطلاقاً من ذاك الذي يبدو له، في المعروف، أنه يرسم له أفضل خط. وهنا يتدخل إذن "حكم" ينطوي على خطر الخطأ ويسحب بالتالي مبدئياً من هذا الفكر كل ضمانة يقين مطلقة.

وإذا ما تبنى المرء مثل هذا المفهوم، فإنه يغدو من المسلّم به أن مسألة علاقات العلم باللاهوت والدين السماوي سوف تُطرح بعبارات جديدة. ولن نعود معنيين مطلقاً بلوحتي العالم اللتين سيتعلق الأمر بإقامة التوافق بينهما بمعارضتهما أو بمصالحتهما. بل يتعلق الأمر باثنتين من بين طرائق الفكر البشري التي كانت، حتى أيامنا هذه، مدعوة للتواجد معاً. الأولى ــ العلم ــ تعمل، وفقاً لما قلنا قبل قليل، عبر منهج إبداعي وجريء، مدعوة بحكم مستقبلها، ذلك الأفق الذي تحاول توسيعه دون انفكاك عبر تغيير موقع نقطة الرؤية الخاصة بها، أما الأخرى، وبحسب كلمات السيد المسيح، فإنها تخاطب كل فرد وتقول له: "ما كنت لتبحث عني لو كنت لم تجدني من قبل!" فكل منهج فكري يظهر على هذا النحو كعودة نحو حقيقة معطاة مسبقاً ويحدد العجب بيقين ما الخروج من الظلمات عند نهاية هذه "العودة" التي يدعو البعض لعيشها بوصفها "تصعيداً". وتمتلك كل نسخة من اللاهوت المسيحي طريقتها الخاصة لدفع المؤمن في هذا الطريق.

سيقال بأن الصعوبة ظلت كما هي، لأن المنهج الإبداعي للعلم سوف يصدم في حينه هذا اليقين. وتسمح حالة داروين بتوضيح هذه النقطة. لقد أصاب الأصوليون، في النهاية، حينما هاجموا النظرية النشوئية المتعلقة بأصل الإنسان. هكذا بدت في الواقع المسألة الأساسية. لكن، ولأنها أساسية، فقد بدت معقدة بنوع مقبول.. ووفقاً لوجهة نظر اللاهوت المسيحي، ومهما يكن الإنسان قليل الحرفية للدرجة التي يريدها في قراءة النصوص المقدسة، وحراً في التفسير للدرجة التي يؤكدها لنفسه أمام قصة الخلق - مع الافتراض حتى، على سبيل المثال، بأن المرء يقبل بأن "النشوء هو منهج الخلق" بحسب العبارة التي اقترحها النشوئيون المسيحيون - فإنه ينبغي الاحتفاظ بمكانة متميزة للكائن البشري في ترتيب الخلق. وهذه المكانة، عدا كونها متميزة، يجب أن تكون رفيعة الشأن. لكن هذه الرفعة لن يجري منحها نتيجة لتفوق طبيعي، وإنما الإنسان يدين بها، على العكس، لعلاقته المباشرة **بالخالق**. ولنضف أنه، بعيداً عن الهرطقة، فالمقصود علاقة شخصية "للروح" الإنسانية بالله وبغياب هذا التفرد، وهذه الرفعة، هذه العلاقة الشخصية، فإن الدين المسيحي - تحت أية قراءة تجري - لن يعود قادراً على إقامة الصلة بين المؤمن والله، وبين المؤمنين أنفسهم. ويكف عن أن يكون "ديناً". والحال فإن النظرية الداروينية لأصل الإنسان، وكما كان داروين قد فهمها تماماً، تفسر بدقة تفوق الكائن البشري على الأنواع الحية الأخرى، بوصفه حادثاً، وعلى أية حال، بوصفه نتيجة لسيرورة طبيعية بالكامل. ولن تقوم بوضعه في تراتبية الوجود التي قد تصبح نظاماً من الكمال. وهذا يخلق أزمة لا يمكن تجاوزها.

بيد أن نظرية "النشوء والارتقاء" لا تقول شيئاً عما يبدو أنه التوقيع الأكثر وثوقاً والأداة الأشد فعالية لهذا التفوق: القدرة على ربط الأفكار المتجددة دائماً عبر اللعب بلغة ذات تراكيب لانهائية. وباختصار، فإنها لا تقل شيئاً عما يسميه اللاهوت "الروح"، إلا أنه عند ظهور هذه القوة، فإن المرء ينبغي أن يكون قادراً على إدراكها عبر سيرورة طبيعية تعزو مكانها للاحتمال.

وهذا وضع بدا أنه يصعب دعمه جداً لدرجة أن "النشوئيين" من كل الاتجاهات سارعوا لنسيان، ودفن المسألة الأساسية ولمباشرة هروب حقيقي في

الحال نحو الأمام. وهكذا وجدوا أنفسهم من جديد يدافعون عن تصور للنشوء مختلف جداً لدرجة أن معناه الفلسفي يبدو مغايراً بشدة. وقد أعطى هيكسلي وهايكل نغمة البدء: فقد بحثا في الحركة ذاتها عن استخلاص القواعد المادية الفيزيائية - الكيميائية للوراثة التي كان داروين قد تركها في الظل، ثم إخضاع الفكر لمثل تلك القواعد. لقد كانوا ضحايا لفكرة إجمالية عن المادية والتي ورثوها عن تقليد طويل أنعشه "إيديولوجيو" القرن الثامن عشر مثل كاباني - "الدماغ يفرز الفكرة كما يفرز الكبد الصفراء!" وقد سمحت لهم هذه الفكرة عن المادية، وسنقول عما قريب، هذه "الراية"، بتجنب المفهوم الأساسي للاحتمال. وكان كارل ماركس بمعنى ما قد تبين بوضوح شديد ضعف موقفهم، ووصفهم بالقول "ماديون مبتذلون!". كقارئ لهيجل، فإن مثل هذه المادية لم تستطع أن تبدو له إلا ما هي عليه: نزعة تبسيطية تنفي خصوصية التاريخ البشري. لكن ماركس، الهيجلي المقلوب قام، في المحصلة، بالتجنب ذاته: لقد بدا له أن الاحتمال يجب أن يكون متلاشياً في الضرورة لنمو ذي غاية: وقد وصل به الأمر، للحظة، للبحث في الجيولوجية النشوئية للمغمور بيير تريمو P. Trémeaux عن "القواعد الطبيعية" لتصوراته التاريخية.. أداة هذا التلاشي، تدعى "الديالكتيك" الذي يمكن للمرء تعريفه بمنتهى الصواب تعريفه بأنه "فن العودة إلى البيت"، على الأقل حينما تتم ممارسته على هذا النحو.

وسنفهم، في ظل هذه الظروف، عقم النقاش بين اللاهوت والعلم الذي تلا ذلك. وكذلك السخط المتنامي لدى هؤلاء ولأولئك. لقد تصارعوا عقيدة ضد عقيدة على قاعدة المواقف الفلسفية المتناظرة والمتعاكسة، منطلقين من الرفض نفسه ومن الخوف نفسه للاحتمال.

وقد حانت اللحظة، دون ريب، لإعادة فتح القضية على أسس أخرى. فما الذي تعلمناه منذ بداية هذا القرن حول هذا "الفكر" الذي يميز الكائن البشري عن غيره من الأحياء؟ وما الذي نعرفه عن هذا التمييز ذاته الذي يشف حتى في المحاولات الاختزالية الأشد وحشية كتلك التي يقوم بها علماء الاجتماع البيولوجيين؟ أليست في لعبة هذا التمييز تكمن أشكال الفكر التي ترتبط باليقينيات المطلقة التي تبحث الكائنات البشرية، وسط ضيقها، عن كيفية إعادتها إلى حياتها؟

ألا يبدو الفكر الديني (مع دعائمه اللاهوتية)، من بين هذه الأشكال الفكرية، كأنه الفكر الذي يتبنى، بامتياز "الوراثة" كهدف له؟ ("آبانا..."). لكن الأمر يعني وراثة استيهامية: "النسابة" البشرية بالضبط. هذه النسابة الخيالية التي لم يكفّ كل واحد عن تطريز موتيفاته الخاصة فوقها حتى درجة الهذيان، والتي بفضلها أيضاً تتوزع "الأجيال" - والمواريث التي لأجلها تبدو الكائنات البشرية مستعدة لبذل حياتها. وتحمل الخطابات اللاهوتية المختلفة الأجوبة على كل هذه الأسئلة. وتركن الكائنات البشرية بغبطة أو بحماس إلى هذا وذاك من بين هذه "الأوثان" بحسب ما سمحت الصدفة لهم بالولادة سواء في إنجلترا أو في فرنسا أو في أمريكا... وهذه الأجوبة تحميهم من السؤال الذي لا يحتمل الذي يضع هويتهم ذاتها قيد التجربة: تجربة احتمال الحس أو إذا شئتم احتمال "الشطب" من الوجود، بما فيه ذلك الوجود الذي يتخفى تحت غطاء التحول، وذاك الذي "يجسده" بالنسبة لهم موتهم الخاص.

أما العلوم المدعوة "بعلوم الطبيعة" فإنها لا تستطيع من جهتها أن تقدم أي جواب على هذه الأسئلة باستثناء أن تقوم بإقفالها عبر تنصيب الطبيعة منافساً لله، ولأن تجعل من العلم ضمناً ومن العقل "وثناً". لقد علّمنا القرن العشرون أنه عند نهاية هذا المنطق يقع الاغتيال المنهجي لكل أولئك الذين تمّ تعيينهم ليجري شطبهم من الطبيعة، بعد أن مثلوا انحرافاً بالنسبة للمعيار المحدد علمياً على أنه كذلك. لكن إذا كانت هذه العلوم لا تحمل الأجوبة فإن الفلسفة التي تعمل داخلها يمكنها أن تساعد دائماً بأن تصوغ الأسئلة صياغة أفضل.. فإذا كنتُ قد نجحت في إقناع القارئ بذلك فإنه سيتملكني الشعور المريح بأن كل هذه القصة تستحق ساعة من التعب.

قرار المحكمة

الحكم: وفقاً لاستنتاجات هيئة المحكمة، فقد جرى النطق بالحكم بتاريخه، لصالح المدعين ضد المدعى عليهم. وسيحصلون على كل تعويضات عطل وضرر المطلوبة. صدر بتاريخ 5 كانون الثاني من عام 1982.

أمر فوري – وفقاً لاستنتاجات لمحكمة، فإن المدعى عليهم، وكل واحد منهم، وكل مستخدميهم وعمالهم، صاروا بتاريخه وبمقتضى هذا الحكم، ملزمين بعدم تطبيق، بأية طريقة من الطرق، القانون رقم 590 من قوانين آركنساس لعام 1981 – صدر الأمر به بتاريخ 5 كانون الثاني 1982.

عرض الوقائع - مقدمة. في الأول من آذار من عام 1981، وقّع حاكم ولاية آركنساس القرار بتطبيق القانون 590 لعام 1981 المعنون بـــ: "قانون بشأن التعليم المتكافئ للخلقية والنشونية". مستندات القانون هي: ولاية آركنساس. مل. ف. 80 - 1663 وتوابعه (1981 ملحق). وجوهر مضمونه مصرح به منذ الجملة الأولى: "داخل حدود الولاية، يتوجب على المدارس العامة نشر تعليم متكافئ للخلقية وللنشونية". في 27 من شهر أيار 1981 أقيمت دعوى[1] للطعن في صلاحية القانون 590، متذرعة بثلاثة أسباب. أولاً، أثبت أن القانون 590 يشكل اعتداء على حرية الضمير، وهو أمر ممنوع وفقاً للتعديل الأول من الدستور (a) وينطبق على الولايات بمقتضى التعديل الرابع عشر. ثانياً، يؤكد المدعون أن القانون ينتهك مبدأ حرية التعليم والتي هي حق، وفقاً لادعائهم، للمدرسين وللطلاب بمقتضى "مبدأ حرية الكلام" (a) من التعديل الأول: ثالثاً، يؤكد المدعون أن القانون غير مقبول بالنظر لإنشائه غير الدقيق الذي ينتهك "مبدأ الإجراء القانوني الصحيح" من التعديل الرابع عشر.

---

[1] أقيمت الشكوى بناء على المادة 42 من دستور الولايات المتحدة الفقرة 1983 التي تنص على حق الرجوع إلى كل شخص يحرم، متصرفاً باسم قانون ولاية ما، على الغير كل حق، أو امتياز، أو حصانة، يضمنها دستور الولايات المتحدة أو القانون الفيدرالي. وهذه الصلاحية القضائية تتم وفقاً للمادة 28 من دستور الولايات المتحدة الفقرات 1331، 1343 (3) و1343 (4).
وسلطة إعلان حكم طعني معروضة في المادة 28 من usc فقرة 2201 و2202.

(a) التعديل الأول: "لا يستطيع الكونغرس اتخاذ أي قانون يهدف إلى إنشاء دين أو إلى منع حرية ممارسته (مبدأ الإنشاء، إنشاء الدين) وإلى تقييد حرية الكلام (مبدأ حرية الكلام) أو الصحافة أو حق المواطنين بالتجمع سلمياً وتقديم العرائض للحكومة لمطالبتها بوضع حد للانتهاكات" (ملاحظة من المؤلف).

(b) الذي يعطي المواطن حق الرقابة على ما تقوم به الجهات العامة وعلى طريقة تصرفها. (ملاحظة من المؤلف).

المدعون بصفة فردية يتشكلون من أساقفة، مقيمين في آركنساس، للكنائس: الميثودية الموحدة، الكاثوليكية الرومانية والميثودية والانكليكانية الأفريقية، المسؤولين الرئيسيين للكنائس المشيخية في آركنساس، وميثوديين موحدين آخرين، إكليروس معمدانيي الجنوب والمشيخيين، وكذلك عدة أشخاص بوصفهم أهل أو أصدقاء مقربين لأطفال قاصرين يرتادون المدارس العامة في آركنساس. أحد المدعين هو مدرس لمادة البيولوجيا في المرحلة الثانوية. وجميعهم من دافعي الضرائب في آركنساس. ومن بين المدعين بصفة مؤسساتية، نجد الكونغرس اليهودي الأمريكي، اتحاد الجمعيات العبرية، اللجنة اليهودية الأمريكية المنظمة القومية لمدرسي البيولوجيا والتحالف القومي من أجل التربية العامة والحرية الدينية. وكل هذه المنظمات تتقدم باسم أعضائها المقيمين في آركنساس[2].

المدعى عليهم يتشكلون من مجلس التربية في آركنساس وأعضائه، مدير وزارة التربية، لجنة اختيار المناهج المدرسية للولاية[3]. الـ " Pulaski Country Special School District مدراؤها ومديرها الرئيسي، قد طُعن بهم من قبل المدعين في الجلسة التمهيدية للقضية في يوم الأول من تشرين الأول 1981.

جرت المحاكمة ما بين 7 و17 كانون الأول من عام 1981. وهذا الموجز للوقائع يشكل تحقيق المحكمة واستنتاجاتها القانونية، والحكم والأوامر اللاحقة ستكون مطابقة لاستنتاجاته.

---

[2] الوقائع التي تتيح للمدعين رفع الدعوى موصوفة في الملخص اللاحق. وليس ثمة شك بأن الطلب مقبول.

[3] ولاية آركنساس التي كانت في عداد المدعى عليهم رفضت الدعوى بحقها بحكم الحصانة التي يخولها إياها التعديل الحادي عشر "هانز ضد لويزيانا" 1980.

I

لا يقوم أي اعتراض على المعايير القانونية التي ينبغي بموجبها الحكم على جزء القضية المتعلق "بمبدأ الإنشاء" فإن المحكمة العليا فسرت هذا المبدأ في عدة مرات وتصريحاتها واضحة. وكما هي الحال هنا، فإن المسألة كانت قد طرحت أحياناً في مجال التربية. في قضية "إيفرسون ضد هيئة التربية" 1947. صرح القاضي بلاك: "مبدأ إنشاء الدين" من التعديل الأول يعني على الأقل ما يلي: "لا تستطيع أية ولاية ولا الحكومة الفيدرالية تأسيس كنيسة. وأي قانون يهدف إلى مساعدة دين ما أو كل الأديان، أو إلى إقامة تصنيف قيمي فيما بينها، لا يمكن عرضه للتصويت. ولا يستطيع أحد، كذلك أيضاً، التأثير على إنسان أو إجباره على الانضمام إلى كنيسة أو البقاء بعيداً عنها، ضد إرادته. ولا يستطيع أحد أن يجبر فرداً على إشهار إيمانه أو عدم إيمانه بأي دين كان. ولن يلاحق أي شخص لأنه جاهز علناً أو لا، بإيمانه الديني أو بعدم إيمانه، أو بسبب انتمائه أو عدم انتمائه لكنيسة ما. ولا يمكن لأية ضريبة من أي نوع كانت أن تجنى بغرض دعم نشاط أو مؤسسة دينية أياً كانت وأياً كان الشكل الذي تتخذه، أو بغرض تمويل تعليم ديني أو ممارسة دين ما. إنه لا الولاية ولا الحكومة الفيدرالية لا تستطيع المشاركة علانية أو سراً في شؤون أية مجموعة أو منظمة دينية والعكس بالعكس. ولكي نستعيد كلمات جيفرسون، فإن هذا المبدأ قد جرى إنشاؤه من أجل نصب "جدار بين الكنيسة والدولة".

إن "مبدأ الإنشاء" يتضمن، على هذا النحو، قيمتين أساسيتين: الإرادية والتعددية. وإنه لفي ميدان التعليم العام فإن هاتين القيمتين يجب أن يُدافع عنهما بأشد درجة من الصلابة: "فالمدرسة العامة المحمولة على أن تصبح أحد عناصر الانسجام الأقوى داخل شعب غير متجانس، يجب أن تبقى وبمنتهى الدقة حرة من كل تورط في النزاعات ما بين الطوائف. وينبغي أن تصون الجماعة من الصراعات التي تؤدي إلى الانقسام، والحكومة من الضغوط القوية التي تمارسها المجموعات الدينية. إن منع الدين من تتصيب نفسه رقيباً أو من ممارسة القمع، حتى ولو بطريقة حانقة جداً، يستدعي أن تتمسك الدولة بتعليم علماني بحصر المعنى، تاركة للأفراد الاهتمام بالتبشير الديني باختيارهم في بيوتهم أو كنائسهم. "ماك كوليم ضد هيئة التعليم" 1948 (قرار القاضي فرانكفورتر، وقد تبناها القضاة جاكسون، بيرتون، وريتلدج).

إن توضيح مبدأ "منع الإنشاء" قد جرى تدقيقه على مر السنين، غير أن معناه لم يبتعـد عن المبادئ التي ذكـرها القاضي بلاك، في القضية التي ذكرناها للتو. في قضية

"Abbington School Distriel ضد Schempp، 1963" أكد القاضي كلارك أنه "من أجل ألا نقع تحت طائلة "بند الإنشاء Establishment Clause" فإن الهدف التشريعي ينبغي أن يكون علمانياً وأن تكون نتيجته الأولية عدم تشجيع دين أو منع ممارسته". وقد أعلنت الحكومة بوضوح أن التعديل الأول يمنع على أية ولاية أن تأمر بقراءة يومية للتوراة في المدارس العامة، لأن "دور التوراة بوصفها أداة الدين غير قابل للجدل"، نفسه 244. وكذلك، في قضية "Engel ضد Vitale 1962"، إعتبرت المحكمة أن التعديل الأول يمنع على هيئة نيويورك للأوصياء على العرش "New York Board of Regents" المطالبة بالتلاوة اليومية لصلاة معينة في المدارس. وقد كتب القاضي بلاك في هذا الموضوع: "بمقتضى المنع المفروض على الحكومة من خلال التعديل الأول، من إنشاء أي دين، فإن أية حكومة في هذه البلاد، سواء تعلق الأمر بالحكومة الفيدرالية أم بحكومة الولاية، لا تمتلك سلطة منح الصفة القانونية لصلاة رسمية، تحت أي تشكل كان أو أن تدعم رسمياً أي نشاط ديني" نفسه 430. كما حدد بلاك أيضاً أهداف "مبدأ الإنشاء": "هدفه الأول والأشد وضوحاً يقوم على الإيمان بأن اتحاد الحكومة والدين يقود إلى تدمير الحكومة والحط من قدر الدين".

ومنذ عهد أقرب، أعلنت المحكمة العليا أنه بمقتضى المبدأ، يمنع على أية ولاية فرض تعليق الوصايا العشر في قاعات صفوف المدارس العامة، للأسباب ذاتها التي تجعل من القراءة اليومية الإلزامية من التوراة أمراً ممنوعاً، ("ستون ضد غراهام" 1980) وقد استند الحكم في هذه القضية إلى أحدث توضيح "لمبدأ الإنشاء" الذي سيفيد كمرجع في هذا الحكم، ويمكن الإطلاع عليه في قضية "ليمون ضد كرتزمان 1971".

فأولاً ينبغي تصور القانون بعبارات علمانية، وثانياً ينبغي أن يكون أثره الرئيس لا تشجيع ولا عدم تشجيع الدين.. وأخيراً فإن القانون لا يجب أن يشجع" تورطاً مفرطاً للحكومة في أمور الدين" [ستون ضد غراهام].

سيصدر الحكم بدليل أن هذا القانون لا ينتهك أياً من النقاط الثلاث. غياب الدليل على واحدة يستدعي إلغاء هذا القانون.

II

ولدت الحركة الدينية المعروفة باسم الأصولية، في أمريكا القرن التاسع عشر. وقد عكست جزئياً رد فعل الحركات البروتستانتية الإنجيلية على التغيرات الاجتماعية، وعلى الأفكار الدينية الجديدة وعلى الداروينية. وكان الأصوليون يعتبرون هذه الوقائع الجديدة بمثابة هجوم على التوراة واعتقدوا أنها تقود إلى انحطاط القيم التقليدية.

وتمتلك التعابيرات المختلفة للأصولية بالإجماع عدداً من الصفات المميزة[4]: فأحد مبادئهم الأساسية كان دائماً التفسير الحرفي للتوراة والإيمان بـــ "عُصمة" الكتابات المقدسة. وبعد الحرب العالمية الأولى مباشرة قاد تجدد التخلي عن القيم الأخلاقية التقليدية التقليديين إلى تحميل مسؤولية ذلك لنظرية النشوء. وقد بذلوا الكثير من الجهد، خاصة في الجنوب، من أجل استصدار قوانين تمنع تعليم هذه النظرية في المدارس العامة. الأمر الذي انتهى في أركنساس بتبني قانون " Initiated Act I" لعام 1929[5].

وقد مارست معاداة - النشوئية، ما بين سنوات العشرينات وبداية الستينات، تأثيراً بارعاً لكنه مُقنع مع ذلك على تعليم البيولوجيا في المدارس العامة. فقد تجنبت الكتب المدرسية في أغلب الأحيان الموضوع ولم تذكر حتى اسم داروين. وعلى إثر إطلاق الاتحاد السوفييتي للقمر الصناعـــي "سبوتنيـــك" عام 1957 فقـــد قام " National Science Foundation" بإنشاء عدة لجان مكلفة بتحديث التعليم العلمـــي في مدارس الشعب. وكانت (Bscs) "Biological Sciences Curriculum Study " وهي منظمة ذات هدف غير ربحي، من بين تلك التي تلقت مساعدة مالية حكومية من أجل دراسة ومراجعة البرامج المدرسية. وقد نشرت هذه Bscs المؤلفة من علماء ومدرسين، سلسلة كاملة من نصوص البيولوجيا،

---

[4] توزعت الآراء حول تعميمات بخصوص الأصوليين. على سبيل المثال. فإن الدكتور جيسلر أعلن في شهادته بأنه مقبول عامة بأن كل الحركات الأصولية تتشارك الإيمان ذاته حول خمس نقاط بالإضافة إلى الإيمان "بعصمة" الكتاب المقدس. فهم يؤمنون:1 - الحبل بلا دنس بيسوع؛ 2 - أن المسيح هو الله تجسد بشراً؛ 3 - أن المسيح نزل إلى الأرض من أجل افتداء أخطائنا؛ 4 - بعودة جديدة للمسيح إلى الأرض؛ 5 - وبالقيامة الجسدية لكل الأموات.

ومع ذلك فقد أعلن د. مارسدن بأن هذا التعميم المقبول عادة في الثقافة الدينية يعتبر، الآن، بوصفه خطأ تاريخياً. ويمكن للمرء أن يؤكد مع ذلك أن كل الأصوليين يستندون إلى الكتاب المقدس وأن غالبيتهم تأخذه بحرفيته.

[5] إن القانون ("Initiated Act I of 1929") الذي كان يمنع نظرية النشوء في مدارس أركنساس سيجري تفحصه لاحقاً في النص المرافق للهامش 26.

التي على الرغم من تركيزها على بعض جوانب البيولوجيا، تضمنت نظرية النشوء وقدمتها بوصفها موضوعاً مهماً. وقد توج جهد الـ Bscs بالنجاح، فقد سُجل أن 50% من التلاميذ الأمريكيين يستخدمون كتبها المدرسية بانتظام وأن برنامجها قد استعيد بصورة غير مباشرة في معظم كتب البيولوجيا (شهادة ماير: نيلكن Px I)[6].

سُجل من جديد، عند بداية سنوات الستينات، عند الأصوليين تجدد الاهتمام بأمر فقدان القيم التقليدية والخشية من قيام مجتمع علماني أكثر فأكثر. عندئذ غدت الحركة الأصولية أكثر نشاطاً. وتضاعف عدد أعضائها، وتزايد تأثيرها السياسي. وقد استمر الإصرار لدى أصوليي ذلك الوقت، على التفسير الحرفي للتوراة، وعلى قصة الخلق باعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة المتعلقة بالأنواع. وبدئ بسهولة باستخدام عبارة "الخلْقية" نحو عام 1965 إثر نشر كتاب وايتكومب وموريس The genesis Flood عام 1961. وتقوم دون أدنى شك علاقة العلة بالمعلول بين ظهور نصوص الـ Bscs التي ألحت على الفكر النشوئي والجهود التي بذلها الأصوليون من أجل التصدي لهذه النظرية (ماير).

وقد تشكلت في سنوات الستينات وبداية السبعينات، منظمات أصولية عديدة من أجل تشجيع فكرة أن قصة الخلق كانت مبنية على وقائع علمية. وقد جرى تبني عبارات "علم الخلق" و"الخلقية العلموية" من قبل الأصوليين لغرض وصف جهودهم حول الخلق وأصل الإنسان. وربما تكون المنظمة الخلْقية الأكبر هي "Institute for Creation Research (ICR) المتفرعة عن "Christian Heritage College" والمدعومة من قبل "Scott Memorial Baptist Church": في سان دييغو في كاليفورنيا. ويعتبر (ICR) عبر شركة "Creation Life Publishing Company" أهم ناشر للمطبوعات الخلقية. ونعرف أيضاً منظمات خلقية أخرى يمكن أن نذكر من بينها "Creation Research Society Center" (CRSC) في سان دييغو، و"Bible Association of Minneapolis" في مينيسوتا، في عام 1963 تشكلت: Creation Research Society (CRS) إثر انشقاق في قلب (American Scientific Affiliation) (ASA). وهي منظمة أصولية[7] متمسكة بالتفسير الحرفي للتوراة، والتي

---

[6] لاحقاً، إحالات الشهادات سوف يشار إليها بالاسم العائلي فقط للشاهد. أما إحالات الوثائق الواردة فيشار إليها باسم الكتاب ورقم الوثيقة.

[7] طالبو الانضمام إلى CRS ينبغي التوقيع على إعلانات الإيمان التالية: 1 - التوراة هي تدوين لكلمة الله، وبما أننا نؤمن بأنها بمجملها موحاة من قبله، فإن كل التأكيدات التي تحتويها في كل النصوص الأصلية هي صحيحة علمياً وتاريخياً. وهذا يعني بالنسبة لطالب يدرس العلوم الطبيعية، أن قصة الخلق الواردة في سفر التكوين هي التمثيل البسيط للوقائع التاريخية الصحيحة؛ 2 - أن كل أصناف "الأنواع" الحية الأصلية، بما فيها الإنسان قد تلقت الحياة بنعمة مأثرة الخلق الإلهي، خلال أسبوع الخلق، تماماً كما

يحمل أعضاؤها شهادة تعادل الأستاذية في بعض الأنظمة العلمية المعترف بها. ويتمثل أحد أهداف هذه المنظمة في "العمل على تبليغ العالم أجمع الرسالة الجوهرية للحقيقة التاريخية والعلمية في موضوع الخلق" (نيلكين The science text book controversies and the politics of equal time. 66). وبصورة مشابهة تشكل الـــCSRC عام 1970 إثر انشقاق في قلب CRS. ويهدف إلى "أن ينقل إلى 63 مليون طفل في الولايات المتحدة تعليم الخلقية التوراتية" مصدر سابق ص 69. من بين الكتاب الخلقيين هناك من اعتبروا حجة في هذا الموضوع ويمكن أن نذكر منهم هنري م. موريس، ديان جيش، ج. إ. باركر، هارولد س. سليشر، رينشارد ب. بليس، جون و. مور، مارتن إ. كلارك، و. ل. وايسونغ، روبرت. إ. كوفال، كيلي ل. سيغرافس. موريس هو مدير الـــ IRC، وجيش هو المدير المساعد فيه وسيغرافس هو عضو في CSRC.

يعتبر الخلقيون نظرية النشوء السبب في انحطاط المجتمع. وتعبّر كتابات موريس وكذلك كتابات كلارك عن وجهة النظر هذه بطريقة معبرة: "النشوء إذن ليس معاد للتوراة ومعاد للمسيحية، إنما أيضاً خالٍ تماماً من القيمة العلمية ومستحيل أصلاً. ومع ذلك فقد استخدمت هذه النظرية كقاعدة علمية كاذبة للإلحاد، وللاأدرية وللاشتراكية، وللفاشية، ولعدد آخر من الفلسفـــات الكاذبة والخطيـــرة عبر القـــرن الأخير" [موريس وكلارك، The Bible has The answer Px31 والمقدمة PX. 89][5].

لقد تبنى الخلقيون عموماً وجهة نظر الأصوليين مؤكدين بأنه لا يوجد إلا موقفان ممكنان يتعلقان بأصل الأرض والحياة: فإما الإيمان "بعصمة" قصة الخلق الواردة في سفر التكوين والإيمان بالحدث التاريخي لطوفان اجتاح الأرض بأكملها، وإما الإيمان بما يدعونه النشوء.

وصفت في سفر التكوين. ولما تكن التحولات البيولوجية التي طرأت منذ الخلق، فإن هذه التحولات لم تقع إلا على "الأنواع" الأصلية؛ 3 - الطوفان الكبير المروي مفصلاً في سفر التكوين، والمسمى عادة طوفان نوح، هو حدث تاريخي شمل العالم كله بسعته ونتائجه؛ 4 - أخيراً نحن جمعية من المسيحيين، من رجال العلم، نقرّ بأن يسوع المسيح سيدنا ومنقذنا. إن قصة الخلق الخارقة لآدم وحواء أول رجل وأول امرأة وفيما بعد سقوطهما الناجم عن الخطيئة، هي منطلق إيماننا بضرورة المخلص للإنسانية. ونحن لا يمكننا الفوز بالخلاص إلا إذا آمنا بأن يسوع - المسيح هو منقذنا (Px 115).

[5] بحكم كبر عدد وثائق الإثبات، فقد طلبت المحكمة من الأطراف تسليم هذه الوثائق للمحكمة عند الجلسة التحضيرية للقضية، بقصد تسهيل مهمتها. وقد اختلف ترقيم الوثائق في الجلسات التحضيرية عنه في جلسات الدعوى. ويحصل أحياناً أن تكون استنتاجات الجلسة التحضيرية أكثر اكتمالاً من استنتاجات جلسات الدعوى.

وقد صرح هنري موريس: "يستحيل أن نتصور شرعاً طريقة للتوفيق ما بين التوراة والنشوء" [موريس Evolution and the Bible. ICR Impact Series n°5 (دون تاريخ أو ذكر للصفحة) ذكره ماير PX83] وهذه المقاربة الثنائية لنظرية الأنواع تفشو في كل الأدب الخلقي.

وتعتبر المنظمات الخلقية أن إدخال تعليم النظرية الخلقية إلى المدارس العامة يشكل جزءاً من مهماتها. وقد نشر الـ ICR كرّاستين[9] على الأقل تقترحان مناهج مناسبة لإقناع قادة وإداريي ومدرسي المدارس بتعليم الخلقية. ويصرّ الـ ICR كثيراً على تشجيع مسؤولي المدارس على أن يتخذوا من تلقاء أنفسهم القرار بضم النظرية الخليقة إلى برامجهم[10].

إن "Citizens for Fairness in Education" هي منظمة مقرها في أندرسن، كارولينا الجنوبية وقد أسسها بول ليلوانجر، وهو معالج يمارس الطرق التنفسية ولا يملك أية ثقافة قانونية أو علمية. يعتبر ليلوانجر أن النشوئية هي نذير لعدة نقائص اجتماعية تتدرج في عدادها النازية والعنصرية والإجهاض (شهادة ليلوانجر في 32 -34). حوالى العام 1977، جمع ليلوانجر عدة اقتراحات في قانون بقصد إعداد مشروع قانون يؤسس لتعليم الخلقية بوصفها علماً، لمواجهة النشوئية به. وكان في عداد هذه المشاريع، اقتراح لـ ويندل بيرد الذي يشغل الآن منصب المستشار القانوني لـ ICR"[11]. وقد صاغ ليلوانجر، مستلهماً هذه المشاريع، مشروع قانون يدعى "نحو تعليم متكافئ" في المدارس العامة، "للخلقية العلموية" ولـ "النشوئية". وقد عمل على إيصال هذا الاقتراح إلى مختلف الأشخاص والتنظيمات في

---

[9] موريس Px 130 وبيرد Introducing Scientific Creationism Into The Public Schools, 1975 Resolution For Balanced Presentation of Evolution and Scientific Creationism, ICR Impact Series, n°71, App. 14 to Plaintiffs' Pretrial Brief.

[10] برهن الخلقيون أحياناً عن سذاجة في تبشيرهم المتحمس. فقد أعلن هنري موريس: "حتى لو حصلنا على رأي أو حكم لصالحنا من المحاكم، فإن القانون سيعتبر على الأرجح مخالف للدستور وعلى الأخص إذا ما استند الحكم أو الأمر إلى قصة الخلق الواردة في التوراة". وبالروح ذاتها، يلاحظ: "الوسيلة الوحيدة لتعليم الخلقية بصورة ملائمة هو بجعلها تُعلم بواسطة مدرسين مقتنعين بها، ولديهم الإمكانات للقيام بذلك. ولسوء الحظ فإن غالبية المدرسين، في الوقت الحالي، هم غير مقتنعين بها وغير مؤهلين لذلك. ينبغي في البداية أن يقتنعوا بها وأن يثقفوا أنفسهم بأنفسهم" (Px 130 موريس Introducing Scientific Creationism Into The Public Schools, 3, 1975 دون ترقيم للصفحة).

[11] أراد السيد بيرد Bird المشاركة في هذه القضية بوصفه ممثلاً لعدد من الأشخاص الذين كانوا يريدون المرافعة بوصفهم مدافعين. وقد رفضت المحكمة طلبه: Arkansa ضد McLean 1981).

كل أنحاء البلاد. ومنذ الوقت الذي كان يعدّ فيه شخصياً المشروع الذي أصبح يعرف منذ ذلك الحين بالقانون 590، أصبحت حججه ثقيلة قليلاً. وقد دمجت شهادته المتحيزة المرفقة بوثائق إثبات وبعدد لا يحصى من الوثائق المحفوظة (بغرض الاستشهاد للمقارنة duces tecum) بين مقاصد القانون والمزايا العلمية للخلقية.

ولا يعتقد السيد ايلوانجر أن الخلقية علم. فقد صرح في رسالة وجهها إلى القس روبرت إي. هايس قائلاً: "حيث أن لا النشوئية ولا الخلقية معترف بهما بوصفهما نظريتين علميتين ومع الأخذ بعين الاعتبار بأنه من المستحيل افتراضياً، الآن، تعليم العالم بأجمعه بأن النشوئية ليست نظرية علمية حقيقة، فقد استخدمنا بحرية تعابير (نظرية النشوء ونظرية الخلقية العلمية) في نص المشروع" (وثيقة غير مرقمة من المحفوظة الملحقة بشهادة ايلوانجر في I). وقد صرح بعد ذلك في رسالة موجهة إلى م. توم بيتل: "إذا كنا نعتبر النشوء (تذكروا أننا لا نمتلك أي ادعاء علمي متعلق بالخلقية وإنما نحن نهاجم الادعاءات العلمية للنشوئيـــة)..." وثيقة غير مرقمة في ملحقات شهادة ايلوانجر في I). وتظهر مراسلات ايلوانجر حول الموضوع في الوقت عينه أنه يدرك بأن القانون 590 له مهمة دينية وأنه يريد إخفاء هذا الواقع. فقد كتب في رسالة إلى سيناتور لويزيانا بيل كيث: "اعتبر هذه المعركة بمعركة قوى الله ضد أعداء الله، على الرغم أني أعرف بأنه يوجد عدد معين من النشوئيين الذين يؤمنون بالله". وفي مكان آخر: "... سيتوجب على الشيطان القيام في كل لحظة بكل ما باستطاعته من أجل معارضة جهودنا ومن أجل تعقيد الأمور". ومع ذلك فإن ايلوانجر يقترح على السيناتور كيث: "إذا كان بإمكانكم أن تختاروا من بين الأشخاص المعنيين العلمانيين أو غير العلمانيين من أجل الدفاع عن القانون في كل الولاية، فإنه ينبغي بصورة محتمة اختيار العلمانيين. ولن يكون في صالح نجاح المشروع رؤية شخصية دينية تؤيده علنياً وسوف ينتبه أعداؤنا لذلك بالتأكيد... إن الشخصيات الدينية تستطيع أن تهزم الجبال، خلف الكواليس، من خلال تشجيع اتباعهم لابتكار المنظمات وحملات العلاقات العامة. وهم قادرون على اقتحام السماء بصلواتهم للحصول على معونتها ضد عدو شديد الشراسة" (وثيقة غير مرقمة من ملحقات شهادة ايلوانجر في I).

وقد برهن ايلوانجر عن قدر من السذاجة السياسية بدلاً من النباهة، في رسالة إلى سيناتور فلوريدا جوزيف كارلوتشي: "سيكون في منتهى الحكمة، إن لم يكن من الجوهري إطلاقاً، أن نكون جميعاً، نحن المنخرطون في هذه الحملة التشريعية، منتبهين لعدم تقديم

اقتراحنا للعمل في إطار ديني. وعلى سبيل المثال، ففي ما يتعلق بالمراسلات التي يمكن أن نتبادلها مع الأشخاص الذين نريد إقناعهم، يستحسن عدم ذكر التزامنا و/أو شهادتنا لصالح المسيح بل سيكون من الأفضل، إذا كان ذلك هو السبب الذي يدفعنا للتحرك، أن نقدم شهادتنا على ورقة منفصلة" (وثيقة غير مرقمة من ملحقات شهادة ايلوانجر في 1).

وكذلـــك كان مضمون الرسالة التي وجهها ايلوانجر إلى ماري آن ميللر، عضو الـــ Flag (Family, Life, America under God) التي شنت حملة لدى الهيئة التشريعية في آركنساس لصالح القانون 590: "... نود أن نقترح على مساعديكم أن يكونوا يقظين لعدم دمج الخلقية بعملية الخلق كما يراها الدين.. ومن فضلكم أكدوا على مساعديكم عدم الوقوع في فخ "الدين" الذي يجازف بخلط كل شيء. لأن هذا النوع من الدمج ضار جداً بنجاحات مشروعنا. وقد يؤدي، ربما، بالرأي العام إلى رفع القضية إلى أعلى المحاكم وإفساح المجال للحكم على الصلاحية الدستورية لهذا القانون الجديد".

ومع ذلك يظل الأمر الأكثر إثارة دون شك شهادة ايلوانجر التي كشفت فيها الاستراتيجية المستخدمة من أجل العمل على عرض المشروع على التصويت.

سؤال: "تحاول اللعب على الدوافع الدينية للناس؟"

جواب: "أحاول اللعب على انفعالاتهم، على حبهم، على حقدهم، على ميولهم، وعلى تقززهم، لأني لا أعرف أية طريقة أخرى لجعل الناس يهتمون ولكي يتم استثمار البشر في مهام إنسانية.. فإن استخدام الانفعالات من أجل إثارة رغبة الناس بالتحرك يبدو لي صحيحاً ومشروعاً... وأظن أن المجموعة من السكان الأكثر قابلية، في أمريكا، للاندفاع في عمل من هذا النوع هي الطائفة المسيحية. وأعتقد أن الإمكانية العملية للطائفة اليهودية هي ضعيفة على درجة كبيرة. وقد أظهر المسيحيون الكثير من الاهتمام فقلت لنفسي لماذا لا نستثمر مثل هذه الإمكانية من أجل تمرير القانون، إذا كان ذلك هو الطريقة الصحيحة" (شهادة ايلوانجر في 146 - 147).

وقد تكشف لنا الغاية النهائية للسيد ايلوانجر عند نهاية الرسالة التي وجهها إلى السيد توم بيتل: "ربما يبدو لك الأمر لعبة قديمة يا توم، فإذا كان الأمر كذلك فإني أود أن تقوله لي، وربما أيضاً أن تطلعني على المكان الذي سمعت فيه الحديث عن ذلك (فكرة قتل النشونية بدل الانخراط في لعبة النقاشات كما كنا نفعل منذ حوالى عشرة أعوام حتى الآن)" (وثيقة غير مرقمة من شهادة ايلوانجر في 3).

في هذا الوسط ولدت فكرة القانون 590. وقد كان و. ا. بلونت قس كنيسة في منطقة ليتل روك ويتبنى التفسير الحرفي للتوراة، رئيس " Greater Little Rock Evangelical Fellowship" عام 1981 من بين أولئك الذين تلقوا نسخة من مشروع قانون ايلونجر[12]. وقد تبنت "Evangelical Fewlloship" بناء على طلب المحترم بلونت، قراراً بالإجماع مختصاً بالبحث، وسط مشرعي آركنساس، عن شخص لتقديم قانون ايلوانجر، وقد كلفت لجنة مؤلفة من قسين هما كورتيس توماس و و.أ. يونغ ببحث كيفية تنفيذ هذا القرار. حصل توماس من ايلوانجر على نسخة منقحة عن القرار وقام بتسليمها إلى كارل هنت، الشريك التجاري السيناتور جيمس ل. هولستيد، مع تكليفه بمهمة إقناع هوليستيد بتقديم القانون.

وقام هولسيتد الذي يصف نفسه كمسيحي أصولي "ولد مرة أخرى" بتقديم القانون إلى مجلس شيوخ آركنساس دون أن تتم استشارة أي من "وزارة تربية الولاية" أو أية شخصيات علمية أو مدرسي العلوم ولا حتى وزير العدلية في آركنساس[13]. وفي مجلس الشيوخ لم يخضع القانون إلى أية لجنة مناقشة، وأثناء دورة الانعقاد، أقر بعد عدة دقائق فقط من النقاش. أما في مجلس النواب فقد عُرض المشروع على "لجنة التربية" في جلسة روتينية من ربع ساعة لم يجر خلالها الاستماع إلى أي عالم أو أي ممثل عن وزارة تربية الولاية لتقديم المشورة. وجرى التصويت على مشروع قانون ايلوانجر في آركنساس وصار اسمه القانون 590 ولم يجر عليه أي تعديل أو تغيير باستثناء بعض التصحيحات الطباعية، وكانت نتائج التحقيق التشريعي حول مشروع ايلوانجر وحول القانون 590 متطابقة، بيد أن أي تحقيق جدير بحمل هذا الاسم لم يأمر "مجلس النواب" بفتحه.

إن السبب الذي دفع ايلوانجر إلى تحرير مشروع قانون وشن حملة لتبنيه لا يتعدى معارضته لنظرية النشوء ورغبته في رؤية قراءة الخلق كما قدمتها التوراة تدرس في المدارس العامة. ولا يقوم أي دليل على أن الأساقفة بلونت وتوماس ويونغ وكذلك الـ "Greater Little Rock Evangelical Fellowship" كانوا مدفوعين بأي سبب آخر غير قناعاتهم الدينية حينما اقترحوا تبني القانون وشن حملة لصالحه. كما أن ليس للرعاية

---

[12] جرت مراجعة مشروع القانون هذا من أجل استبدال كلمة Créationnisme بكلمة "Création – science" لأن ايلوانجر كان لديه انطباع بأن كلمة Créationnisme لها وقع شديد التدين (ايلوانجر شهادة 79).

[13] مشروع القانون الأصلي كان قد أودع في كارولينا الجنوبية غير أن الحركة انطفأت بعد أن أعلن "وزير العدلية" في كارولينا الجنوبية أنه غير دستوري.

والدعم المقدمين من السيناتور هولستيد أية حوافز أخرى سوى إيمانه الديني ورغبته في رؤية قراءة الخلق كما قدمتها التوراة[14] تدرس في المدارس العامة.

إن حكومة ولاية آركنساس، مثل بعض الولايات الأخرى التي لمواطنيها اعتقادات دينية متجانسة نسبياً، تمتلك تراثاً طويلاً من معارضة نظرية النشوء والذي يُفسر بمؤازرة اعتقاد الأصوليين "بعصمة" سفر التكوين. وهذا التقليد مذكور في حكم القاضي فورتاس في قضية "ايبرسن ضد آركنساس" 1968 الذي أبطل قانون "Initiated Act I" لعام 1929 الذي كان يمنع تعليم نظرية النشوء. ويمكن أن ننسب لهذا التراث ذاته القانون "Initiated Act I" لعام 1930 الذي كان يلزم "بقراءة يومية متأملة لمقطع من "التوراة الإنجليزية" في كل صفوف المدارس العامة في الولاية"[15].

والصحيح أنه كان ينبغي على المحاكم، كما ردّ المدعى عليهم، أن تراقب الصياغة التشريعية لأهداف قانون ما حينما تكون في حقل "مبدأ الإنشاء"، ومنح إقرار النوايا هذا الاهتمام الأكبر (انظر Committee for Public Education & Religious Liberty) و(1961 "McGowan ضد Maryland") وقد صرح المدعى عليهم أيضاً، محقين، بأن تعليقات مقرري قانون ما أو منشئه لا يجب أن يؤثر على تحليل أهدافه التشريعية (انظر e.g "Emmons" 1973 "ضد "United States" و"1979 Brown ضد "Chrysler Corp" ومع ذلك فإن المحاكم لم تقتصر على إقرار النوايا مع أو ضد القرار.
("Stone ضد "Graham" 1980؛ "Abbington School Dist ضد "Schempp" 1963).

ويمكن للمحاكم، من أجل أن تقرر هدف قانون ما، أن تأخذ بعين الاعتبار العناصر المضافة من قبل الإطار التاريخي لهذا القانون (Arkansas, 1968 ضد Epperson) والسير الدقيق للوقائع الذي قاد إلى التصويت على هذا القانون، والخروقات في السير العادي، أو وقوع مخالفات خطيرة في الإجراءات العادية (Metropolitan Housing Corp. 1977 ضد

---

[14] بتحديد أكثر، أكد السيناتور هولستيد أنه يتمسك بتفسير حرفي للتوراة، وبأن طرح القانون يتفق مع قناعاته الدينية، وبأن المشروع يعزز موقف "الحرفيين"، وبأن قناعاته الدينية قد شجعته للدفاع عن المشروع، وأنه أعلن علانية (لكن ليس من على منبر مجلس الشيوخ) عند النقاش القانوني بأن المشروع يفترض دون أدنى شك وجود خالق إلهي. وليس ثمة شك بأن السيناتور هولستيد كان يعرف بأنه كان يشجع تعليم عقيدة دينية. ولم يعتبر أن المشروع كان يخرق التعديل الأول، لأنه لم يلاحظ بأنه كان يشجع سيطرة عقيدة عبر عقيدة أخرى.

[15] من المفهوم أن هذا القانون هو مخالف للدستور بكل وضوح إذا ما رجع إلى قانون المحكمة العليا في قضية Schempp ضد Abbington School District، 374 us 203، 1963.

Village of Arlington Hieghts) والتصريحات التي يطلقها المقرر (Alogonguin SNG. Inc. 1976، ضد Fed. Energy Amin.).

تبرر الظروف الخاصة التي أحاطت بالتصويت على القانون 590 وكذلك "كثافة"، التعديل الأول، إجراء تحقيق حول إقرار النوايا لهذا القانون. فمواطنو أركنساس الذين قدموا دعمهم لهذا المشروع إنما فعلوا ذلك بنوايا طائفية خالصة. هذه الوقائع لا تقدم الكثير بحد ذاتها لكنها مضافة إلى التصريحات العلنية لمقرر القانون حول أهدافه لحظة التصويت عليه، وإلى الغياب الكلي للتحقق التشريعي، ولنقاش أو لاستشارة المربين أو العلماء، وإلى تدخل لا سابق له في مضمون المناهج المدرسية[16]، وإلى التراث الرسمي لولاية أركنساس، يصبح من الواضح أن الأهداف المعلنة لهذا القانون ليس لها، في الواقع، الكثير أو القليل مما يسندها. ولم تقدم الولاية أي دليل على التدخل أو التوصية لأي كان لصالح القيمة التربوية لهذا القانون، لقد كان الهدف الواحد والوحيد لهذه العملية إدخال تعليم قراءة الخُلق كما قدمتها التوراة إلى المدارس العامة. والتدخل الوحيد الجدير بالملاحظة هو تدخل مجلس النواب الذي قدم ضمانته لقانون كان يشجع الدين عمداً. وبالنتيجة فإن القانون لا يستطيع أن يقدم دليلاً لصالح النقطة الأولى من النقاط الثلاث، وهذا يعني أن يكون له هدف تشريعي علماني كما تشير قضيـــة (Kurtzmann ضد Lemon) وقضية (Graham ضد Stone).

III

لو قال المدعى عليهم الصحيح ولو تمّ الاكتفاء بتفحص اللغة المستخدمة في إنشاء القرار، فإننا سنحصل شكلياً على دليل بأن غاية القانون 590 هي تقدم الدين في المدارس العامة. وتوضح المادة 45 من القانون: تعريفات. كما يجري استخدامها في القانون:

a - "الخلقية" تعني البراهين العلمية للخلق والاستدلالات الاستنتاجية لهذه الأدلة العلمية. وتشمل الخلقية الأدلة العلمية والاستدلالات الاستنتاجية التي تتعلق بها والتي تبين:

---

[16] عرض الوقائع المرفق يظهر أن "المعلومات" الوحيدة، لمطلوب تعليمها بموجب القانون في جميع مدارس ولاية أركنساس هي: 1 - آثار الكحول والمخدرات على الجسم البشري؛ 2 - حماية المصادر الطبيعية؛ 3 - أسبوع الطيور؛ 4 - الوقاية من النار؛ 5 - وتحية العلم.
يضاف إلى ذلك بعض المواد مثل تاريخ أمريكا أو أركنساس يجب أن تكمل السيرة العلمية للطالب من أجل الحصول على دبلوم "دراسة الثانوية".

1/ أن الكون، والطاقة والحياة خلقوا فجأة انطلاقاً من القدم؛

2/أن الطفرة والاصطفاء الطبيعي لا يكفيان لإحداث تطور كل "الأنواع" الحية انطلاقاً من عضوية بسيطة؛

3/ أن التغييرات الحاصلة عند مختلف "الأنواع" من الحيوانات والنباتات منذ البدايات محدودة؛

4/ أن الإنسان والقرد لهما سلف مختلف؛

5/ أن الجيوفيزياء يمكن تفسيرها بالنظرية الكارثية المتضمنة حصول طوفان شمل كل الكواكب؛

6/ أن نشأة الأرض و"أنواعها" الحية قريبة العهد نسبياً.

b - "النشوئية" تعني الأدلة العلمية للنشوء والاستدلالات الاستنتاجية لهذه الأدلة العلمية وتشمل النشوئية الأدلة العلمية والاستدلالات الاستنتاجية التي تتعلق بها والتي تبين:

1/ أن الكون قد انبثق من العماء وفق سيرورة طبيعية وأن الحياة انبثقت من اللاحياة؛

2/ أن الطفرة والاصطفاء الطبيعي يكفيان لإحداث تطور "الأنواع" الحالية انطلاقاً من "أنواع" بسيطة المنشأ؛

3/ أن الإنسان والقرد لهما سلف مشترك؛

4/ أن الجيوفيزياء؛ والمراحل المختلفة من النشوء تُفسر بنظرية التماثلية؛

5/ أن نشأة الأرض وكل شكل من أشكال الحياة يعود لعدة مليارات من السنين.

c / المدرسة العامة تعني المدرسة العامة الثانوية والابتدائية.

لقد أقيم الدليل على أن المادة a4 التي قدمت التعريف للخلقية، تحيل، دون ذكر ذلك إلى الأحد عشر فصلاً الأولى من قصة الخلق. إذ من بين كل قصص خلق العالم، وتاريخ الإنسانية، فإن الإلحاح على أهمية الخلق المفاجئ، انطلاقاً من العدم، خلق ex nihilo، وعلى تدمير العالم الذي سببه الطوفان، هو أمر مختص بقصة الخلق. أما المفاهيم المذكورة في a4 فإنها، حرفياً، قراءة الأصوليين لقصة الخلق، باستثناء a4 2/ التي هي نقيض لما يفهمه الأصوليون من نظرية النشوء[17].

---

[17] أعلن بول إيلوانجر، في معرض تقديم شهادته بأنه لم يكن يعرف لماذا أدرجت المادة a4 2 (السمة غير الكافية للطفرة والاصطفاء الطبيعي لو قدمت على أنها دليل لصالح الخلقية. وأشار إلى أنه هو ذاته لم يكن عالماً، وإنما "هذه مسلّمات مطروحة من قبل علماء خلقيين" (إيلوانجر شهادة في 136).

إن مفاهيم وعبارات a4 مشحونة بدرجة لا يرقى إليها الشك بالقيمة الدينية، فتتحدث a4 عن "الخلق المفاجئ" للكون وللطاقة وللحياة انطلاقاً من العدم". وقد اتفق كل اللاهوتيين الذين استدعوا للشهادة، بمن فيهم شهود الدفاع، على الرأي بأن هذا التصريح يحيل إلى خلق ما فوق طبيعي سيكون من عمل الله.

وقد رد المدعى عليهم ب: 1/ إن كون a4 تقدم تماثلاً مع التفسير الحرفي لقصة الخلق لا يقود بالضرورة إلى الاستنتاج بأن الأمر يتعلق بتصريح ديني. 2/ إن الإحالة إلى الخلق انطلاقاً من العدم ليس بالضرورة مفهوماً دينياً لأن القانون يقترح خالقاً متمتعاً بالقدرة، والحكمة وله مشروعه لكنه ليس بالضرورة مفعماً بالحب، والتعاطف ولديه حسن العدالة[18]. 3/ إن مجرد تعليم فكرة وجود خالق ليست ممارسة دينية، إلاّ إذا ألزم المرء الطالب الالتزام بمفهوم الخالق.

وقد توفر الدليل شكلياً على أن هذه الحجج مغلوطة. أما الأفكار المتضمنة في a4 1/ فإنها ليست "شبه متماثلة" مع التفسير الحرفي لقصة الخلق، بل إنها متطابقة ولن يكون بمقدور المرء مقارنتها مع أية قصة أخرى للخلق[19].

لا تستند حجة أن الخلق انطلاقاً من العدم، في a4 1/، قد لا يقتضي وجود ألوهية فوق طبيعية، إلى أية قاعدة متينة أو عقلانية. وبالعكس "فالخلق انطلاقاً من العدم" هو مفهوم خاص بالأديان في الغرب. وفي الفكر التقليدي الغربي، فإن فكرة خالق العالم هي فكرة الله. ومما لاشك فيه البتة: أن خلق العالم انطلاقاً من العدم هي إقرار ديني، في

---

[18] توجب على المدعى عليهم بذل جهد من أجل فهم كلمة الخلق بكلمات غير دينية، وهذا الانزلاق للمعنى أزعج كثيراً بالتأكيد أولئك المتشددين على الصعيد اللاهوتي من بينهم. ذلك أن مفهوم إله خالق متميز عن إله الحب والرحمة هو أمر قريب جداً من هرطقات مارسيون Marcion والغنوصيين التي كانت من أخطر ما هدد الكنيسة المسيحية في مراحلها المبكرة. وهذه الهرطقات لها علاقة كبيرة بظهور وتبني قانون الإيمان بوصفه الإعلان الرسمي لإيمان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الغربية (جيلكي).

[19] التماثلات ما بين المادة a4 وسفر التكوين بليغة جداً: 1 - الخلق المفاجئ انطلاقاً من العدم" مستمدة من السفر IO-I:I (فاوتر وجيلكي)؛ 2 - دمار العالم بطوفان ذي مصدر إلهي هو مفهوم خاص بالموروثات اليهودية - المسيحية ويجد أصوله في الفصلين 7 و8 من سفر التكوين (Vawter)؛ 3 - إن كلمة نوع ليس لها تعريف علمي مثبت، وبالمقابل نجدها باستمرار في سفر التكوين (كل الشهود العلماء)؛ 4 - "النشأة الحديثة العهد نسبياً" تعني أن عمر الأرض يقدر ما بين 6000 - 10000 سنة ويعتمد عموماً على سلسلة الأنساب الواردة في التوراة. مع الأخذ بعين الاعتبار العمر الفلكي المنسوب إلى البطاركة (جيلكي وعدة شهود آخرين من العلماء)؛ 5 - جد مختلف لكل من الإنسان والقرد يجذب الانتباه نحو الجزء من نظرية النشوء الذي يصدم أكثر الأصوليين ("Arkansas ضد Epperson، 1968).

الجوهر، لأن الله هو الفاعل الوحيد لذلك. وكما أشار إلى ذلك الدكتور لانغدون جيلكي، فإن القانون يحيل إلى كائن يمتلك القدرة على خلق العالم انطلاقاً من لا شيء، و"الكائن" الوحيد الذي يمتلك هذه القدرة هو الله[20].

ويعترف الكاتبان الخلقيان من الدرجة الأولى، موريس وجيش، أن فكرة الخلق الواردة في a4 1/ هي مفهوم الخلق من قبل الله ولا يدعيان حتى بالعكس[21]. إن فكرة الخلق الفجائي انطلاقاً من اللاشيء Creatio ex nihio هو مفهوم موروث من الدين (واتر، جيلكي، جيسلر، أيالا، بلونت، هيكس).

أما الحجة التي تقدم بها الدكتور نورمان جيسلر، شاهد الدفاع، بأن تعليم وجود الله لن يكون سلوكاً دينياً، إذا لم يلتمس الإقناع، هو مخالف للمنطق السليم ويمضي بعكس أحكام القضاء (قضية "Graham ضد Stone" 1980، وقضية "Schempp ضد District Abbington School" 1963).

لا يدعُ واقع أن الخلقية مستوحاة من قصة الخلق وأن المادة a4 تقوم على تفسير حرفي لقصة الخلق، مجالاً لأن يحوم أي شك فيما يخص النتيجة الرئيسة للقانون، أي نشر اعتقاد ديني خاص. والنتائج القانونية لهذا الاستنتاج ستتم مناقشتها لاحقاً بعد أن تقدم المحكمة استنتاجاته حول القيمة العلمية للخلقية.

IVa

تتطابق طريقة تعلم "الخلقية" و"نظرية النشوء" كما وردت في القانون 590 مع نمطين من المقاربة يتبناهما معهد "Institute for Creation Research" وتقومان على استنساخ، كلمة تقريباً، لمنشورات الـ ICR. وهذا الأمر امتداد للرؤية الأصولية التي تقتضي بأن على المرء إما أن يقبل التفسير الحرفي لقصة الخلق، وإما أن يؤمن بنظام نشوئي بدون الله.

---

[20] "المفاهيم المتعلقة.. بكائن أعلى، أياً يكن، هي دينية بكل وضوح.. ولا تفقد المفاهيم سمتها الدينية لمجرد أن يتم تقديمها كفلسفة أو علم.." (Malnak ضد Yogi).

[21] انظر على سبيل المثال: Px 76 موريس: Scientific Creationism 203، 1980: "إذا كان الخلق فعلاً حقيقياً فإن هذا يعني وجود خالق وأن الكون من خلقه". ونجد أمثلة أخرى عديدة شبيهة بهذا في وثائق الإثبات التي لا حصر لها، وهذا يعكس نغمة الأدب الخلقي، وسيكون من غير المفيد أن نقدم بها لائحة لا نهاية لها.

وهذا النمط من المقاربة الثنائية يبدو مصطنعاً تماماً[22]، وليس له أي أساس علمي أو أي هدف تربوي مشروع. فهو لا يقترح إلا إجابتين على مسألة أصل وجود الإنسان والنباتات والحيوانات: فإما هو من عمل الخالق أو ليس من عمله. وبحسب الخلقيين والمدعى عليهم، فإن تطبيق هذا النمط من المقاربة يحتم أن كل دليل علمي لا يؤكد نظرية النشوء يصبح دليلاً علمياً لصالح الخلقية ويشكل على هذا الأساس "دليلاً" ثابتاً للمادة a4.

IVb

إن الإلحاح على مسألة الأصول من بين جميع عناصر نظرية النشوء هو أمر مميز للأدبيات الخلقية. وعلى الرغم من أن هذه المسألة تنتمي إلى ميدان البيولوجيا، فإن المجتمع العلمي لا يعتبر أن مسألة نشأة الحياة تشكل جزءاً مكوناً من نظرية النشوء. ذلك أن نظرية النشوء تقبل بوجود الحياة وتتوجه نحو تفسير "كيف" تطورت الحياة. ولا يفترض التطور مسبقاً غياب الخالق أو الله والاستنتاج الصريح المتضمن في المادة 4 هو خاطئ[23].

إن المادة b4 بوصفها شرح لنظرية النشوء، لا تعدو كونها ركام من التأكيدات الساذجة وبعضها غير دقيق، إذا رجعنا إلى الوقائع.

---

[22] إن موريس، مدير لـــ ICR والذي كان واحداً من أوائل المطالبين بنمطي المقاربة، يصرّ على واقع أن المسيحي الجيد لا يمكنه التوافق مع نظرية النشوء وأن رواية الخلق الواردة في سفر التكوين هي معزولة عن نظرية النشوء والعكس بالعكس (px31 موريس Studies in the Bible and Science ص 102 - 103). وشكل نمطا المقاربة موضوع أطروحة الدكتوراه للدكتور ريتشارد بليس (Dx 35) وقد عرضت في كتابه: Origins: two Models – Evolution – Creation – 1978.
وكذلك، فإن نمطي المقاربة يُدخلان بكل بساطة في الخطاب التعليمي الثنائية الحاضرة في كل الأدبيات الخلقية. فالخلق (أي الله) والنشوء يُقدمان كنظريتين محتملتين، لكنهما معزولتان الواحدة عن الأخرى. انظر مثلاً Px 75 موريس Scientific Creationism 1974 (Public School Edition)، Px 59 فوكس، Fossils: Hard Facts From Earth. ونجد مثالاً معبراً في Boardman وآخرين Worlds Without End 1971 منشورات CSRC: "هناك مجموعة من العلماء المعروفين باسم الخلقيين، يعتقدون أن الله قد خلق بأعجوبة كل المادة والطاقة... أما العلماء الذين يصرون على أن الكون قد تطور نتيجة لحادث، انطلاقاً من كتلة من الغاز في حالة غليان، دون تعليمات أو مساعدة خالق فهم معروفون باسم النشوئيين".

[23] تشكل فكرة أن الإيمان بخالق والقبول بالنظرية العلمية هما أمران منعزلان عن بعضهما، وتشكل مقدمات خاطئة وتصدم قناعات الكثير من الأشخاص. وقد حدد الدكتور فرانشيسكو آيالا وهو مختص بعلم الوراثة، وذو سمعة كبيرة، ولسقف كاثوليكي سابق وحائز على ما يعادل على الدكتوراه في اللاهوت، حدد أن الكثير من العلماء النشطين يوافقون على نظرية النشوء وهم متدينون بصدق.

وعلى سبيل المثال فإن 4 2/ تؤكد لكونها مبدأ في نظرية النشوء أن "الطفرة والاصطفاء الطبيعي" يكفيان لإحداث وجود "الأنواع" الحية الحالية انطلاقاً من "أنواع" بسيطة المنشأ. والحال فإن الدكتورين آيالا وغولد قد أكدا كلاهما أن البيولوجيين يعرفون أن هاتين العمليتين لا تكفيان لتفسير كل التحولات المهمة الناجمة عن النشوء. ويذكران عدة ظواهر مثل التناضد، والأثر التحويلي، والانحراف الوراثي ونظرية التوازن الفواصلي، بوصفها قادرة على لعب دور هـــام في السيرورة التطورية. وقد حذفت المادة b4 أية إحالة إلى هذه الظواهر. وفوق ذلك، فقد استخدم في المادة b4 مصطلح "الأنواع"، والحال فإن كل العلماء سيقولون بأن الأمر لا يتعلق بمصطلح علمي وبأنه لا يمتلك تعريفاً دقيقاً. يضاف إلى ذلك، فإن القانون يقدم النشوئية والخلقية "جملة". وهكذا فإن نفي جزء مما تقدمه الخلقية على أنه تعريف للنشوئية يستخدم برهاناً لنظرية تتحدث عن طوفان كوني وعن أرض حديثة العهد نسبياً[24].

IVc

بالإضافة إلى تربية ماكرة يحضّ عليها نمطا المقاربة، فإن المادة a4 لم تنجح في تبرير القيمة التربوية للخلقية لأن الخلقية، كما هي معرّفة في هذه المادة، ليست بكل بساطة علماً. وقد حاول عدة شهود تقديم تعريف للعلم. إن تعريفاً وصفياً يقول إن العلم هو "ما هو مقبول لدى المجتمع العلمي" وأنه هو "ما يقوم به العلماء"؛ من الواضح، فإن هذا الوصف يفرض منطقياً، أنه في مجتمع حر، لا تعود *إجازة* القانون أمراً ضرورياً لكي تغدو المعرفة علماً.

وبتحديد أكثر، فإن المعايير الأساسية للعلم هي التالية:

1/ إن العلم تقوده قوانين الطبيعة،

2/ ينبغي أن يمتلك قوة تفسيرية بالإحالة إلى قوانين الطبيعة،

3/ يمكن للمرء التحقق من صحته باختباره على محك التجربة.

4/ استنتاجاته مؤقتة، أي أنها ليست بالضرورة القول الفصل.

5/ أنه قابل للتفنيد (رس وشهود آخرون).

---

[24] هكذا الأمر على الرغم من أن بعض الشهود لم يوافقوا على فرضية أرض "شابة" ولا على فرضية الطوفان. وقد أعلن الدكتور جيسلر بأنه يقتنع بأن الأرض موجودة منذ عدة مليارات من السنين. كما صرح الدكتور فيكرا ماشينغا أن أي عالم يتمتع بالحس السليم لا يمكنه قبول أن عمر الأرض أقل من مليون سنة، أو أن الجيوفيزياء يمكن أن تُفسر بحدوث طوفان غمر الأرض كلها.

إن الخلقية كما هي موصوفة في المادة a4 لا تلبي أياً من هذه المعايير الأساسية. فالمادة تنطلق، في المقام الأول، من المبدأ القائـــل بأن الخلق وقع فجأة "انطلاقاً من العدم" a4 1/. وهذا النمط من التصور ليس علمياً، لأنه يرتكز إلى تفسير ما فوق طبيعي لا يسترشد بقوانين الطبيعة. وهذا لا يمتلك قوة تفسيرية بالإحالة إلى قوانين الطبيعة، ولا يستطيع المرء التحقق من صحته، وغير قابل للتفنيد[25].

إن المادة a4 2/ إذ تؤكد أن "الطفرة والاصطفاء الطبيعي غير كافيين لإحداث تطور كل "الأنواع" الحية انطلاقاً من عضوية بسيطة" هي تعميم غير كاف وعرض سلبي لنظرية النشوء.

أما المادة a4 3/ التي تتحدث عن "تغييرات، داخل حدود محددة، بالنسبة لأنواع النبات والحيوانات المخلوقة منذ البداية، لا تستجيب لأي من المعايير الأساسية للعلم، لأسباب عديدة. فأولاً ليس هناك أي تعريف علمي لكلمة نوع (Kind) ولم يكن أي شاهد قادراً على ذكر جهة علمية واحدة يمكن أن تقرّ الكلمة أو تعرف كم يوجد من "الأنواع". وقد طرح أحد شهود الدفاع أنه ربما هناك من 100 إلى 10 آلاف "نوع" مختلف. ويعتقد شاهد آخر أنه يوجد من 10 آلاف بالمئات، تقريباً. ثانياً، يبدو أن القول يسعى لتثبيت حد أعلى للتغيرات التي يمكن أن تطرأ على الأنواع. ولا يوجد أي تفسير علمي يسترشد بقوانين الطبيعة لهذه الحدود، وهي حينما قد تكون موجودة فإنه لا يمكن تفسيرها بقوانين الطبيعة.

إن الإعلان في a4 "عن أسلاف مختلفين لكل من الإنسان والقرد" هو تأكيد ساذج، وهو لا يفسر أي شيء ولا يحيل إلى أي واقع أو أية نظرية علمية[26].

تحيل المادة a4 5/ إلى "تفسير الجيوفيزياء بالكارثية المتضمنة حصول طوفان شمل كل الكوكب". ولا يمتلك هذا التأكيد أية واقعية علمية. ويحيل القانون إلى قصة نوح

---

[25] "نحن لا نعرف كيف تصرف الله، ولا أية طريقة استخدم لأن الله استخدم طريقة لم تعد تعمل في أيامنا، في الكون الطبيعي. لهذا نحن نتحدث عن خلق خارق. ولن يستطيع أي بحث علمي أن يتيح لنا اكتشاف أي شيء كائناً ما يكون حول طريقة الخلق التي استخدمها الله" (Px78، Gish، The Evolution? Fossils Say No! 42) (الطبعة الثالثة 1970)).

[26] إن الفكرة النشوئية بأن الإنسان وبعض القرود الحديثة، ربما كان لهما جد مشترك قد جرى تشويهها بشدة من قبل مناهضي النشوئية من أجل القول إن الإنسان ينحدر من القرود الحديثة. وهذه الفكرة بحد ذاتها كانت هي أشد ما يصدم الأصوليين. انظر (Epperson ضد Arkansas) 1968.

المروية في سفر التكوين[27]. ويسلّم المؤلفون الخلقيون بأن أياً تكن الطريقة التي حصل بها الطوفان المذكور في سفر التكوين، فهو نتيجة لتدخل ما فوق طبيعي. أما أن طوفاناً شمل الكوكب كله يكون تفسيراً للجيوفيزياء فإنه أمر لا ينتج عن قوانين الطبيعة ومثل هذا الحدث يمكن كذلك أن يُفسر بالإحالة إلى قوانين الطبيعة.

إن المادة a4 6/ لا تستجيب كذلك لمعايير العلم: "فالنشأة قريبة العهد نسبياً" ليس لها أية قيمة علميـــة، إن لم تستند للكتابـــات الخلقية التي تحـــدد هذه النشأة ما بين 6000 و20000 سنة إلى الخلف، بمقتضى علم أنساب العهد القديم. انظر على سبيل المثال (6000 إلى 1000) جيش Px78، و(6000 إلى 2000) Px 87 Segraves.

إن مثل هذا النسق من التفكير لا يسترشد بقوانين الطبيعة، وغير قابل للتفسير بالإحالة إلى قوانين الطبيعة، وليس مؤقتاً.

إن الخلقية، كما جرى تعريفها في المادة a4 ليس فقط لا تستجيب لأي من معايير تعريف النظرية العلمية، لكنها لا تتطابق أيضاً مع أوسع تفسير لما "يفكر به العلماء". إن المجتمع العلمي يتكون من أفرد ومجموعات، وطنية وعالمية، يعملون بصورة مستقلة في ميادين متباينة جداً مثل البيولوجيا، والمستحاثات، والجيولوجيا والفلك. وتنشر أعمالهم، وهي عرضة للمراجعة ويمكن اختبارها من قبل نظرائهم. والصحف التي تنشرها عديدة ومتباينة في الوقت عينه. ولم تنشر أية صحيفة علمية معترف بها أية مقالة تتبنى وجهات نظر النظرية الخلقية كما هي موصوفة في المادة 4 أ. وأفاد بعض شهود الولاية بأن المجتمع العلمي تبنى موقفاً "قصير النظر" حيال الخلقية وأنه كان السبب في أننا لا نجد شهادات في صالح الخلقية. ومع ذلك، فإن أي شاهد لم يذكر أية مقالة علمية جرى رفض نشرها، ربما يحدث أن يُظهر عدد معين من أفراد المجتمع العلمي بعض المقاومة للأفكار الجديدة، لكنه لا يعقل أن تفرض مجموعة من العلماء المستقلين على هذا القدر من الاتساع، حصاراً بطريقة منهجية على فكرة علمية جديدة.

وقد واجه الخلقيون بعض الصعوبات في الحفاظ على تماسك صفوفهم، حينما تعلق الأمر بالعمل على الاعتراف بالخلقية كعلم. فقد صرح معدّ القانون 590، ايلوانجر، بأن لا

---

[27] ليس فقط أن هذه الفكرة كانت مقبولة لدى كل شهود الدفاع تقريباً لكنها أيضاً كانت مميزة للأدبيات المختلفة. انظر مثلاً Kofahl ضد Segraves، وكذلك:

The Creation Explanation 40: "أحدث طوفان نوح تغيرات واسعة على سطح الأرض منها البراكين وظهور الجبال، واختزان كل طبقة الرسوبيات تقريباً". وسمي هذا المبدأ بـــ "الكارثية التوراتية".

الخلقية ولا النشوئية هما من العلوم. وأنه يعتبرهما كليهما من الأديان. وقد ردّ ديان جيش مؤخراً على مقالة ناقدة للخلقية نشرت في مجلة *Discover* بقوله: "يصرّح ستيفن جاي غولد بأن الخلقيين يعملون على أن يتمّ الاعتراف بالخلقية كعلم. وهذا خطأ. فإن الخلقيين لم يكفوا عن تكرار القول بأن لا الخلقية ولا النشوئية هما دينيتان" (جيش، رسالة إلى مدير النشر في *Discover* تموز 1981، ملحق Plaintiffs' Pretrial Brief).

توفر المنهجية التي توسلها الخلقيون حجة أخرى لإثبات أن عملهم ليس علمياً. فأية نظرية علمية يتوجب عليها أن تظل مؤقتة، وعرضة دائماً للمراجعة ويمكن التخلي عنها إذا جرى الكشف عما يناقضها أو يدحضها. أما نظرية هي بحد ذاتها عقائدية، استبدادية وغير قابلة للمراجعة مطلقاً فليست بالنظرية العلمية.

لا يتركز نهج الخلقيين على أخذ بعض المعطيات، وعلى موازنتها مع معطيات علمية مناقضة، وانطلاقاً من ذلك، يجري استخلاص النتائج الواردة في 4 أ. عوضاً عن ذلك، فقد أخذوا التفسير الحرفي لسفر التكوين وحاولوا أن يوجدوا له قاعدة علمية. وسوف نجد أفضل تفسير لهذا النهج في كتاب موريس (Px 31) *Studies in the Bible and Science* في الصفحة 114: هاكم عباراته: "... إنه يستحيل إطلاقاً أن نحدد أي أمر يتعلق بالخلق من خلال دراسة سيرورة حالية - لأن السيرورات الحالية ليست هي الخالقة بذاتها. وإذا ما أراد الإنسان أن يعرف أي أمر بخصوص الخلق (زمن الخلق، مدة الخلق، أساليب الخلق، أو أي أمر آخر)، فإن مصدره الوحيد للمعلومات الحقيقية هي الكلمة الإلهية. لأن الله كان حاضراً حينما حدث ذلك. وليس نحن.. وبالتالي فإننا محكومون حتماً بما قدره الله أنه من المناسب إطلاعنا عليه، المعلومات توجد في.. كتابه المقدس. وهذا هو دليلنا للخلقية!"

وقد تبنت "Creation Research Society" المقارنة غير العلمية ذاتها المتعلقة بالخلقية.. إذ يتوجب على طالبي الانضمام إليها التعهد بالإيمان بأن نص سفر التكوين "تاريخياً وعلمياً صحيح في جميع نصوصه الأصلية"[28]. إن المحكمة لن تؤاخذ مطلقاً إنساناً على قناعاته الدينية ولن تدحض شهادة أي كان للأسباب ذاتها. ومع أن أي امرئ هو حرّ في مقاربة أي بحث علمي كما يفهمه، فإنه لا يمكن الحديث حقاً عن منهجية علمية حينما نبدأ من الخاتمة وعندما نرفض تعديلها على الرغم من البراهين التي ترد في أثناء البحث.

---

[28] انظر الهامش السابق رقم 7، للإطلاع على النص الكامل لعقيدة الـ CRS.

انطلق المدعى عليهم في سياق محاولاتهم إقامة "الدليل" على الصفة العلمية للخلقية، من المقدمات الخاطئة ذاتها كما في المقاربة الثنائية الموصوفة في الفقرة 4، أي أن كل دليل لا يؤكد نظرية النشوء يصبح دليلاً يؤكد الخلقية. وعلى سبيل المثال، يؤكد المدعى عليهم أن الاحتمال الرياضي لأن يؤدي مركب كيميائي ناجم عن الصدفة إلى إحداث الانتقال من اللاحياة إلى الحياة هو احتمال ضعيف جداً لدرجة أن مثل هذه الإمكانية لا يمكن تصور حدوثها. ويؤكد المدعى عليهم أن هذه الوقائع المنطقية تشكل البرهان العلمي على أن وجود الحياة هو من فعل خالق. وعلى الرغم من أن الأرقام الإحصائية يمكنها أن تحل محل البرهان من أجل الطعن في نظرية المركبات الناجمة عن الصدفة بوصفها تفسيراً للنشوء، فإنه ينبغي تجاوز الإيمان من أجل تفسير هذه الأرقام على أنها حجة في صالح نظرية كاملة تجمع فكرة الخلق المفاجئ انطلاقاً من العدم، وحدوث الطوفان في العالم بأكلمه، ووجود الأسلاف المختلفين بالنسبة للإنسان والقرد والنشأة حديثة العهد للأرض.

إن حجج المدعى عليهم ستكون أكثر إقناعاً لو لم يكن هناك في الحقيقة إلا نظريتان أو فرضيتان لنشأة الحياة والعالم. وقد أقرّ الشاهدان اللذان استدعتهما الولاية، الدكتور فيكيرا ماسنيغه والدكتور جيسلر بوجود عدة نظريات. وقد عرض الدكتور فيكرا ماسنغه بالتفصيل إحدى هذه النظريات[29]: قد تكون الحياة "بُذرت" في الأرض من قبل شهب قد تكون أودعت على سطحها مادة وراثية وربما عضويات ناشئة عن غبار بينجمي تم اجتناؤه بالتأكيد مما خلف النظام الشمسي. وتقود نظرية "الزرع" إلى فرضية أن الأرض لا تزال تحت تأثير هذه المادة الوراثية القادمة من الفضاء وأن هذا لا يزال يؤثر على الحياة. وعلى الرغم من أن نظرية فيكرا ماسينغه حول نشأة الحياة لم تحظ عموماً بترحاب الوسط العلمي، فقد توصلت على أية حال منهجية علمية من أجل صياغة نظرية حول النشأة تستجيب للمعايير الأساسية للعلم.

يُحتمل أن الدكتور فيكرا ماسينغه قد استُدعي للشهادة بسبب وجهة نظره الناقدة لنظرية النشوء والوسط العلمي عموماً، وهذا تكتيك منسجم مع الاستراتيجية المرسومة من الدفاع. لكن الدفاع ولسوء الحظ، قد بيّن أن المقاربة الثنائية والسانجة لنشأة الحياة كانت

---

[29] هذه النظرية معروضة بالتفصيل في كتاب فيكرا ماسينغه وسير فرد هويل: Evolution From Space، 1981، Dx 79.

خاطئة. وأكثر من ذلك، فقد عزز تصريحات الشهود الذين استدعاهم المدعون باستنتاجه أن"أي عالم عقلاني" لن يمكنه الإيمان بتفسير للجيوفيزياء بالإحالة لطوفان كوكبي أو بأن الأرض تبلغ من العمر أقل من مليون من السنين.

ويقوم الدليل المقدم للدفاع عن الخلقية بصورة وحيدة تقريباً على محاولة نزع ثقة تُصبُّ على نظرية النشوء، عبر استخدام مُنقح لمعطيات ونظريات معروفة لدى الوسط العلمي منذ عشرات السنين. ولا تقوم الحجج المقدمة من طرف الخلقيين على أدلة علمية جديدة أو على معطيات تجريبية لا تزال غير معروفة لدى الأوساط العلمية.

ومما لا ريب فيه أن اكتشاف روبرت جنتري حول هالات البولونيوم المشع في الغرانيت والخشب المتفحم هو العمل العلمي الأكثر حداثة المستخدم من قبل الخلقيين من أجل تدعيم مقولتهم حول "بداية للعالم قريبة نسبياً" وحول "حدوث طوفان غمر الكوكب كله". وقد اعتبر وجود هالات البولونيوم في الغرانيت والخشب المتفحم أمراً متناقضاً مع أسلوب قياس القوة الإشعاعية في التأريخ المبنية على المعدل الثابت لزوال النشاط الإشعاعي. وقد نشرت اكتشافات روبرت جنتري منذ حوالى عشرة أعوام وكانت موضع نقاشات داخل الوسط العلمي. بيد أن هذه الاكتشافات لم تؤد إلى صياغة أية فرضية أو نظرية علمية مفسرة لبداية قريبة نسبياً للعالم أو لحدوث طوفان شمل الكوكب كله. وقد اعتبرت اكتشافات روبرت جنتري ألغازاً ذات أهمية ثانوية يمكن أن يُعثر على تفسير لها يوماً ما. ويحتمل أن هذا يستحق القيام بأبحاث إضافية، لكن " National Science Foundation" لم ير من المناسب تمويل أبحاث جديدة.

أما شهادة ماريان ويلسون[30] فقد أقامت الدليل الواضح على أن الخلقية ليست من العلم في شيء. وتشغل السيدة ويلسون منصب مسؤولة البرامج العلمية في " Pulaski Country Special school District "، وهي أهم مدرسة محلية في ولاية آركنساس. وقد قام لاري فيشر مدرس العلوم في المنطقة، قبيل التصويت على القانون 590، بإقناع مجلس المدرسة، بفضل مساعدة الـ ICR، بإضافة تعليم الخلقية إلى البرامج الدراسية، على قدم المساواة مع العلوم الأخرى. وقد كلف "المسؤول الأعلى في المقاطعة" السيدة ويلسون بتأليف دليل تربوي من أجل تعليم الخلقية. وقد كانت شهادة السيدة ويلسون حول هذا

---

[30] أعلنت السيدة ويلسون أن بعض المدرسين الذين تحدثت إليهم عن هذه الصعوبات قد تأثروا وحاولوا مساعدتها في إيجاد الوثائق العلمية من أجل دعم المادة 4 أ. بينما طلب منها آخرون أن تنسى الموضوع بكل بساطة.

المشروع مقنعة بصورة خاصة، لأنها قاربت كما يبدو هذه المهمة بذهن مفتوح ودون أفكار مسبقة في هذا الميدان. وحتى عام مضى تقريباً، لم تكن مطلقاً قد سمعت أي شيء عن الخلقية، ولم تكن تعرف حتى معناها قبل أن تبدأ بحثها.

وقد عملت السيدة ويلسون ولجنة مؤلفة من مدرسي علوم عينتهم المنطقة، على مراجعة كل الأدبيات الخلقية تقريباً. وتوصلت السيدة ويلسون واللجنة إلى الاستنتاج الإجماعي بأن الخلقية ليست علماً، وإنما هي دين. وقد أطلعوا المجلس على ذلك، فتجاهل رأيهم وأصرّ على أن تتم طباعة هذا الدليل التربوي لتعليم الخلقية.

وقد استنجدت السيدة ويلسون، بهدف متابعة أبحاثها حول الموضوع، بالسيد فيشر الذي كان وراء حركة المجلس، وطلبت مشورة ومساعدة مدرسي العلوم في جامعة أركنساس في ليتل روك وجامعة سنترال أركنساس بقصد الحصول على الوثائق التي تستطيع الإحالة إليها، وانتبعت ورشة عمل في سنترال بابتيست كوليج يديرها الدكتور ريتشارد بليس، عضو الـ ICR. وقد جرى التصويت على القانون 590 بينما كانت أبحاثها لا تزال في طور الإعداد، فلجأت عندئذٍ إلى المادة 4 لصياغة دليلها.

وتعتبر السيدة ويلسون أن كل الوثائق المتوفرة الصادرة عن الخلقيين غير مقبولة، لأنها كلها مشبعة بإحالات دينية وتنتج عن قناعات دينية. ويمكن للمرء أن يفهم بسهولة لماذا رفضت السيدة ويلسون وكذلك المربون الذين كانوا يعلمون معها المطبوعات والكتب المدرسية الخلقية. ذلك أن هذا العتاد يورد النظرية النشوئية بطريقة مغلوطة كما هو الحال في المادة 4 من القانون، ويلح على واقع أن تبني الخلقية يمنع تبني نظرية التطور والعكس بالعكس، ويجري بثبات تشجيع الطلاب على مقارنة نمطي المقاربة، وأخيراً فإن هذا العتاد لم يُقدم بطريقة متكافئة. ونجد مثالاً مميزاً على ذلك في Origin (Px 76) لريتشارد بليس، مدير الـ "Curriculum Development" في الـ ICR. ويبدأ التقديم بلوحة تصف "الأفكار المسبقة حول النشأة" وتوحي بأنه يوجد ناس يؤمنون بأن نظرية النشوء هي نظرية ملحدة. وقد جرى عرض تصورات النشوئية مثل التشعبات التكيفية بطريقة مغلوطة. ففي الصفحة 11، رقم 16 من النص، ثمة لوحة تُعرض كتفسير لهذا "الجزء الهام جداً" من النموذج النشوئي. توصل اللوحة فكرة أن الثدييات المتباينة جداً مثل الحوت والدب والخفاش والقرد قد تطورت انطلاقاً من فأر السم بفعل سيرورة التشعبات التكيفية. ومثل هذ الإيحاء، كما هو مفهوم، مغلوط تماماً، ويقدم رؤية مخادعة لتطبيق النظرية. أما اللوحة في الصفحة 17، وتحمل الرقم 16، فهي تستحق الرفض أكثر أيضاً، إذا تذكرنا أنه

يطلب إلى الطلاب أن يختاروا ما بين هذه النظرية أو تلك. وتدعي اللوحة أنها تفسر أن أنصار النشوئية يعتقدون بأن الإنسان قد تطور انطلاقاً من بكتيريا ليصبح سمكة، ثم زاحفة، ثم ثديياً ثم إنساناً. ويشرحون أن الثديي الذي انحدر الإنسان منه هو "فأر".

إن Biology, a Search for Order in Complexity [31] هو كتاب البيولوجيا المدرسي للتعليم الثانوي، وهو نموذج للمطبوعات الخلقية. وإليكم بعض المقتطفات منه على سبيل المثال:

ليس للأزهار أو الجذور العقل لتقرر مصيرها. فإنه يعود للخالق أن يقرر عنها (ص 12).

الجمال الرهيف لألوان وأشكال الأزهار يفوق موهبة الشاعر، والفنان أو الملك، يقول يسوع (مقتطف من إنجيل متى).

انظروا الزنابق في الحقول، دون أن تتقصف، أو دون أن تتعقف (Px363, Px129).

وتُغفل بمنتهى البساطة نصوص "Public School Edition" التي يكتبها الخلقيون عن ذكر مراجعها التوراتية، في حين يكون المحتوى والرسالة هما محتوى ورسالة التوراة. وعلى سبيل المثال، تحتوي مقالة: "Evoloution. The Fossils Say No!"[32] على ما يلي:

"الخلق. يقصد منح الحياة، من قبل الخالق، لكل "الأنواع" الأساسية من النبات والحيوان عبر سيرورة الخلق المفاجئ، المرسوم." "نحن لا نعرف كيف خلق الخالق، وأية طريقة استخدم، لأنه استخدم سيرورة لا تعمل، حالياً، في أي مكان من الكون الطبيعي. لذلك فنحن نتحدث عن الخلق بوصفه خلقاً خارقاً. ولا يقدم البحث العلمي أي اكتشاف لطريقة الخلق المستخدمة من قبل الخالق" (ص 40).

يصف كتاب جيش أيضاً الغالبية العظمى من النشوئيين بأنهم "ماديون، ملحدون أو لا أدريون".

أما نص Scientific Creationism (Public School Edition) لموريس، فهو نص آخر درسته لجنة السيدة ويلسون، وقد رُفض واعتُبر غير مقبول. وتقدم المقتطفات اللاحقة

---

(31) PX 129 نشرت من Zonderman Publishing House 1974. وقد أعلن أن هذا النص كان قد أعد من قبل "Text Book Committee of the Creation Research Society" وعلى خلف الصفحة الأولى للغلاف ألصق تحذير يشير إلى أن هذا الكتاب لا يمكن استخدامه في المدارس العامة.

(32) Px 77، ديان جيش.

مثالاً لغاية وموضوعة الكتاب: توطئة: "ينتاب القلق بعض الأهل، وقادة الشبيبة وكذلك بعض العلماء وبعض المربين، جراء الشعبية التي تحظى بها الفلسفة النشوئية، وجراء تأثيرها على البرامج الدراسية الحديثة. حيث تبدو هذه الفلسفة معادية للمسيحية الأرثوذكسية، ولليهودية وكذلك أيضاً لمجتمع سليم ولعلم حقيقي، ويؤمن كثير من الناس بها. بالطبع، يعتبر العقلانيون مفهوم خلق خارق ساذجاً لدرجة لا تحتمل، بل "لا يصدق". ومثل هذا الحكم، أياً يكن، لا يعدّ مشروعاً إلا "إذا أنكر الإنسان إنكاراً كاملاً وجود الله كليّ القدرة".

فيما عدا الأدبيات الخلقية، لم تنجح السيدة ويلسون في العثور حتى على مقالة واحدة علمية بالمعنى المحدود بصفة رسمية أو أعمالاً تنحو في الاتجاه نفسه باستثناء المادة 4د، لكنها وبهدف إنجاز المهمة التي كلفها المجلس بها فقد استخدمت كوثائق بعض المقالات كتلك المنشورة في ريدرز دايجست حول "البندول الذري" والتي تستنتج أن عمر الأرض أقل من أربعة مليارات ونصف المليار من السنوات، ولم تتمكن من العثور على أية وثيقة جادة تصلح لتعليم جزء المادة 4 المتعلق بالطوفان. ولا يصلح الدليل الذي ألفته للتعليم وليست له أية قيمة تربوية أو علمية.

ولم يورد المدعى عليهم أي نص لإثبات ما يؤكدونه، مع العلم أنه كان مستخدماً في صفوف المدارس العامة[33]. إن الاستنتاج بأن الخلقية ليست لها أية صفة علمية أو أية قيمة تربوية بوصفها علماً، يصبح ذو دلالة قضائية، إذا ما استندنا إلى الاستنتاجات السابقة للمحكمة التي بينت أن الهدف الرئيس للخلقية هو إعلاء شأن الدين. ولا تنطبق النقطة الثانية من النقاط الثلاث المتعلقة باحترام قانون ("قانون الإنشاء Establishment Clause") إلا على القوانين التي تكون نتائجها الأولية تقدم الدين. أما النتائج الثانوية والتي قد يكون من شأنها إعلاء الدين فليست مخالفة للدستور. وبما أن الخلقية ليست علماً، فإن الاستنتاج محتم: بأن النتيجة الحقيقة الوحيدة للقانون 590 هي إعلاء شأن الدين. وبالتالي فإن القانون لا يتوفر على التعريفين المقدمين في قضية " Kurtzman ضد Lemon" لعام 1971.

---

[33] التصويت على القانون 590 باغت كما يبدو عدداً من أنصاره، وكذلك المدارس المحلية. وقد صرح معد القانون بول إيلوانجر، في رسالة إلى "Dick" (ربما يكون الدكتور ريتشارد بليس من ICR): "أخيراً، إن كان لديك ثمة معرفة بالكتب المدرسية من كل المستويات، حول كل موضوع والتي تعتبرها مقبولة ومطابقة للدستور، فإنه سيكون شيئاً "هائلاً" بالنسبة لهؤلاء الناس الحائرين الذين سيفاجأون، كما هو حال أركنساس حالياً، بالإلزام المباشر بممارسة لعبة جديدة لم يكونوا مستعدين لها أبداً (sic): وثيقة غير مرقمة ملحقة بشهادة إيلوانجر.

IVe

يؤسس القانون 590 "التعليم متكافئ" للخلقية ولنظرية النشوء. بينما يمنع القانون تعليم أية عقيدة دينية أو نصوص تستند إلى الدين. وقد ناقض القانون نفسه ويصبح تطبيقه مستحيلاً إلا إذا قررت المدارس العامة التخلي عن تعليم أقسام كاملة من مواد مثل البيولوجيا، وتاريخ العالم، والجيولوجيا، وعلوم النبات، والنفس والإنتروبولوجيا والاجتماع، والفلسفة والفيزياء والكيمياء. وتتشبع مبادئ نظرية النشوء حالياً، وكما هي موصوفة في b4، الكتب التعليمية في المدارس العامة، في حين لا يجد المدرسون أية وسيلة لتعليم قصة الخلق بطريقة علمانية.

سيتوجب على وزارة تربية الولاية "عبر لجنة اختيار الكتاب المدرسية فيها، ومجالس المؤسسات التعليمية وإداريي المدارس أن يكونوا باستمرار في منتهى اليقظة لتجنب استخدام المراجع الدينية في المدارس العامة. وسيجد مجالس المدارس وإداريوها ومدرسوها أنفسهم أمام مهمة مستحيلة. فما الذي على المدرس أن يفعله للإجابة على الأسئلة المتعلقة بالخلق الفجائي انطلاقاً من العدم؟ وكيف يمكن لمدرس أن يحدد تصوراً لنشأة للعالم قريبة العهد نسبياً؟: إن الجواب بديهي لأن المصدر الوحيد للمعلومات، في التحليل الأخير، يقوم في نص سفر التكوين.

وتثبت بوضوح الإحالات إلى التصورات الدينية التي نجدها في كل مكان تقريباً في نصوص الخلقيين لماذا يقود القانون 590 حتماً إلى التداخل ما بين الكنيسة والدولة.

أما أمر أن تكون الدولة معنية بتقصي الإحالات الدينية الممنوعة، داخل النصوص، فإنه سيقود موظفيها إلى وجوب إصدارهم أحكاماً دينية دقيقة: أما ضرورة مراقبة النقاشات داخل الصفوف، بهدف احترام المنع الذي يفرضه القانون على نشر أي تعليم ديني، فإنها ستورط الإداريين حتماً في تساؤلات حول الدين، وبسبب هذا التوريط المستمر لموظفي الدولة في تقديرات دينية تورطاً مفرطاً وممنوعاً للدولة في الأمور الدينية. (قضية براندون ضد هيئة التعليم).

V

وهذه الاستنتاجات تكفي لإصدار الحكم في هذه القضية ولا يعود من الضروري الذهاب إلى الاستنتاجات القانونية بالنسبة للمسائل التي تبقت للنظر فيها. فقد أثار المدعون مسألتين أخريين تتعلقان بالصفة الدستورية للقانون. وبما أن نتائج التحقيق حول هذا الموضوع لم يتم عرضها في النقاشات السابقة، فإن المحكمة ستنظر في هاتين المسألتين. وفوق ذلك، فقد أثار المدعى عليهم مسألتين أخريين تستحقان النقاش.

Va

أولاً، يدعي المدرسون المدّعون أن القانون مخالف للدستور بسبب عدم دقته في التقدير حيث أنهم لا يستطيعون "معاملة النظريتين بطريقة متكافئة" دون المجازفة بفقدان وظائفهم. وترتكز حجتهم على واقع أن عبارة "متكافئة" ليس لها تحديد دقيق. فقد أفاد عدة شهود بأنه يمكن إعطاء الكلمة معان على قدر من الاختلاف مثل: وقت متساو" أو "وزن متساو" أو "شرعية متساوية". صحيح أن القانون كان بوسعه أن يكون أكثر وضوحاً، بيد أن كلمة "متكافئة" هي كلمة شائعة الإستخدام. ولا يمكن إقامة الدليل المقنع على أن مدرساً يستخدم الكلمة بمعناها الكثير الإستخدام، ويبدي نية صادقة لتطبيق القانون يمكن أن يكون مهدداً بالتسريح من عمله. وثمة فقرات في القانون مثل "بداية الأرض والحياة القريبة العهد نسبياً" يمكن قبولها. غير أن كلمة "قريبة العهد نسبياً" تعني أنها وقعت ما بين 6000 و20000 سنة مضت، بحسب ما هو مقبول عموماً في الأدبيات الخلقية وما هو مصرح به هنا، غير أن هذه التوضيحات وكذلك المادة 4a بصورة عامة تتعلق بوضوح شديد "بمبدأ الإنشاء".

Vb

المسألة الثانية التي أراد المدعون النظر فيها تتعلق بحق حرية التعليم بالنسبة للمدرسين والطلاب، وهو حق انتهكه المدعى عليهم. وقد اتضح أن هذا التدخل غير المسبوق للدولة في تقرير المناهج المدرسية لا يسمح للمدرسين بتدريس ما يرونه مناسباً لأن يدرس أو يجبرهم على تدريس ما يعتقدون أنه خاطئ. وهذا يكشف أن "وزارة تربية الولاية"، ومجالس المدارس المحلية والإداريين قد مارسوا القليل جداً، لا بل أنهم لم يمارسوا أي تأثير على اختيار مضامين البرامج التي يدرسها المدرسون في صفوفهم. وقد تُركت للمدرسين الحرية الكاملة للتركيز على المواضيع التي يعتبرونها هامة. وقد قيدت حدود هذه الحرية بالكتب المدرسية المقرّة من "وزارة التربية" وبكتب الدليل التربوي التي تقدمها المناطق.

وقد أوضح عدة شهود أن حرية التعليم بالنسبة للمدرّس تعني أن كل مدرس يتمتع بمطلق الحرية في إطار أخلاق المهنة. ولا تميل المحكمة لتبني هذا التعريف لحرية التعلم في المدارس العامة.

على أية حال، فلو جرى تطبيق القانون 590، فإن العديد من المدرسين سيكونون ملزمين بتعليم الخلقية التي لا يعتبرونها صالحة فكرياً. وسيمتنع كثير من المدرسين بكل بساطة، عن مقاربة بعض المواضيع بسبب الإلزام الذي تفرضه عبارة "التعليم بطريقة متكافئة" حتى لو كانوا يعتقدون أن هذه المواضيع تكتسي بعض الأهمية لدروسهم.

وكان سيترتب على تطبيق القانون 590 نتائج خطيرة ومشؤومة بالنسبة للطلاب، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لأولئك الذين سيدخلون إلى الجامعة. ذلك أن نظرية النشوء هي حجر الزاوية للبيولوجيا الحديثة وتثير مواد كثيرة تُدرس في المدارس العامة مواضيع مختلفة جداً مثل عمر الأرض، والجيوفيزياء والعلاقات بين الكائنات الحية. والطالب الذي سيكون ممنوعاً عليه تعلم الفكر العلمي لعصره حول هذه المواضيع سيكون محروماً من جزء كبير من التعليم العلمي. لعصره حول هذه المواضيع سيكون محروماً من جزء كبير من التعليم العلمي. ومثل هذا النقص خلال مراحل دراسته الثانوية سيكون له بالتأكيد مضاعفات على سوية التعليم الجامعي للولاية - وعلى الأخص على التعليم التحضيري والتخصصي لعلوم الصحة.

Vc

يعلن المدعى عليهم، في ملفهم، أن النشوئية هي دين في الحقيقة، وأن تعليم دين مخالف لقناعات بعض الطلاب فإن الولاية تمس بحقوقهم بحسب التعديل الأول. وتوضح نتائج التحقيق التشريعي للسيد ايلوانجرا التي تمّ تبينّها نهائياً من قبل مشرعي آركنساس في نصّ القانون 590: "أن نظرية النشوء تخالف القناعات الدينية، والقيم الأخلاقية، والمذاهب الفلسفة لطلاب عديدين ولأهاليهم المنتمين إلى أديان مختلفة ولهم مذاهب أخلاقية وفلسفية متنوعة. (قانون 590، فقرة d7).

ويؤكد المدعى عليهم أنه إذا جرى تعليم النشوئية فإن ذلك سيثير في الآن ذاته، مشكلة تتعلق بحرية الضمير وبحرية الممارسة الدينية والتي لن تُحلّ إلا من خلال تعليم متكافئ للخلقية المتوافقة مع بعض القناعات الدينية. وتقوم في أساس هذه الشهادة مذكرة تربوية كتبها السيد ويندل بيرد بعنوان (حرية الدين والعلوم) (Freedom of Religion and Scienses. Instruction in Public Schools. 87 Yale LJ 515. 1978) وليس لهذه الشهادة أية قيمة قضائية.

ولو سلمنا، مع ذلك، من أجل استكمال المحاكمة، أن النشوئية دين أو عقيدة دينية، فإن الحل سيكون في عدم متابعة وتعليم هذه المادة، وليس بإدخال تعليم دين آخر لمواجهة الأول. غير أنه أثبت بوضوح من خلال الإدراك السليم أن النشوئية ليست ديناً وإن تعلمها لا يخترق بتاتاً "مبدأ الإنشاء". "ايبرسون ضد آركنساس" انظر أعلاه ويلوغبي ضد سيتفر" رقم 18/1973 أيار DDC). وكذلك "رايت ضد هوستون (Indep. School Dist) cert. denied 1974.

قدم المدعى عليهم الدكتور لاري باركر، المختص بالبرامج المدرسية في المدارس العامة. والذي صرّح أن برامج المدارس العامة المدرسية، ينبغي أن تعكس رغبات الجمهور في اختيار المواد التي يجب تدريسها. وقال الشاهد أن الاستطلاعات تشير إلى أن غالبية ذات معنى من الأمريكيين تعتقد بأن الخلقية ينبغي أن تدرس إذا كانت النشونية تدرس. ولا تقع هذه الشهادة في الحقل القضائي. فمما لاشك فيه أن أغلبية هامة من الأمريكيين تؤمن بمفهوم الخالق، أو على الأقل لا يعارضون هذا المفهوم، ولا يرون أي ضير في تعليمه لأطفال المدارس.

إن فحوى وتطبيق التعديل الأول لا يتحددان باستطلاعات الرأي أو بتصويت الأغلبية. وسواء شكل هؤلاء الذين اقترحوا القانون 590 أغلبية أو أقلية فليس لهذا الأمر أية درجة من الأهمية. إذ لا تستطيع في نظام حكم دستوري، أية مجموعة ومهما كانت أهميتها استخدام أجهزة الإدارة، حيث تُعتبر المدارس العامة من بين أكثرها تميزاً وأكثرها تأثيراً، من أجل فرض قناعاتها الدينية على الغير.

إن المحكمة تختم هذه الخلاصة بفكرة بليغة للقاضي الكبير فرانفكورتر: "تكرر القول بامتناع، أننا أسسنا وجود هذا البلد ذاته على الإيمان بأن فصل الكنيسة عن الدولة هو أفضل حل بالنسبة للكنيسة وبالنسبة للدولة" "إيفرسون ضد هيئة التعليم" وإن كان ثمة ميدان يعني فيه مبدأ "كل في مكانه" شيئاً ما، فإنه بالتأكيد ميدان العلاقة بين الكنيسة والدولة. "ماك كولوم ضد هيئة التعليم" 1948.

إن الإيعاز سيصدر بالمنع البات لتطبيق القانون 590.

صدر في الخامس من كانون الثاني من عام 1982.

ويليام ر. أو فيرتون في المحكمة المقاطعة في الولايات المتحدة... المقاطعة الشرقية من أركنساس. القسم الغربي.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	7
I ــ الحملات الصليبية الخلقية	
قضية آركنساس .	9
معهد البحث حول الخلق .	15
قضية القرد "مجدداً"	19
لغز	28
II ــ داروين أمام الله	
أسطورة	31
من الإصلاح إلى العلوم الحديثة	35
عالم "اللاهوت الطبيعي"	39
داروين: إصطفاء دون اختيار؟	47
"ألوهية" داروين	53
تشارلز داروين في مأزق فلسفي	60
III ــ اللاهوت الطبيعي والأصولية	
أمريكا الإيكوسية	69
اللاهوت المهدد I	75

للاهوت المهدد II 81
داروين في أمريكا 83
رهان الأصوليين 94
النشوئية وخطر العقائدية 106

IV ــ هل ثمة علم خلق؟

قيامة الخلقيين 113
"علم الخلق" 115
تفنيدات رسمية 125
الابيستيمولوجيا في المحكمة 129
تطور الداروينية 135
ثمن الدوغمائية 142

V ــ أمريكا المكتشفة

السياسة والدين 147
الأخلاق الخلقية 157
عن المدرسة في أمريكا 167
التيكنو ــ لاهوتية 171
العلموية ومعاداة العلم 173
الخاتمة 177
الملحق – قرار المحكمة 185
الفهرس 215

2011/1/894

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net